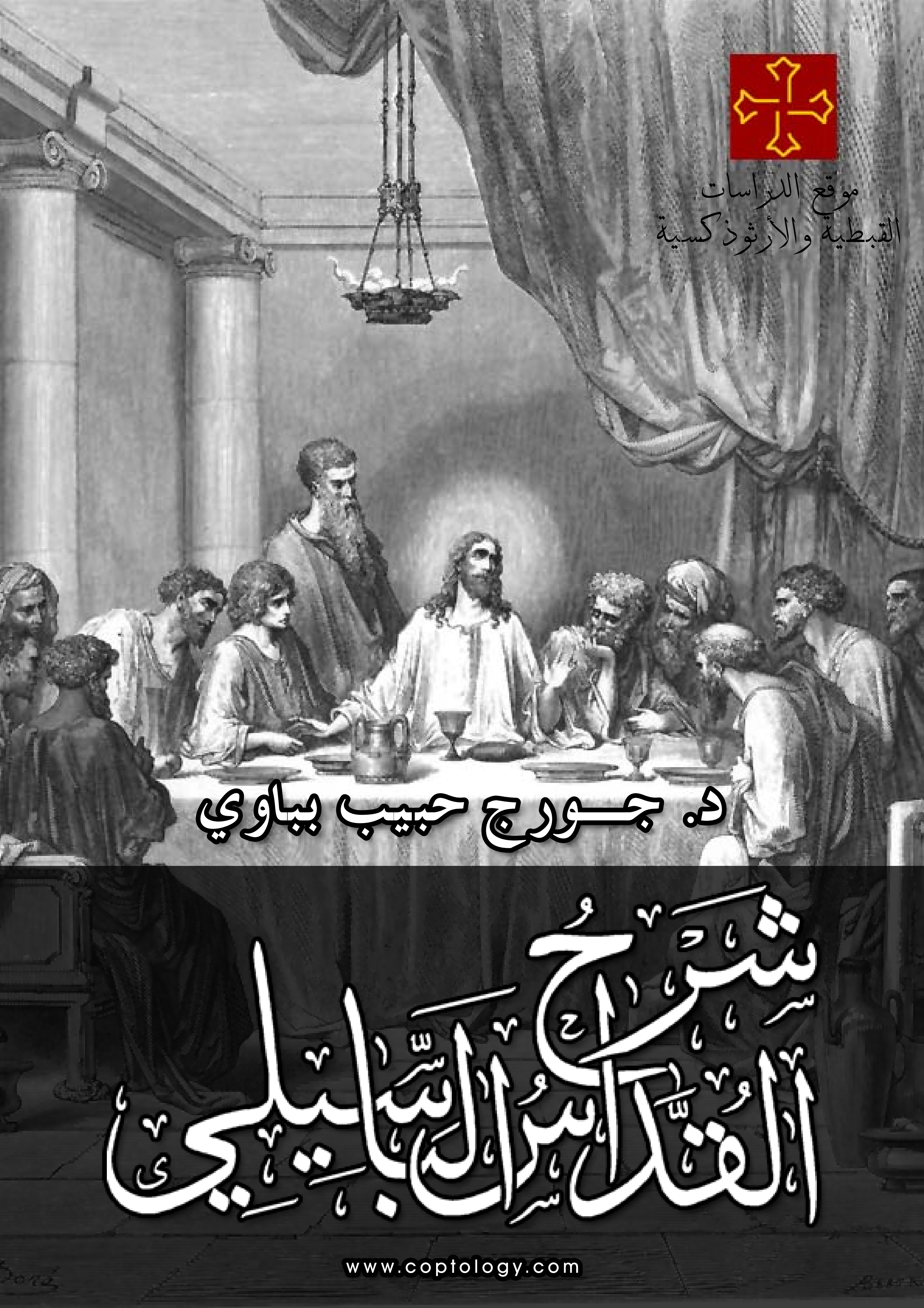
موقع الدراسات
القبطية والأرثوذكسية



د. جورج حبيب بباوي

شرح القداس الباسيلي

www.coptology.com

الكلية الإكليريكية للأقباط الأرثوذكس

شرح القداس الباسيلي

تعليق وتفسير لكثير من أقوال الآباء

دكتور

جورج حبيب بباوي

الخاتمة

تقديم

إن أسرة القديس كيرلس عمود الدين للكلية الإكليريكية - القسم المسائي - قد حملت على عاتقها مهمة طبع الكتب والدراسات التي ينعم الله ا علينا كخلاصة لفكر أساتذة الكلية وصلوا م وكثمرة للمحبة التي تدفعهم إلى دوام البحث والدراسة.

وقد بدأت الأسرة بطبع كتاب الإكليروس الذي يتحدث عن القوانين الخاصة بالشمامسة لأستاذ القانون الكنسي بالكلية المستشار/ عوني برسوم.

ولم تتوقف الأسرة عند كتاب واحد أو كاتب واحد بل مضت قدماً في نشر فكر بقية الأساتذة الأجلاء الذين تعبوا من أجل الإنجيل.

فهي إذ لاحظت ندرة الدراسات التي تتناول شرح القداس الإلهي بطريقة أكاديمية موضوعية وعلى أساس أبائي تقليدي فأ ا قد تحمست لأن تخرج إلى النور كتاب القداس الباسيلي للدكتور/ جورج حبيب بباوي، مدرس علم أقوال الآباء بالكلية.

وهذا الكتاب إذ يغوص بطريقة أكاديمية في أعماق الفكر اللاهوتي لآباء الكنيسة الشرقية، فإنه يقف على كثير من الفروق اللاهوتية بين الفكر اللاهوتي الشرقي القائم على الإيمان والنسك، والفكر اللاهوتي الغربي - بكافة تطوراته - القائم على البحث العقلي ا رد.

وقد تضمن هذا الكتاب شروحات كثيرة جمعت من خولاجيات قبطية وعربية تزيد على ألف خولاجي في المتحف القبطي، والمتحف البريطاني، والمكتبة الأهلية بباريس، ومكتبات جامعة أكسفورد، وكامبريدج، والفاتيكان، والأديرة القبطية بوادي النطرون.

والأسرة إذ تقدم هذا الكتاب في صورة متواضعة فإ ا تثق في أن الله سيكمل عملها من أجل طبع كافة الكتابات الإكليريكية بأحدث أساليب الطباعة، لكي تخرج دائماً في صورة تليق بما تحتويه من فكر، وباتساع يناسب حاجـة ا تمـع الكنـسي العريض.

ولإلهنا كل مجد وكرامة إلى الأبد آمين،،،

أسرة القديس كيرلس عمود الدين

✞ ✞ ✞

مقدمة عامة

كلمة قداس من الكلمات السريانية التي دخلت اللغة العربية، وهـي تعـني الصلوات التي يتقدس ا الشعب والتقدمة. وعندما نقول القداس الباسيلي فـنحن في الواقع لا نقصد مطلقاً أن هذه الصلوات كتبـها القـديس باسـيليوس، ذلـك ان القداسات، وان كانت تحمل عدة أسماء لقديسين عظام، من معلمي الإيمـان، إلا أن هذه الصلوات معروفة في الكنيسة قبل أن يولد هؤلاء. وإذا ألقينا نظرة علـى أسمـاء القداسات وجدنا أ ا تحمل أسماء آباء القرن الرابع والخامس مثل باسيليوس - ذهـبي الفم - كيرلس - غريغوريوس الثيؤلوغوس... الخ. وهذه الظاهرة هامة جداً، فهـذا العصر بالذات هو عصر البدع والهرطقات لا سيما تلك الهرطقة المزعجـة المـسماة بالأريوسية، ولذلك أقتضى الأمر أن يراجع هؤلاء الآباء الذين اشتهروا بالأرثوذكسية، الصلوات التي ورثتها الكنيسة الجامعة، وأن يشهدوا لصحتها. فحملت هذه القداسات أسماء هؤلاء الآباء دون أن يكون لهم فضل كتابا ا وإنما فضل التأكد من سـلامتها، ومن أ ا تعبر عن الإيمان الأرثوذكسي القويم الذي أخذته الكنيسة من المـسيح ومـن الرسل.

وهكذا فإن الاسم "القداس الباسيلي" هو شهادة التقليد، وهي شهادة مرتبطة بالمعلم العظيم، ولا مجال للدراسات النقدية والتاريخية هنا لأن هذه الدراسات لا تجوز قبل تذوق معاني القداس نفسه وجماله وفهم الترتيب والعقيدة وطريق اتحادنا بالله عـبر الصلوات فيه، والتعرف على ما يمتاز به القداس الباسيلي من سهولة ووضوح وبساطة عميقة لا مثيل لها. وسوف نكشف في دراستنا كيف يعكس القداس لغـة الكتـاب

المقدس، بعهديه بما فيها من قوة ووضوح، وكيف يربط بين العقيدة والحياة. وعندما نتذوق جمال القداس الإلهي وعمقه فسوف نتمكن حينئذ من الاقتراب من الدراسات التاريخية واللاهوتية والنقدية.

وكل ما نرجوه هو أن يتمكن القارئ من الاستعانة بالطبعة التي أشرف على إصدارها العالم الجليل القمص عبد المسيح المسعودي وهي الطبعة التي أعاد طبعها القمص عطا الله المحرقي. وقيمة هذه الطبعة هي في الشواهد العديدة من الكتاب المقدس بعهديه. وهي شواهد ذات قيمة تساعد الطالب على تتبع معنى الكلمات وكيفية دخول نص الكتاب المقدس في الصلاة، ولعل طريقة استخدام النص الكتابي وفي مرحلة معينة من الصلاة، توضح لنا علاقة هذا النص بمنهج الاتحاد السري بالمسيح، وهو ما يحرص القداس على تأكيده وإبرازه بشكل واضح.

إن الغاية من القداس الإلهي هي أن تصبح الكنيسة والمسيح جسداً واحداً. هذه الوحدة السرية، هي دخول الكنيسة إلى ما وراء الحجاب (عبرانيين ٦: ٩) حيث دخل يسوع ولذلك عندما يبدأ الكاهن "مجداً وإكراماً إكراماً ومجداً للثالوث القدوس، الآب والابن والروح القدس" فهو يؤكد أننا في السماء وفي حضرة الثالوث.

هذا الجانب ذو أهمية بالغة من الناحية الروحية والعقائدية لأنه لولا وجودنا في حضرة الثالوث ووجود الثالوث في وسطنا لما استطعنا أن نقوم بكل هذه الطقوس، وما استطعنا أن نقول هذه الكلمات المملوءة بكل جسارة وثقة، وهو ما نصل إليه في النهاية، عندما تمهد الصلاة المعروفة باسم صلاة القسمة لهذه الجسارة "لكي نجسر أن ندعوك بدالة يا الله ونقول يا أبانا الذي في السموات" هنا تصل الجسارة إلى قو ا ليس في نداء الآب فقط، بل بالاتحاد بالابن في الروح القدس. ولقد وضعنا هذا المبدأ الأساسي في بداية هذه الدراسة لكي يدرك كل من يدرس القداس، إلى أين نسير، ولماذا نتصرف ذا الشكل، ولماذا ننطق ذه الكلمات.

هذه الدراسة هي مجموعة محاضرات ألقيت بالكلية الإكليريكية في طنطا على طلبة وطالبات السنة الثانية ١٩٧٧م، وتحمس لنشرها طلبة وطالبات السنة الثانية بالكلية الإكليريكية بالقاهرة. ولست أزعم أنني قد شرحت أو درست كل شيء، وإنما أقرر أن كل دراسة، ليست سوى بداية، وعلامة يجب أن يتجاوزها الكاتب والقارئ.

دكتور

جورج حبيب بباوي

القاهرة ١٩٨٠

القسم الأول

الشرح اللاهوتي

الفصل الأول

المسيح والكاهن في الصلوات السرية

المقدمة القصيرة التي نراها في الخولاجيات القديمة تطلب من الكاهن أن يكون "نقياً داخلاً وخارجاً" وتقول عن هذا النقاء الداخلي "أن يكون الخادم في سلام مع الله والناس بلا خصام أو عقل مشوش أو قلب منقسم" هذا هو النقاء الذي تطلبه الكنيسة من الرأس (الأسقف)، لكي يسري في باقي أعضاء الجسد؛ إنه السلام الذي وهبه المسيح للذين يخدمونه.

تقول صلاة الاستعداد "أيها الرب العارف قلب كل أحد. القدوس المستريح في قديسيه"، هكذا تبدأ الخدمة، وبشكل خاص، تؤكد لنا من هو الكاهن، وما هو دوره في الخدمة، وما هو سلطانه ؛ استمع إليه وهو يقول بعد ذلك "أنت يا سيدي تعلم أني غير مستحق ولا مستعد ولا مستوجب لهذه الخدمة المقدسة التي لك" وهكذا يتكلم هذا الإنسان المختار من الله، إن هذه الخدمة، ليست له وإنما هي خدمة المسيح، وقد وردت كلمة الخدمة مرتين "الخدمة المقدسة التي لك.. لكي أبتدئ وأهيئ وأكمل

خدمتك المقدسة كما يرضيك.." وخدمة المسيح هذه هي التي يطلب الكاهن كمالها "أرسل لي قوة من العلاء.." ولكن علينا ألا نركز نظرنا على احتياج الكاهن (الأسقف أو القس)، بقدر ما ننتبه إلى كلمة متكررة ومعروفة في القداسات، لا ننتبه إليها كثيراً، وهي كلمة "أكمل" - لاحظ أنه بعد صلاة الاستعداد يطلب الكاهن "اجعلنا يا سيدنا مستوجبين بقوة روحك القدوس أن نكمل هذه الخدمة". فالذي أسس الخدمة هو المسيح، وكذلك فإن تقديم القرابين والصلاة، هو إكمال لعمل المسيح.

وقد تطرح علينا هذه الصلاة موضوعاً من أهم الموضوعات في اللاهوت الأرثوذكسي ألا وهو علاقة المسيح بالكاهن، وهنا بكل وضوح يظهر الكاهن أنه يكمل عمل المسيح، وإكمال عمل المسيح، لا يعني أن عمل المسيح ناقص يحتاج إلى الكاهن لكي يكمله، وإنما إكمال عمل المسيح يعني بشكل خاص تحقيق ما سبق فوعد به المسيح. وكلمة "كمال - يكمل" من أكثر الكلمات استخداماً في الرسالة إلى العبرانيين، فقد وصف المسيح بأنه "كُملَ بالألم" وواضح من سياق الكلام ان الفداء كمل بالألم أي أنه تحقق ولم يكن ممكناً أن يتحقق بغير الألم (راجع عب ٥: ٩).

من هذا ندرك أن الكاهن لا يكمل عملاً ناقصاً تركه المسيح، بل يحقق ما وضعه المسيح نفسه. هنا تظهر هذه العلاقة بشكل بارز عندما يطلب الكاهن من المسيح "نعم يا سيدنا كن معنا. اشترك في العمل (الخدمة) معنا".

ومن نص الصلاة نرى أن البداية تخص الكاهن، فهي بصيغة المفرد ولكنها تنتقل بعد ذلك إلى صيغة الجمع، لأن الشعب واقف يشترك في الخدمة، فلا قداس بدون الشعب وليست هذه الصلوات - حتى السرية منها - خاصة بالكاهن وحده، بل هي صلاة الكل، أي الكنيسة. والذين يعرفون القوانين الكنسية، يدركون أن عدم وجود علمانيين أثناء تقديم الحمل يعني أن لا يقدم الحمل مطلقاً. فالشماس لا يحسب من الشعب فهو من الإكليروس - حتى وإن كان في رتبة القارئ - بشهادة صلوات

القداس نفسه. (راجع أوشية الآباء - الأساقفة - القمامصة - القسوس - الشمامسة - ثم راجع أيضاً أوشية الآباء بعد استدعاء الروح القدس حيث تظهر رتب الكنيسة: القمامصة والقسوس والشمامسة والأيبوذياكونيين والطغمات السبعة لكنيسة الله). ومن صلاة التجنيز يظهر أن لرتب الشمامسة صلاة خاصة بكل رتبة. ولذلك فإن وجود الشماس لا يعني اكتمال عناصر الجماعة الأساسية للخدمة وهي الثلاثة: الكاهن - الشماس - والعلماني، فهم كما يقول القديس كيرلس السكندري "جسم الشهادة" طبقاً لما جاء في الكتاب المقدس "على فم شاهدين أو ثلاثة تقوم كل كلمة" (تثنية ١٧: ٦). وكما نعرف أيضاً ان جسم الشهادة هذا هو الذي نال الوعد الخاص من المسيح بالحضور "إذا اجتمع اثنان أو ثلاثة فهناك أكون في وسطهم" (متى ١٨: ٢٠). وعندما يتلو الكاهن صلاة الاستعداد فهو يؤكد حضور الشعب واشتراكه في الصلوات. ونعرف من كتابات الآباء لا سيما آباء القرن الرابع والخامس، وبشكل خاص، ذهبي الفم وأبيفانيوس وباسيليوس - أن الشعب يردد كل صلوات القداس في قلبه. ولهذا السبب لا نجد صلاة واحدة بصيغة المفرد إلا تلك التي يعترف فيها الكاهن بأنه خاطيء. فهو يعترف عن نفسه، وليس عن الشعب. أما كل الصلوات الأخرى فهي بصيغة الجمع لأنها صلاة الكنيسة التي بقلب واحد تطلب وتسعى للاتحاد بالمسيح.

وهكذا منذ البداية نلمح بشكل واضح ما هو القداس: إنه عمل المسيح وخدمته، وهو وجود الشعب والاكليروس في الكنيسة من أجل رحلة الاتحاد بالمسيح. ولكن البداية اعتراف، حيث يذكر الكاهن خطاياه، أما عن الشعب فيقول "جهالات شعبك" والفرق بين الخطية والجهل واضح جداً، لأن الكاهن الذي يعرف الشريعة والذي تطلب من فمه الشريعة، عندما يخطئ فهو يخطئ عن معرفة وعن فهمٍ وإدراك لحقيقة ما يفعله، أما الشعب الذي يؤدب بالشريعة فهو يخطئ عن جهل.

القداس هنا يؤكد فداحة خطية الكاهن، ولكن لا يدفع الشعب إلى الشك في الكاهن، بل العكس هو الصحيح. وكما سنرى في كل مراحل القداس لا سيما عندما نقترب من النار الإلهية أي الجسد والدم، يصرخ الكاهن معترفاً بخطاياه سائلاً الصفح عن آثام وجهالات الشعب (راجع الصلوات السرية بعد القسمة - أذكـر يـا رب ضعفي... وأغفر لي خطاياي الكثيرة، من أجل خطاياي خاصة ونجاسات قلبي لا تمنع شعبك نعمة روحك القدوس) وهنا بشكل خاص ندرك أن الكاهن في حضرة المسيح بلا سلطان خاص به، وإنما هو خادم أسرار المسيح.

وإذا أردنا أن نكمل فهمنا لعلاقة المسيح بالكاهن علينا أن نـدرس الـصلاة السرية، بعد وضع الخبز والخمر على المذبح والتي تسمى بأوشية التقدمة. ومرة أخرى تعلن الصلاة بشكل ظاهر جداً أن المسيح "هو الخبز الحي الذي نزل من السماء" هذا هو سبب وجودنا في الهيكل.. لقد جاء المسيح إلينا، ولكننا نقول عنه، "سـبقت أن تجعل ذاتك حملاً بلا عيب عن حياة العالم"، لقد جاء وقدم نفسه، ولـذلك نحـن لا نقدمه من جديد، وإنما نضع التقدمة لكي يكون لنا اشتراك حقيقي فيما فعله المسيح، وعلينا أن نلاحظ ليس صيغة الجمع فقط، في هذه الصلاة، وهي هامة، ولكن ذلـك النص الجميل الذي يؤكد أن الكل اجتمع لكي يضع الخبز والخمر "على هذه المائـدة الكهنوتية التي لك"، إ ا مائدة المسيح، وليست مائدة أي شخص آخر، والكهنوت هو كهنوت المسيح، ويعبر القداس الكيرلسي عن هذه الحقيقة في أوشية الكهنوت "أذكر يا رب هذا الكهنوت المقدس الذي لك". لا يوجد لدينا كهنة مثل كهنة العهد القديم ولا يوجد لدينا وسطاء بين الله والناس وإنما لدينا كاهن واحد يسوع المسيح الـذي يعطي كهنوته الواحد بعينه إلى من يختـارهم هـو لكـي يكملـوا عملـه الإلهـي

الكهنوتي[1]. ولذلك يتضرع الكاهن منذ البداية في أوشية التقدمة "باركهما، قدسهما، طهرهما" فالذي يطهر، ويقدس، ويبارك، هو المسيح، لكن الذي يرشم هو الكاهن. الكاهن يكمل عمل المسيح، كما يظهر بجلاء أننا لا نذبح المسيح في القداس، بل المسيح هو الذي يعطي، هو الذي يقدس ما يوضع على المائدة الكهنوتية التي له.

الكاهن يقف مثل الشعب تماماً في حضرة الله، ولذلك عندما تبدأ صلاة التحليل يقول الكاهن "عبيدك خدام هذا اليوم القمامصة.. كل الشعب وضعفي"، فذلك الواقف في حضرة الله، مثل كل الخطاة، يطلب التحليل لنفسه، يعود ويقول بعد ذلك "ومن فم حقارتي" فهل يوجد تناقض؟ بكل تأكيد لا.. يتحدث الكاهن مع الله مثل أي إنسان "نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشر عن عبيدك آبائي وإخوتي وضعفي" ومثل أي خاطئ يقول "انعم علينا بغفران خطايانا" ولكن لأنه يكمل عمل المسيح أو المسيح هو الذي يكمل عمله من خلال الكاهن "أنت الآن يا سيدي.. أنعمت على الذين يعملون في الكهنوت كل زمان في كنيستك المقدسة أن يغفروا" أو بشكل آخر واضح "فليكن يا سيدنا عبيدك آبائي وإخوتي وحقارتي محاللين من فمي بروحك القدوس". يطلب الحل لنفسه كواحد من شعب الكنيسة، ولكنه لا يقف عند مستوى أي واحد من شعب الكنيسة، لأنه يحمل كهنوت المسيح، ولذلك فمن فمه ينال الكل المغفرة. وفي تحليل الخدام نرى الكنيسة الجامعة بشكلها الكامل: الثالوث، فالرسل الاثنى عشر، ثم المعلمين من الآباء. ولعلنا نلاحظ هنا بشكل خاص إن الأسماء التي وردت في صلاة تحليل الخدام اختيرت بعناية؛ لأن هذه الأسماء هي أسماء شهود الأرثوذكسية - هؤلاء تذكرهم الكنيسة في صلاة تحليل الخدام لتؤكد سلامة وصدق إيمان الذين اجتمعوا في الكنيسة. وعلينا أن نلاحظ أن اسم البطريرك وأسقف

---

[1] إنكار الكهنوت في الكنيسة هو بالضرورة، انكار لكهنوت المسيح نفسه. فنحن نشترك في بنوة المسيح للآب، وفي حياته وموته وقيامته، وتشترك فئة خاصة بكهنوته، تماماً، كما اشتركت فئة خاصة في الرسولية والاستشهاد ومواهب التعليم.

الإيبارشية ثم القس هو خاتمة أسماء تحليل الخدام. هذا يؤكد وحدة الإيمان والشركة الواحدة التي تربط الثالوث القدوس بالآباء، ثم بالبطريرك والأسقف، ثم القس ثم بالشعب. هذه هي الصورة الواضحة للكنيسة الجامعة. وعندما يصلي الكاهن تحليل الخدام فهو يتحدث كعضو في الجسد الواحد / الكنيسة الجامعة، ولذلك عندما يتحدث مع الرأس / المسيح، يطلب التحليل لنفسه. أما عندما يتحدث عن الشعب فهو يطلب لهم التحليل كإنسان، يطلب المغفرة، وككاهن يطلب لأجل غيره. "عبيدك خدام.. وكل الشعب وضعفي.." ولكنه بعد ذلك يقول "ومن فم حقارتي".

وتختلف الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية عن الكنيسة الكاثوليكية (الطقس اللاتيني) في نقطة جوهرية، وهي أن صيغة التحليل في كل الكنائس الأرثوذكسية توضع في شكل صلاة وطلب من الله "اللهم حاللنا وحالل شعبك" (تحليل الآب بعد صلاة القسمة). وهي بذلك عكس صلاة التحليل اللاتينية القديمة التي تقول "بموجب السلطان المعطى لي من الكنيسة أنا أحلك من خطاياك باسم الآب والابن والروح القدس" إن روح الأرثوذكسية هي استعلان كهنوت المسيح وعمله في الكاهن، وليس تأكيد سلطة الكنيسة. وفي صيغة التحليل الكبير الذي يستخدم في سر التوبة والاعتراف يوجه الكاهن كلامه للمسيح الحاضر في هذا السر "أيها السيد الرب يسوع المسيح ابن الله الوحيد.. الذي قطع كل رباطات خطايانا من قبل آلامه المخلصة المحيية، الذي نفخ في وجه تلاميذه القديسين، ورسله الأطهار، وقال لهم اقبلوا الروح القدس من غفرتم خطاياهم غفرت لهم ومن أمسكتموها عليهم أمسكت" [1] - الاعتراف بألوهية المسيح "ابن الله الوحيد" وهو ركيزة عهد المغفرة، ثم آلام المسيح التي

---

[1] السلطان الكهنوتي تعبير غير معروف في الخولاجيات الشرقية ولا وجود له في كتب اللاهوت الأرثوذكسية قبل القرن الرابع عشر. ويوجد فرق ضخم بين عبارة السلطان الكهنوتي وتعبير الخولاجي "**من قبل رسلك الأطهار أنعمت على الذين يعملون** في **الكهنوت**" حيث يظهر هنا ان النعمة هي قاعدة عمل الكهنوت وليس السلطان، بعكس الكنيسة اللاتينية، التي تؤكد السلطان بشكل بارز، دون أن تنكر النعمة.

أحيتنا، وعمل الروح القدس فهو القوة، الذي يفك كل الرباطات. وهكذا نـرى أن المسيح يعمل كرئيس كهنة في الكنيسة ومن خلال الكهنة الذين أقامهم. ولذلك فـإن "السلطان" هو نعمة الرب التي تعمل ليس باستقلال عن الرب وإنما بعمل الرب نفسه ولذلك عندما قال الرب لبطرس "أعطيك مفاتيح الملكوت" (متى ١٦: ١٩) فإن هذه المفاتيح كما شرحها الآباء ليست سلطة تعطى لتمكن البشر من أن يفتحوا الملكـوت بالشكل الذي يروق لهم وإنما هي مفاتيح الملكوت حيث الله ملك لا ينقل سلطانه إلى الناس ليكون سلطة مستقلة عن الله، إنما تظل هذه المفاتيح في الكنيسة الواحدة التي لا فصل بين رأسها وأعضائها، أي المسيح وشعبه.

الصلوات السرية أثناء القراءات في الكتاب المقدس

عندما تقرأ الكنيسة الكتاب المقدس فهي تستقبل القراءة بالصلاة، وليـست هذه الصلوات مجرد قطع للتسلية، إنما هي بكل يقين الخشوع الحقيقي لمواجهة كلمـة الله. استمع إلى الكنيسة وهي تصلي "أنعم علينا وعلى شعبك كله بعقل غير مـشتغل وفهم نقي لكي نعلم ونفهم ما هي منفعة تعاليمك المقدسة التي قرئـت علينـا الآن"، فهي تطلب العقل غير المشتغل والفهم النقي لكي تسمع تعاليم المسيح الـتي يقرأهـا القديس بولس علينا. وهنا ندرك حقيقة وحدة الكنيسة الجامعة، فبولس لم يمت، إنما لا يزال في وسطنا، وهذا هو سر وحدة الكنيسة العظيم الذي يفوق الإدراك.

بولس لا يزال حياً في جسد المسيح، يقرأ علينا تعاليم المسيح، ولذلك لا يمكن لمن يشعر ويرى - روحياً - وجود الرسل في الكنيسة، ويسمع صو م وهم يعلمـون في الكتب المقدسة، أن ينفصل أو يثور أو يهدد وحدة الكنيسة.

من جانب آخر نلمح الخلافة الرسولية للشعب "وكما تشبه بك أنت يا رئيس الحياة هكذا نحن أيضاً أجعلنا مستحقين أن نكون متشبهين بـه في العمـل والإيمـان ممجدين اسمك القدوس مفتخرين بصليبك كل حين".

إن الكنيسة هي شعب الله والكل فيها خلفاء الرسل في المحبة والإيمان. البعض يدعوه راعي الرعاة لينال ميراث بولس أو أكليل الشهداء أو جمال عـدم الفـساد في الحياة النسكية. والصلاة السرية التي تقال أثناء قراءة الكاثوليكون تشهد بذلك "أيهـا الرب إلهنا الذي من قبل رسلك القديسين أظهرت لنا سر انجيـل مجـد مـسيحك.. نسألك يا سيدنا اجعلنا مستحقين نصيبهم وميراثهم وأنعم علينا كل حين أن نسلك في آثارهم ونكون متشبهين بجهادهم ونشترك معهم في الآلام التي قبلوها مع التقوى" هذا النص يؤكد أن الخلافة الرسولية لا تورث ولا ينالها الإنسان بمجرد كونه في الكنيسة، بل هي سلوك رسولي، وهي التشبه بجهاد الرسل. ومن الخطأ أن نظن أن هذه الصلاة تشير إلى الكهنة فقط لأن التقسيم الذي ورثناه من السابقين علينا وهو تقسيم الكنيسة إلى إكليروس وعلمانيين هو تقسيم متأخر.

فالكنيسة الواحدة، هي التي ترث الرسل، وليس الإكليروس فقط هم خلفـاء الرسل. فكل الشعب هو بذار الكهنوت، والرهبنة، وهذه البذار قد ينمو بعضها يوماً ويثمر كهنة أو رهباناً.

في الكنيسة الغربية تطور وضع الإكليروس في ظـل الظـروف الاجتماعيـة والثقافية التي سادت الغرب. ذلك أن الكاهن يختار من الصغر بواسـطة الأسـقف، يدخل إلى مدرسة اللاهوت أو الدير ويظل هناك إلى أن يرسله الأسقف إلى الكنيـسة ليرعاها. هذا الوضع افترض الدرجة اللاهوتية وافترض التعلـيم اللاهـوتي كأسـاس للخدمة. أما في الشرق فالوضع مختلف تماماً، لأن الكاهن يختاره الشعب، سواء كـان القس أم الأسقف أم البطريرك، وهؤلاء لا يختارون وفقاً لدرجات علمية في اللاهوت،

وإنما وفقاً للنعمة والموهبة التي يعلنها الله فيهم (راجع صلاة الكاثوليكون بدقة). وحتى الرسل الذين درسوا مع المسيح كل أسرار الملكوت أعطاهم المسيح له ا د "موهبة نعمتك العظيمة" نعمة "سر إعلان انجيل مجد المسيح" فكهنة المسيح، وشركاء الرسل في الخلافة - لا يولدون بسبب الانتماء العرقي، أو الطائفي، وإنما يختارون من قبل الرب، ويراهم الشعب وعندما يقرر الشعب ذلك، يعبر عن قدرته على التمييز بين الذين دعاهم الرب للكهنوت، والذين دعوا أنفسهم للكهنوت. هذا التمييز هو حقاً خلافة الشعب للرسل. وعلينا أن نلاحظ كيف تعبر أوشية الراقدين عن ذلك فهي تصف الكنيسة "آباؤنا رؤساء الأساقفة - آباؤنا الأساقفة - آباؤنا القمامصة - آباؤنا القسوس - إخوتنا الشمامسة - آباؤنا الرهبان - آباؤنا العلمانيين" فروح الأبوة عطية الآب السماوي لنا، ليست قاصرة على الكهنة حسب رتبهم، التي نراها في الأوشية، وإنما يوهب روح الأبوة للعلمانيين، لأ م بكل حق الذين يميزون الآباء ويختارو م للكنيسة. وكيف يميز الشعب آباءه وهو لا يملك روح الأبوة، إن تعبير "آباؤنا العلمانيون" هو تعبير يعلن الخلافة الرسولية في شكلها العام، وهو شكل أصيل جعل من العلمانيين أصل كل شيء عندنا، فهم رحم الكنيسة الذي يلد للمسيح الرعاة والرعية.

وتظهر وحدة الكنيسة بشكل خاص عندما تصلي من أجل بابا الإسكندرية "وجميع الأساقفة الأرثوذكسيين..." هؤلاء يصلون من أجل الكنيسة ولكن الشعب الواقف في الكنيسة يقول "وصلواتنا نحن أيضاً عنهم أقبلها على مذبحك.." فلا يصلي الكهنة من أجل الشعب فقط بل الشعب أيضاً من أجل الكهنة. ويصبح اعتراض البروتستانتية على الكهنوت والكهنة لا وجود له لأن الشعب لا يملك أن يصلي من أجل الوسيط، فالصلاة من أجل الوسيط تجعل الوساطة تنهار، وعلينا أن ندقق النظر في ذلك اللحن الجليل الذي يقال في حضور الأسقف "بي أهموت غ ار" إن الكلمات

ليست تشريفاً أو تكريماً لمن يجلس على كرسي الأسقفية، فليس هذا هو جوهر التسبيح في الكنيسة، وإنما اللحن كله طلبة الشعب من أجل الأسقف "نعمة ربنا يسوع المسيح تكون مع روحك الطاهرة يا سيدي الأب المكرم رئيس الكهنة.." وعنـدما يطلـب الشعب نعمة ربنا يسوع المسيح لمن يقول بدوره للشعب في بداية قداس المؤمنين "محبة الله الآب ونعمة الابن الوحيد.." فإن وحدة الكنيسة ليست معلنة فقـط، بـل هـي اشتراك الكل في الصلاة، كلٌ من أجل الآخر (راجع صلاة الاسـتعداد في القـداس الغريغوري).

✞ ✞ ✞

الصلوات السرية
نظرة تاريخية موجزة

لا نستطيع أن نشرح كل الصلوات السرية بشكل عام، وفي فصل واحد، ذلك أنها موزعة في القداس حسب التقسيمات المعروفة منذ العصور الأولى للمسيحية.

القداس أصلاً قسمان: قداس الموعوظين - وقداس المؤمنين. وفي القسم الأول وكما نرى من الاسم "قداس الموعوظين" الاهتمام بالتعليم وقراءة الكلمة الإلهية هو الأساس والجوهر. كان الموعوظ لا يحضر قداس المؤمنين وكانت الكنيسة لا تسمح له بذلك، لأنه ليس مؤهلاً لقبول الأسرار الفائقة، وبشكل خاص لم يسكن فيه الروح القدس بعد. لهذا السبب الخاص كانت الصلوات الخاصة بالتقدمة تقال سراً. ولازال حتى هذا اليوم لا يدخل الكاهن بالحمل إلا بعد القراءات في القداس البيزنطي، أي بعد خروج الموعوظين، وهو وضع قديم جداً. أما عندنا فإننا كنا نتبع نفس الطقس كما هو ظاهر في عدة مخطوطات قديمة. ولكن حدث التغيير في وقت اختفى فيه الموعوظين تماماً. ولكن ربما كتطور في المنهج التربوي كان الموعوظ يسمح له بحضور دورة الحمل ثم القراءات وكان يخرج بعد ذلك، حتى لا يكون الكلام عن الإفخارستيا فيما بعد مفاجأة بالنسبة له، بل يتدرج في الفهم إلى أن يستوعب السر بعد نواله المعمودية، ولذلك حرصت الكنيسة على أن لا تقال هذه الصلوات جهراً. ولعله من الواضح ان كل الذكصولوجيات في ختام الصلوات حتى أوشية الإنجيل لا تقال جهراً، وقد علق على هذا العالم الجليل بولس البوشي وقال ان الذكصولوجية تقال سراً من أجل إتاحة

فرصة الهدوء والصمت في حضرة الثالوث حتى لا يكون التمجيد من الفم دون القلب "ولذلك يصمت الكاهن ليس استعجالاً كما يظن غير الفاهمين، ولكن لأن الـصلاة الصامتة أقوى بكثير، لا سيما إذا كانت حديثاً مباشراً عن مجد الله وعظمته. وتـستمر الكنيسة في الصلوات السرية حتى في قداس المؤمنين لأن هذه الصلوات هي فترة الهدوء وطلبة القلب التي تخص كل واحد.

ومن الضروري أن نرى توزيع الصلوات السرية في القداس الإلهي لكي ندرك المنهج الروحي خلف هذا التوزيع:

قداس الموعوظين	قداس المؤمنين
صلاة الاستعداد - سراً	صلاة الصلح
دورة الحمل (اختيار الحمل) سراً	الرب مع جميعكم
صلاة الشكر جهراً	قدوس قدوس
أوشية التقدمة – سراً	وضع لنا هذا السر العظيم
تحليل الخدام – سراً	استدعاء الروح القدس - سراً
البولس - جهراً، سر البولس - سراً	الأواشي
الكـاثوليكون – جهـراً، سـر الكاثوليكون - سراً	ا مع
الإبركسيس - جهراً، سر الإبركسيس - سراً	أولئك يا رب
الإنجيل - جهراً، سر الإنجيل - سراً	
العظة - جهراً	اهدنا إلى ملكوتك
الأواشي الكبار - جهراً	مقدمة القسمة
	القسمة

أبانا الذي في السموات	
صلاة للآب - سراً	
خضوع للآب - سراً	
تحليل للآب - سراً	
طلبة خاصة بالكاهن - سراً	
الرشومات	
التوزيع	
السبب إتاحة فرصة هدوء مع صلوات خاصة	السبب وجود موعوظين

وهكذا يظهر لنا من الجدول السابق إن الجانب السري يغلب على قداس الموعوظين، بينما يختفي تماماً في قداس المؤمنين، ولا يظهر إلا في استدعاء الروح القدس، حيث تصلي الكنيسة في صمت، ثم الصلوات التي يطلب فيها الكاهن تطهير خطاياه وجهالات الشعب بعد أبانا الذي في السموات، وهي صلوات على قدر كبير من الأهمية لأ ا استعداد للتناول، وسوف ندرسها في حينها.

ولكن وكما نرى بكل وضوح فإن الصلوات السرية، لها قيمة عقائدية كبرى، وهي إحدى ركائز القداس الإلهي، لأ ا مواجهة حقيقية بين الكاهن والله أو الشعب والله. وهي مواجهة لطلب الرحمة أو لحلول الروح القدس. ووضعت الكنيسة هذه الصلوات - بما فيها من عمق - لأن الصمت هو فرصة الفرد لأن يطلب لأجل نفسه أو لغيره إن شاء، ولأن الفترات التي تسودها الصلوات الجهرية هي فترات لا تجوز فيها الصلوات الفردية، لأن ما يقال إنما هو عام يخص الجماعة، كلها، ولذلك يقول ميمر لمؤلف مجهول من القرن الثالث عشر "لا تقف بعقل منشغل ولا ترتل المزامير أو أدعية الآباء ولا يجوز أن تقرأ الكتاب المقدس، بل أن تصلي مع الشعب كما يصلي، لأن ما

تصليه الكنيسة فهو الأمانة المشتركة (الإيمان المشترك) التي ا تتطهـر مـع الجماعـة الواقفة، فلا تطلب الجماعة تطهيراً وأنت منشغل بتلاوة الكتاب المقـدس أو ترتيـل المزامير"، لأن سفر الأعمال يقول "رفعوا إلى الله صلاة بقلب واحد" ويقول ذهبي الفم "والشعب فليصل بفم واحد وقلب واحد".

✞ ✞ ✞

الفصل الثاني

دورة الحَمل

تمهيد

منذ البداية حدد القداس معنى دورة الحمل "أرسل لي قوة من العـلاء لكـي أبتدئ وأهيئ وأكمل خدمتك المقدسة" وهذه الخدمة التي وضعها المسيح لـه ا ـد، والتي يكملها الكاهن، يقول عنها القداس "نقدم لك صعيدة البركة مجداً وعظم اء في قدسك.. أعطي يا رب أن تكون مقبولة أمامك ذبيحتنا عن خطايـاي، وجهـالات شعبك لأ ا طاهرة مثل موهبة روحك القدوس بالمسيح يسوع ربنا".

إن أول ما نلمحه هو ازدواجية التقديم، ذلك أن الخدمة هي خدمة المـسيح كما تؤكد أوشية التقدمة "أنت هو الخبز الحي الذي نزل من السماء سبقت أن تجعل ذاتك حملاً بلا عيب عن حياة العالم" فقد قدم المسيح ذاته وهو وحده القربان الوحيد المقبول لدى الآب ؛ لكن ماذا نقدم نحن...؟ أو ما هو معنى التقدمة..؟

إن تقديم الرب لذاته عنا هو العمل الإلهي الدائم بكل تأثيره علـى الأبديـة نفسها، والذين يسألون عن معنى التقدمة والذبيحة هم في الواقع يسألون من خـلال تصور واحد لمعنى موت المسيح، ولكي ندرك هذا علينـا أن نـستعرض الاتجاهـات الرئيسية في فهم عمل المسيح الخلاصي عنا في اللاهوت المسيحي:

أولاً: الفداء بموت المسيح على الصليب حيث دفع الدين وأطلق الله سراح الإنـسان، وصالح العدل والرحمة.

ثانياً: الفداء كان صراعاً بين المسيح والشيطان، أنتصر فيه المسيح على الشيطان، وحقق فيه سحق قوة الشيطان.
ثالثاً: الفداء هو احتواء المسيح للموت وهو على الصليب. لقد تركه ينفذ فيه، ولكنه بسبب الإتحاد الأقنومي بين اللاهوت والناسوت، أفرز هذا الإتحاد حياة، وقهرت الحياة الموت، فقام الناسوت من الموت.

الاتجاه الأول

هو تصور قانوني لموت المسيح يقوم فيه الصليب بسد كل احتياجات العدل الإلهي. لكن الذين يقفون عند هذه النقطة، لا يعطون أي أهمية للقيامة، ويركزون كل نظرهم على موت المسيح، وهذا نوع من عدم اكتمال إدراكنا لموت المسيح على الصليب. لقد دفع الدين عنا، لكن هذا جانب واحد من الخلاص لا يجوز أن يطغى على كل شيء. ذلك أن الخلاص شقان، الشق أو الجانب الذي يخص الله والجانب الذي يخص الإنسان، وليست المصالحة هي إزالة العوائق بين الله والإنسان ولكن تجديد الإنسان نفسه لكي يتمكن من الاستفادة بالمصالحة.

والاتجاه الأول غالب في اللاهوت الغربي منذ أيام أنسلم [1]، فهو الذي جعل الصليب ذا تأثير على الله وعلى نظرة الله إلى الإنسان، وأهمل تماماً تأثير الصليب على الإنسان، وقد حصر اللاهوت الغربي هذه النظرة في كلمة واحدة هي التبرير بالإيمان، فقد أرضى الابن مطالب العدل الإلهي، وجعل الرحمة من نصيب الإنسان.

مات المسيح على الصليب وأعطى الإنسان التبرير بالإيمان، وهذا هو أساس العلاقة مع الله عندما تغيرت نظرته للإنسان وحسبه باراً بسبب موت المسيح. وطبعاً

---

[1] يسمى القديس "Anslem"، كان رئيس أساقفة كانتربري في انجلترا، وشاع تعليمه في اللاهوت الغربي ويرفضه الغرب الآن. ويقابله في الشرق العالم ساويروس ابن المقفع الذي أذاع نفس التفسير تقريباً في الميمر المعروف باسم العبد المملوك، ولا زال التفسير السائد عندنا.

موت المسيح الواحد على الصليب يصبح هو الحدث الأكبر في الخلاص. وهو الحدث الذي يطغي على كل شيء آخر. لقد مات المسيح وتحقق كل شيء بموته. وهنا يأخذ هذا الاتجاه كلمة موت المسيح "مرة" (عبرانيين ٧: ٢٧-٢٨)، كمفتاح أساسي لتفسير الفداء.

ومع أن الرسول بولس استخدم هذا التعبير "مات مرة واحدة" لإبراز الفرق بين ذبائح العهد القديم، وذبيحة العهد الجديد، دون أن يدخل في بحث طبيعة ذبيحة الصليب نفسها، إلا أن الذي يعشقون هذا الاتجاه يشددون على أن الرسول بولس في العبرانيين كان يعارض الإفخارستيا كذبيحة، وهذا القول باطل تماماً، لأن محور الرسالة إلى العبرانيين هي التعارض التام بين المسيحية واليهودية.

ولا ينتبه هذا الاتجاه إلى قيامة المسيح، ولا إلى علاقة عمل الروح القدس الذي سكبه المسيح الحي والذي يرتبط بالقيامة أكثر مما يرتبط بالموت (أعمال ٢: ٣٣). والمسيح الحي هو الذي يجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد (يوحنا ١١: ٥٢)، وهو يفعل ذلك كوسيط ورئيس كهنة تقوم وساطته على الحياة التي أنعم ا علينا.

ومن الناحية العقلية المحضة، لا يدرك أصحاب هذا الاتجاه التناقض الشديد الذي يقعون فيه. فالمسيح مات لكي يوفي مطالب العدل الإلهي، ولكن كان قضاء الموت على آدم قضاء أبدياً، وبالتالي يجب أن يكون المسيح في قبضة الموت إلى الأبد. وإذا كان مات بديلاً عن آدم، فقد كان يجب أن يكون في قبضة الموت إلى الأبد. ولكن المسيح قام من الأموات في اليوم الثالث، والقيامة تؤكد أن الموت لا يمكن ان يسود على المسيح إلى الأبد.

ومن جانب آخر يبدو أن التفسير القانوني لموت المسيح هو أضعف تفسير للصليب، ذلك أن أصحاب هذا الاتجاه يقولون أن المسيح ابن الله ولذلك كان يكفي أي مدة للموت، فالذبيحة التي قدمها المسيح ذبيحة غير محدودة، وهنا خطورة هذا

التفسير، أي عدم المحدودية، هو أحد صفات اللاهوت الذي لا يموت، والذي لم يتذوق الموت. وعندما سندرس الاتجاه الثالث عند الآباء سوف نكتشف الخطأ الشديد الذي وقع فيه أصحاب هذه النظرية[١].

ويميل أصحاب هذه النظرية، إلى اعتبار أن الآب هو العدل، وهذا مما يزيد الأمر خطورة، ذلك أن وحدة جوهر الآب والابن والروح القدس، تجعل اختصاص أي أقنوم من الأقانيم بصفة إلهية معينة لا يشاركه فيها الأقنومين الآخرين، انحرافاً يؤدي إلى هرطقة. ومن الخطر الشديد أن نظن الآب يمثل العدل والابن الرحمة، فهذا أشبه بالادعاء بوجود إلهين.

ومن الأخطار الأخرى الفادحة التي تجعل هذا الاتجاه بمثابة اقتلاع لكل أسرار الكنيسة، هو الكلام عن كمال الخلاص بموت المسيح على الصليب وتصوير الأمر على أن المسيح دفع الدين وحقق إطلاق سراح آدم أو الخطاة جميعاً. ولكن الإنسان الذي وقع في الدين يمكن أن يستدين بعد ذلك بمجرد خروجه من المحكمة. وقد حاول أصحاب هذه النظرية سد هذه الثغرة بالكلام عن التقديس وهو عمل الروح القدس بعد التبرير. لكن هذا أيضاً أشبه باختصاص الآب بالعدل والابن بالرحمة والروح القدس بالتقديس. وهذا انفصال لأقانيم الثالوث وضياع لوحدة العمل الذي قام به الآب والابن والروح القدس.

لكن الخطورة الحقة، هي عندما يحاول أصحاب هذا الاتجاه البحث عن العلاقة بين الصليب والأسرار، لا سيما الإفخارستيا، فيجدون أن هذه العلاقة ضائعة وغير واضحة.[٢] فإذا كان كل شيء قد أُكمل يوم الجمعة العظيمة فلماذا الإفخارستيا؟ هذا

---

[١] راجع فلسفة الغفران في المسيحية لعوض سمعان، حيث لا يعرف المؤلف سوى هذا التفسير الضعيف جداً والمستعار من أنسلم والذي لا وجود له في العهد الجديد نفسه.

[٢] راجع خيالات القمص زكريا بطرس في كتابه "الأرثوذكسية مذهبي" عن العلاقة بين الصليب والأسرار، حيث اخترع المؤلف سؤالاً لا وجود له أصلاً في اللاهوت الأرثوذكسي.

التصور القانوني هو مأساة حقة لأنه قضاء على القيامة، وقضاء على الأسرار، وجعل الصليب ترضية للآب فقط، وقصر عمل التقديس على الروح القدس، وكأن الرسول بولس عندما قال "مع المسيح صلبت" (غلاطية ٢: ٢٠) قد أخطأ خطأً جسيماً، أو كأننا نحن الذين نصلب مع المسيح ونموت وندفن ونقوم معه في المعمودية، (رومية ٦: ١-٨)، قد دخلنا منطقة لا يجوز لنا أن ندخلها.

إن القول بمصالحة العدل مع الرحمة يوم الجمعة العظيمة، ليس سوى نوع من التبسيط، قصد به أذكياء الناس تقريب قضية الصليب بشكل عقلي مقبول عند البسطاء ولغرابة هذا التفسير انعدم الكلام عن الصليب كتعبير عن محبة الله الآب (يوحنا ٣: ١٦)، ولا يجد الكلام عن محبة الآب أي مجال في آذان الناس التي أفسدها تذوق عمل الله من خلال التفسير القانوني.

الاتجاه الثاني

وهو أشبه برواية أو مسرحية تحدث أمام عيوننا ولا دخل لنا ا، أبطالها الله والمسيح والشيطان. ومن القائلين ذه النظرية بكل أسف أوريجينوس وغريغوريوس النيسي وأوغسطينوس.

هؤلاء يتصورون الأمر على أن الشيطان بسبب سقوط الإنسان صارت له السيادة على الجنس البشري، وأستطاع أن يكون بيده سلطان الموت. ولذلك جاء المسيح وأخفى لاهوته تماماً، وتنكر في قناع الجسد، وصلب. وعلى الصليب جاء الشيطان لكي يقبض على روح المسيح الإنسانية ويأخذها إلى الجحيم، وهنا حدث الاعتداء على الابن، وصار الشيطان بذلك مديوناً للابن، فطلب الابن منه الفدية، ونزل إلى الجحيم وأطلق سراح الناس. ثم حبس الشيطان في الجحيم.

عنصر واحد رهيب جداً دافع عنه أوريجينوس بالذات، وعنه أخـذ البـاقون بدون تمييز - وهو الكلام عن الفدية التي دفعها المسيح. يكتب أوريجينوس عن الفدية ويقول "لقد اشترينا بثمن" كما يقول بولس، وبدون شك، لقد اشترينا بثمن من الذي كنا له عبيداً، وهو الذي حدد الثمن المطلوب لكي يطلق سراحنا، ولما كان الـشيطان هو الذي أسرنا، لأننا أخذنا جانبه عندما أخطأنا، فقد سئل عن ثمن إطلاق سـراحنا، وكان الثمن هو دم المسيح. وحتى الوقت الذي دفع فيه دم يسوع وهو ثمـن بـاهظ جداً، وكان هو وحده الذي يكفي لخلاصنا - لم يكن لنا بالمرة فرصة الحرية.. (تفسير رومية ٢: ١٣)، وليست هذه فقرة وحيدة شاردة. بل يعود أوريجينـوس ويقـول في تفسير انجيل متى "لمن قدم حياته فدية عن كثيرين، ليس لله، فهذا مستحيل. ألم تكـن هذه الفدية للشيطان؟ لقد كان هو سيدنا حتى دفعت له الفدية، أي روح يسوع، وقد خدع الشيطان وظن أنه يمكن أن يكون سيداً لهذه الروح، ولم يقَدر أنه كان يعجز عن أن يحتمل عذاب الاحتفاظ ا" [1] (مت ١٦: ٨).

بلا شك كان الشيطان يجهل حقيقة التجسد، ذلك ان الكبرياء لا يمكنـها أن تقبل اتضاع الله. ولكن لماذا هذه المسرحية الفاشلة؟ والله هو الذي له السيادة المطلقـة وهو ضابط الكل. ومن زاوية أساسية، أليس هو المسئول عن خلاص الإنسان، وأليس هو الصالح محب البشر؟ وماذا يتعلم الإنسان عن هذه الخدعة؟ أصلاح الله ومحبتـه، أم قدرته على الخداع؟ لقد هاجم القديس غريغوريوس الـ ي ي هذا التفسير وكتب "هل حقاً أن الشيطان أخذ الفدية؟ هذه فكرة شيطانية، أن يأخذ الشيطان فدية مـن الله" (مقالة ٤٥: ٢٢).

---

[1] راجع مناقشة خلفية عن هذه الفكرة من الكتاب الممتاز:
Bigg, Christion Platonists of Alexandria, p255.

ومع أن هذا التفسير الغريب موجود عن النيسي (عظات الموعوظين: ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٦) ثم روفينوس (شرح قانون الإيمان ١٥، ١٦) وغريغوريوس الكبير (التعليم الأخلاقي ٣٣: ٧) وأوغسطينوس (كتاب الثالوث ٤: ٣ - ١٣: ١٢ - ١٣: ١٤) ويوحنا الدمشقي (الإيمان الأرثوذكسي ٣: ١ - ١٣: ١٨ - ٣: ٢٧). إلا أنه غير معروف بالمرة عند الآباء العظام وعلى رأسهم أثناسيوس الرسولي، كيرلس الكبير، باسيليوس، غريغوريوس الـ ي. هؤلاء اتبعوا طريقاً آخر هو التعليم السليم الذي لا أثر فيه لهذا الخيال البشري المغرم بالقصص.

وعلينا أن نؤكد أن كل القصص الشعبية المعروفة بالأناجيل الأبوكريفا، وهي ليست سوى قصص خرافية شوهت في الأوساط غير المتعلمة حقائق الإيمان، هي دون غيرها التي اختارت أن تفسر الفداء على هذا النحو الطريف (راجع انجيل برثلماوس القبطي - وسفر أعمال بيلاطس - انجيل بطرس... الخ).

ومثل الاتجاه الأول، لا نرى في هذه المسرحية الإنسان، إلاّ متفرجاً، ولا نرى أي علاقة بين هذه المسرحية والأسرار، لا سيما المعمودية والإفخارستيا.

هذان الاتجاهان يقلعان بشدة أسرار الكنيسة من جذورها.

أما الاتجاه الثالث

وهو التعليم السليم، فهو يؤكد أن موت المسيح، هو احتواء لموت الإنسانية. هو لقاء مع الموت في ناسوت المسيح نفسه. وهو صراع يحدث في داخل المسيح وليس خارج المسيح، صراع بين ما هو في الطبيعة الإنسانية، وما يمكن أن تعطيه الطبيعة الإلهية. صراع يدور على أرض الاتحاد بين اللاهوت والناسوت في المسيح الواحد.

وهنا نرى قيمة الاتحاد بين اللاهوت والناسوت وقيمة عقيدتنا في المسيح كإله متجسد، هذه الحقيقة الهامة في حد ذا ا هي ما يؤكدها القداس نفسه حينما ينتهي

الكاهن من كل الصلوات، وقبل توزيع الذبيحة يكون الاعتراف الأخير، الذي يؤكد اتحاد اللاهوت بالناسوت (وجعله واحداً مع لاهوته بغير اختلاط..) ولكنه يؤكد أبدية هذا الاتحاد (لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين).

وعلينا أن ندرك أن هذه الخاتمة هي في الواقع أساس - وسبب - كـل مـا يحدث في الخدمة الإلهية.

ولكي نتأكد من أننا نعبر عن الحق ونشرح التعليم السليم الذي أخذناه مـن الآباء، علينا أن ندرك - في اختصار شديد - ما جاء عن الفداء في كتـاب "تجـسد الكلمة" [1] لمعلم الكنيسة الجامعة القديس أثناسيوس الرسولي، يقول أثناسيوس عـن موت المسيح وقيامته "وإذ كان الجميع تحت قصاص فساد الموت فقد بـذل جـسده للموت عوضاً عن الجميع وقدمه للآب كل هذا فعله شفقة منه علينا وذلك..

أولاً: لكي يبطل الناموس الذي كان يقضي بهلاك البشر إذ مات الكل فيـه لأن سلطانه (ناموس الموت) قد أُكْمِلَ (أستنفذَ أو أستهلك) في جسد الرب ولا يعود ينشب أظفاره في البشر الذين ناب عنهم.

ثانياً: لكي يعيد البشر إلى عدم الفساد بعد أن عادوا إلى الفساد، ويحييهم من الموت بجسده وبنعمة القيامة وينقذهم من الموت كإنقاذ القش من النار" (تجسد الكلمة ٨: ٤ ترجمة القس مرقس داود).

وكما هو واضح أن الموت قد تم أو أُكمل في جسد الرب، وهو ما عبرنا عنه بكلمة مناسبة جداً ليست غريبة على أثناسيوس وهي "احتواء الموت" ولكن احتـواء الموت يعني الانتصار عليه بالقيامة، ثم يعود أثناسيوس ويلمس القاعـدة الأساسـية في الخلاص وهي الاتحاد الحقيقي للاهوت بالناسوت في المـسيح "وإذ رأى الكلمـة أن

---

[1] يوجد سبب واحد فقط لاختيار كتاب "تجسد الكلمة" فهو أكثر النصوص الآبائية المتوفرة باللغة العربية وهو أيضاً شرح واضح لا يغلب عليه الجدل بل الدخول المباشر في شرح العقيدة.

ناموس فساد البشرية لا يمكن إبطاله إلا بالموت كشرط لازم وأنه مستحيل أن يتحمل "الكلمة" الموت لأنه غير مائت ولأنه ابن الآب، لهذا أخذ لنفسه جسداً قابلاً للمـوت حتى باتحاده بالكلمة الذي هو فوق الكل يكون جديراً أن يموت نيابة عن الكل وحتى يبقى في عدم فساد بسبب الكلمة الذي أتى ليحل فيه، وحتى يتحرر الجميع من الفساد فيما بعد بنعمة القيامة من الأموات. وإذ قدم للموت ذات الجسد الذي أخذه لنفـسه كمحرقة وذبيحة خالية من كل شائبة فقد رفع حكم الموت فوراً عن الجميع، الـذين ناب عنهم إذ قدم عوضاً عنهم جسداً مماثلاً لأجسادهم...". (تجسد الكلمة ٩: ١).

وبعدها يقول أثناسيوس "إذ اتحد ابن الله عديم الفساد بالجميع بطبيعة مماثلـة، فقد ألبس الجميع عدم الفساد، بطبيعة الحال، بوعد القيامة من الأموات. لأنه لم يعـد ممكناً أن ينشب فساد الموت الفعلي أظفاره في البشر، وذلك بسبب (الكلمة) الـذي جاء وحل بينهم بجسده الواحد" (٩: ٢).

اتحاد اللاهوت بالناسوت إذن هو قاعدة الفداء، هذا الاتحاد جعل الناسـوت عديم الفساد يقول أثناسيوس "ولذلك كان لائقاً بطبيعة الحال أن يأخذ جسداً قـابلاً للموت حتى إذا ما أباد الموت فيه (في جسده) ائياً أمكن تجديد البشر" (١٣: ٩).

وقد شرح أثناسيوس الاتحاد بشكل آخر: "لم يكن ممكناً أن يلبس المائت عدم الموت إلا ربنا يسوع المسيح الذي هو الحياة" (٢٠: ١) فقد حدث هذا التحـول في الرب نفسه أي أن الطبيعة التي لبسها لم تعد طبيعة مائتة "القضاء على الموت والفساد كلية بفضل اتحاد (الكلمة) بالجسد لأنه كان لابد من الموت وكان لابد أن يتم الموت نيابة عن الجميع لكي يوفي الدين المستحق على الجميع ولما كان مستحيلاً أن يمـوت (الكلمة) لأنه غير قابل للموت فقد أخذ لنفسه جسداً قابلاً للموت، حتى يمكـن أن يقدمه كجسده نيابة عن الجميع وحتى إذا ما تألم نيابة عن الجميع باتحاده بالجسد، يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت" (فصل ٢٠: ٥-٦).

إذن، لقد داس الموت بالموت، كان جسده قابلاً للموت ولذلك مات ولكن بسبب اتحاده (بالكلمة) كان من المستحيل أن يظل في قبضة الموت، ولـذلك سـرت الحياة إلى الجسد وإقامته إلى عدم فساد أو بكلمات أثناسيوس "بطل الفساد وأبيد بنعمة القيامة" (٢١: ١).

ومرة أخرى يعود أثناسيوس ليؤكد "ماذا يمكن أن تكون غاية الجسد إذا حل (الكلمة) فيه؟ لأنه لم يكن ممكناً إلا أن يموت، إذ هو جسد قابل للموت، ويقَـدم إلى الموت عن الجميع، ولأجل هذه الغاية صوره المخلص لنفسه. على أنه كان مـستحيلاً أن يبقى مائتاً إذ صار هيكلاً للحياة. لهذا فإذا مات كجسد مائت، عـاد إلى الحيـاة بفضل الحياة التي فيه" (٣١: ٤).

لقد كان من الضروري أن نقتبس هذه النصوص لا لكي ينتـاب القـارئ الشعور بالملل، وإنما لكي يتعمق في الفكر والشعور ولكي ندرك أن القداس مـستحيل تماماً بدون إرساء هذه القاعدة لأن المسيح حاضر بيننا يقدم لنا حياة عـدم الفـساد، وينقل إلينا الروح القدس كل هبات الصليب والقيامة. ولذلك من الخطر الشديد حتى على الحياة الروحية نفسها أن نكتفي بالجانب الأول وهو إرضاء مطالب العدل الإلهي، ذلك أن هذه النظرة هي في الواقع نصف الخلاص إذا جاز هذا التعبير.

ولكن المسيح الحي معنا "ها أنا معكم كل الأيام" لا لكي يذبح من جديـد، فهذا مستحيل عملياً لأن الرب بعد القيامة لم يعد خاضعاً للألم والموت بل صار رئيس الحياة (أعمال ٣: ١٥)، الذي لا يسود عليه الموت (رومية ٦: ٤). ولكن علينـا أن نفهم هذه الحقيقة وهي أن الرب الحاضر معنا في القداس، والذي نحن ضيوفه في هـذه الوليمة السمائية، هو المسيح الذي ولد وأعتمد وصلب وقام، أنه بنفسه معنا يحمل إلينا كرأس الإنسانية الجديد أو آدم الثاني الحياة لا الموت (١ كورنثوس ١٥: ٤٧) وكمـا

انتقلت إلينا اللعنة والموت، هكذا تنتقل إلينا الحياة والبركة، نحن لا نقف عند الصليب أو القيامة وإنما معنا المسيح كله ينقل إلينا من ذاته الحياة.

ماذا نقدم ؟ ولماذا الذبيحة؟

لقد تأكدنا إننا لا نذبح المسيح فهو غير قابل للذبح لا سيما بعد أن دخل مجده (لوقا ٢٤: ٢٦).

وعلينا الآن بشكل واضح أن ندرك أن الذبيحة التي أمامنا ليست ذبيحة دموية، إنها ليست تكراراً للصليب ولا هي امتداد للصليب وإنما هي المسيح الحاضر بيننا. ولذلك تستخدم الصلوات الطقسية عدة كلمات هامة تشرح معنى الذبيحة.

يصف القداس، الذبيحة بما يلي "ليس دم الناموس حولها .. أما الخروف (الحمل) فروحي وأما السكين فنطقيةٌ (عقلية) وغير جسدية (مادية)". (صلاة صلح ليوحنا مثلث الطوبى).

"هذه الصعيدة المقدسة الناطقة (العاقلة) الروحانية غير الدموية.. هذه الذبيحة العقلية والحقيقية غير الدموية" (قسمة للآب سنوي رقم ١٦). هذه التعبيرات على قدر كبير من الأهمية لأن تعبير "غير الدموية" ليس فقط تعبيراً مضاداً لذبائح العهد القديم الدموية، بل هو تأكيد على أن المسيح لا يذبح مطلقاً على المذبح. وهذا ظاهر جداً رغم ادعاءات أعداء الأرثوذكسية الذين لم يكلفوا أنفسهم مشقة قراءة صلوات الكنيسة القبطية. ومما يؤكد أننا لا نخطئ في تفسير كلمة "غير الدموية" أن الصلوات تستخدم عادة تعبير "الناطقة" وهي كلمة يونانية الأصل دخلت اللغة القبطية - راجع النص القبطي **Ⲟⲩⲗⲟⲅⲓⲕⲏ** وتعني "العاقلة". وعند القدماء الناطق عاقل ولا فرق، ولذلك عندما ترجم الخولاجي في القرن العاشر إلى العربية وأعاد أولاد العسال ترجمته إلى العربية في القرن الثالث عشر استخدموا أحياناً "العقلية" بدلاً من الناطقة. وقيمة

هذه الكلمة هي أنها تؤكد انسكاب حياة المسيح في الإفخارستيا فهي ليست ذبيحة دموية بل هي ذبيحة عقلية قائمة على الحياة التي توهب فيها.

ولعل أفضل شرح لمعنى كلمة غير الدموية والناطقة، يأتي من نص قسمة القديس كيرلس السكندري حيث يظهر معنى التناول من الذبيحة "عند إصعاد الذبيحة على مذبحك تضمحل الخطية من أعضائنا بنعمتك، عند نزول مجدك على أسرارك ترفع عقولنا لمشاهدة جلالك" هذا هو العمل العقلي - أي غير المادي أو الروحي، أي غير المنظور. وهذا التفسير تحكمه المعاني الواضحة لكلمات الصلاة "عند استحالة الخبز والخمر إلى جسدك ودمك، تتحول نفوسنا إلى مشاركة مجدك وتتحد نفوسنا بألوهيتك.. من كأس دمك نشرب، أعطنا مذاقة روحية لكي نتذوق حلاوة أسرارك المحيية.. أنت تحل فينا بالمحبة.. لكي بذوق لحمك نؤهل لذوق نعمتك، وبشرب دمك نؤهل لحلاوة محبتك. وهبت لنا أن نأكل لحمك علانية، أهلنا للاتحاد بك خفية".. وهكذا، الأكل والشرب هما تذوق الأسرار بشكل روحي خفي، وليس هذا طبعاً نفياً لوجود لحم المسيح ودمه على المذبح، ولكنه تأكيد على أن هذا هو شركة الحياة في المسيح. والفرق الواضح بين البروتستانتية على اختلاف مذاهبها، وبين الأرثوذكسية، هو اليقين في أن ما على المذبح هو فعلاً وحقاً جسد ودم عمانوئيل وليس مجرد رمز أو علامة أو... الخ. كل هذه الكلمات مرفوضة لأنها تحاول أن تقلل من حضور المسيح على المذبح وتحاول أيضاً أن تستغل كلمة "الروحي" للقضاء على السر المقدس. ولكننا ندرك من كلمات القسمة لأبينا القديس كيرلس أن حضور المسيح في الإفخارستيا، ليس حضوراً روحياً بالمعنى البروتستانتي بل حضور حقيقي سري، بالمعنى الأرثوذكسي، وأنه حيث يوجد المسيح، توجد عطايا الخلاص والحياة الأبدية، وأنه لا مجال مطلقاً لفصل ما هو روحاني عما هو جسدي.

المسيح كله، ليس جسده بدون روحه ولا روحه بدون جسده، بل حـسب كلمات القداس الغريغوري "مبارك أنت أيها المسيح إلهنا ضابط الكل مخلص كنيستك أيها الكلمة المتجسد الذي من قبل تجسدك غير المدرك أعددت لنا خبزاً سمائياً جسدك المقدس... مزجت لنا كأساً من كرمة حقيقية التي هي جنبك الإلهي غير الـدنس..". (صلاة القسمة).

فالتجسد هو أساس الاحتفال بالسر ا يد والمسيح الحاضر بيننا وعندنا علـى المذبح هو الذي جعل جسده خبزاً سمائياً يؤكل.. وهو الذي فتح جنبه ليمزج لنا منها كأساً.. المسيح كله.

فالمسيح الحاضر هو الذي يقول عنه الكاهن في صلاة الحجـاب في القـداس الكيرلسي "لكي أكمل هذا القربان الموضوع الذي هو سر الأسرار كلـها بـصحبة وشركة مسيحك" وهذا يؤكد لنا معنى الكلمات التي تقال في الصلوات مثل "الطعـام غير المائت السمائي" كل هذه التعبيرات تنقل السر ا يد إلى درجـة مـن الوضـوح الفائق، فهو تذوق حقيقي للمسيح وهو تذوق للحياة التي قدمها المسيح.

إذا تأكدنا من هذا المعنى أصبح الكلام عن الذبيحة سهلاً ميسوراً، فالمـسيح يسوع ربنا حاضر معنا "هوذا كائن معنا على هذه المائدة اليوم عمانوئيل إلهنا حمل الله الذي يحمل خطية العالم كله" ولكن علينا أن نفهم، لماذا تقدم القـرابين؟ والجـواب واضح أنه عهد بيننا وبين الرب "هذا اصنعوه لذكري" فقد طلب منا الرب أن نـصنع هذا. ولذلك فإن تقديم القرابين معناه بكل تأكيد رغبتنا في الحصول على ما وعد بـه الرب. ويعبر الأنبا بولس البوشي عن هذا بقوله "إن تقدمة الصعيدة الغافرة على مذبح الغفران هو طلب المغفرة من ذاك الذي قال "يعطى لمغفرة الخطايا" فالكنيسة تطلـب وفي طلبها تسعى للاتحاد بالمسيح. ويعبر القداس الغريغوري عن هذا بـشكل واضـح "أعطيتني إصعاد جسدك بخبز وخمر".

والكلمة اليونانية القبطية "إصعاد" يختفي خلفها فعل يوناني يعني "يحصل على - يرفع - يحمل - *to load*" وهو فعل معروف في الترجمة السبعينية للعهد القديم ويعني بشكل واضح رفع القلب إلى الله في الصلاة (مراثي أرميا ٣: ٤١). واستخدم في العهد الجديد بعدة معان؛ فهو أصلاً يعني "ارتفع" (أعمال ١٠: ١٦). ويعني أيضاً "يأخذ" (أعمال ٢٣: ٣١، ٢ تيموثاوس ٤: ١١)، بل يستخدمه الرسول بولس بمعنى أن يلبس الإنسان درع الحرب الروحية (أفسس ٦: ١٣) ومما لا شك فيه ان استعمال الفعل هنا مجازي.

ويستخدم الفعل كما هو واضح من معناه لوصف صعود المسيح بعد قيامته (أعمال ١: ٣ - مرقس ١٦: ٩) وهو أيضاً يعني *taking up* و *receiving* وفي ضوء هذه المعاني المتعددة يمكننا أن نرى أن المسيح الذي صعد إلى السماء، هو الذي أعطانا خدمة هذا السر العظيم: أن نرفع، ونصعد جسده، بواسطة الخبز والخمر، والمعنى الواضح هو أننا نحن الذين نرتفع ونصعد عندما نقدم، ذلك أن صيغة القداس لم تستخدم الفعل، بل "المصدر". وطبعاً الأسرار هنا لا تتم على الأرض ولا في الزمان وحسب مقاييس العقل وإدراكه؛ هي تتم في السماء وفي الدهر الآخر الجديد، وحسب عمل الروح القدس، وهذا ما يمهد له القداس بشكل واضح "الذي أنعم علينا بمعرفة الروح القدس الحقيقية"، وطبعاً فإن الربط بين معرفة الروح القدس وظهور هذا السر العظيم الذي للحياة هو كلام مزدوج يحمل الإشارة إلى التجسد والى الإفخارستيا بشكل لا يمكن إنكاره، ويعتمد على نص الرسول بولس "عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد" (١ تيموثاوس ٣: ١٦).

ويعكس القداس الباسيلي ذات الكلمات "ووضع لنا هذا السر العظيم الذي للتقوى" وعبارات أخرى كثيرة تجعلنا نقف في دهشة واستغراب من هذا السر العظيم الذي ظهر والذي نأخذه أو نرتفع إليه أو نمسك به عندما نصعد إلى ذات السماء،

حيث يسوع رب ا د. ولعل كل من يدرس القداسات شـرقاً وغربـاً يعـرف أن الكلمات الخاصة بالسر ا يد تأتي بعد الاعتراف بالتجسد والصليب والقيامة والصعود وا يء الثاني للدينونة. وهذا الترتيب المحكم، دقيق جداً وليس مجرد صدفة، بل اتفـاق معرفة دقيقة بالسر ا يد؛ لأن ربنا يسوع المسيح الذي أعطانا حياته، قد أظهر عطـاء حياته، في كل مراحل وجوده على الأرض من بيت لحم حتى الصعود، وهو لا يتوقف عن العطاء بعد صعوده إلى السماوات، بل هو الذي أدخلنا إلى خدمـة الـسماويات عينها، وأعطانا أن ننال، ليس قوة الخلاص كما أسسها أثناء حياته على الأرض بـل معاينة المصير النهائي في السماء التي أصعدنا إليها. ولعل القداس الغريغوري وهو يتكلم عن إصعاد الإنسانية "أصعدت باكورتي إلى السماء" يؤكد بعد ذلك أننا ننـال هنـا خيرات الدهر الآتي. وما تحرص أن تسجله صلاة القسمة بوضوح للقديس كيرلس هو علاقة التناول بالاتحاد بالآب وبالروح القدس "وهبت لنا أن نشرب كأس دمك ظاهراً لكي نؤهل لأن نمتزج بطهارتك سراً، وكما أنك واحد في أبيك وروحك القـدوس نتحد نحن بك، وأنت فينا، ويكمل قولك، ويكون الجميع واحداً فينا" وكمـا أننـا نتذوق بشكل ظاهر الكأس، ننال طهارة الابن الوحيد، ونعبر بطهارته مـن انقـسام الخطية إلى الوحدة، مع الآب والروح القدس وبذلك يصبح خطأً أن نقع في فخ التعبير الذي يحصر عمل ذبيحة الإفخارستيا في الصليب وحده، وسوف نرى كيف فتح هذا التعليم الباب أمام الشك في الإفخارستيا وقذف الكنيسة إلى أعماق محيط من الجـدل الذي لا فائدة منه [١].

---

[١] من المعروف تاريخياً أن مجمع ترنت في القرن السادس عشر وفي الجلسة ٢٢: ١ المعروفة باسم " Isigitur Deus.." قد حدد بشكل قاطع ولأول مرة أن الافخارستيا هي ذبيحة الصليب، و ذا الشكل القاطع الذي لا يعرفه آباء الكنيسة يقول هذا ا مع "لكي يترك لعروسه المحبوبة الكنيسة الذبيحة المنظورة.. حيث أن الذبيحة الدموية التي تمت على الصليب تصبح حاضرة وتبقى الذكرى إلى اية العالم" راجع التعليم الروماني P/IIo.4,9u68.

وعلينا بمجرد التأمل السريع أن نستعرض الفرق بين ذبيحة الصليب وذبيحة القداس كما يلخصها كتاب الأسرار الكنسية المجلد الثاني للأسقف " *Joseph Pohle*" أستاذ اللاهوت بالجامعة الكاثوليكية في أمريكا - الطبعة الثالثة ١٩١٩م ص ١٣٣٩. هذه الفروق لا وجود لها بالمرة في لاهوت الكنيسة الشرقية.

ويمكننا أن نرى من هذه المقارنة، أنها مقارنة مصطنعة غير حقيقية..

أ- في المقام الأول ذبيحة الصليب، ذبيحة عامة، بينما ذبيحة القداس نسبية.

ب- ذبيحة الصليب قدمت مرة واحدة فقط، بينما ذبيحة القداس تعاد حتى مجيء الرب.

ج- ذبيحة الصليب أتمت فداء البشر بينما ذبيحة القداس تعطي ثمار ذبيحة الصليب للمؤمنين فقط.

د- على الصليب كان المسيح وحده هو الكاهن بينما في القداس يستخدم كهنة وخداماً من البشر.

هـ -. على الصليب قدم المسيح نفسه بشكل ظاهر وفي القداس يقدم نفسه تحت شكل الخبز والخمر.

وهذه المقارنة تقود بشكل واضح إلى التعليم بوجود مناسبتين قدم المسيح فيهما نفسه، أو إلى ذبيحتين. وهذه الروح اللاتينية التي تجاهد الكنيسة الكاثوليكية للخلاص منها الآن، والعودة إلى الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية، هي التي تجعلنا على قدر كبير من الحذر في استعمال المصطلحات اللاهوتية، وفي شرح القداس بعيداً عن كل تأثيرات الفكر الغربي العقيم، يكفي أن نستعيد كلمات القداس الغريغوري التي تعلن بوضوح وجود المسيح بيننا "يا الذي قدس في ذلك الزمان الآن قدس.. يا الذي أعطى الآن أيضاً أعطنا" فالفعل واحد والكاهن واحد والذبيحة واحدة لأن الذي بيننا هو صاحب الذبيحة، وهو الذي يعطي كما أعطى جسده ودمه أي حياته التي تمتد من

بيت لحم إلى جبل الزيتون، والتي تفتح لنا حضن الآب نفسه. ويكفي أن نسمع كلمات القداس الغريغوري "أيها الإله وحيد الجنس الذي في حضن أبيه يا رب بارك" فنحن لا نقف عند الجلجثة ولا عند القبر، نحن لا نقف عند مرحلة معينة من حياة المسيح، بل كل المراحل حاضرة بما فيها السماء. ولنا أن نسأل لماذا تسبق تسبحة الشاروبيم الكلام عن السر المجيد وكيف يجوز لنا أن نقول "نصرخ بما يرسله أولئك بأصوات لا تسكت.."؟ إن الكلام عن الرتب الملائكية هو تأكيد على حقيقة حضورنا في السماء، ولذلك نحن لا نعود إلى الوراء، إلى الصليب، بل نحن بكل يقين نبدأ من الخليقة إلى السقوط إلى التجسد إلى الصعود إلى المجيء الثاني ثم دخولنا السماء.

ونحن في السماء، نسبح، ونمجد، ونحتفل، بما أعطاه لنا الله، وهوذا الآن المسيح حاضر معنا: "هوذا كائن معنا على هذه المائدة اليوم عمانوئيل إلهنا حمل الله الذي يحمل خطية العالم كله".

"الجالس على كرسي مجده، الذي يقف أمامه جميع الطغمات السمائية" (القسمة) أما بقية الكلام فهو بشكل واضح المنظر الموجود في سفر الرؤيا ذلك أن المسيح هو الكاهن الحاضر دائماً الذي أدخلنا إلى حضرة الآب. وفي القداس لا نراه مذبوحاً فقط بل ممجداً أيضاً، هو الحمل الذي يجلس على كرسيه أو عرشه وقائم كأنه مذبوح.

شذرة موجزة من الآباء:

لكي نتأكد من صحة وسلامة ما نقول.. ولكي ندرك أننا نتبع طريق الآباء علينا أن ندرس هذه النصوص الموجزة حيث أن المجال لا يسمح بدراسة الإفخارستيا في كتابات آباء الكنيسة الجامعة.

إن أول ما يسترعي الانتباه تشديد الآباء على الذبيحة الواحدة وهو جانـب هام في فهم الذبيحة، لأن الذبيحة الواحدة هي نقيض كامـل للـذبائح المتعـددة في اليهودية. ولكن الذبيحة الواحدة هي أيضاً المسيح الذي لا يتغير والذي هو في الواقـع يحمل في ذاته الميلاد والصليب والقيامة ورئاسة الكهنوت وجلوسه عن يمـين الآب في الأعالي في ا لمجد.

يقول غريغوريوس الثيئولوغوس:

"إن اليهود يمنعوننا من مذابحهم وحسناً يفعلون لأنني أعرف مذبحاً آخر كانت الذبائح القديمة التي تقدم على مذابح اليهود رمزاً له ولكن هذا المذبح الآخر الجديد لا تقدم عليه ثيران ولم ينحت بواسطة المعاول أو سمع صوت الحديد وهو يقطعه، بل الكل يتم في العقل والصعود اليه يتم بواسطة التأمل.

"عند هذا المذبح سأقف لكي أخدم وعليه سوف أقرب الذبيحة الناطقة المقبولة لأن الحقيقة تفوق الرمز..

"وعندما نشترك في الفصح فنحن لا نشترك في الفصح القديم حسب رموز الناموس، بل علينا أن نرفع أيدينا ليس إلى أورشليم الأرضية بل أورشليم السمائية، التي لا تقدر جيوش الأعداء أن تطأها لأ ا ممجدة من الملائكة. وعلينا أن نقدم ليس ذبائح من الحملان والغنم والبقر التي بلا حياة وبلا فكر، بل علينا أن نقدم ذبيحة التسبيح لله على المذبح السمائي.

"علينا أن نذبح أنفسنا كل يوم وأن نكون ذبيحة مثل المسيح.. وبعقل مستعد لنصعد معه على الصليب لكي نحفظ عيد القيامة..

" إذ هو نزل إلى الجحيم نـ ل معه، و ذا نتعلم معنى أسرار المسيح وإذ هو صعد إلى السماء نصعد معه" (المقالة ٢٦: ١٦ - مقالة ٤٤ / ٢٣ - ٢٥).

فالحياة التي تلازمنا هي حياة المسيح وحيثما المسيح توجد الجماعة ومعها كل ما يخص المسيح، حتى الـ ول إلى الهاوية هو اختبار لسر المسيح الذي نتحد به.

يقول ذهبي الفم في شرحه للرسالة إلى العبرانيين:

"ماذا نفهم؟ ألا نقدم نحن القربان كل يوم؟ حقاً إننا نقدم لأننا ـذا نصنع ذكرى موته ولكن الذبيحة واحدة وليست عدة ذبائح لأ ا قدمت مرة واحدة مثل تلك التي كانت تقدم مرة واحدة، وتدخل إلى قدس الأقداس. كانت هذه الذبيحة اليهودية رمزاً لذبيحة المسيح..

"إننا نقدم ذات الشخص وليس مثل اليهود اليوم عجلاً وغداً ثوراً بل دائماً نفس الذبيحة، ولذلك فالذبيحة واحدة. وإذا وضح هذا البرهان، ألا يقودنا إلى سؤال: إن الذبيحة تقدم في عدة أماكن فهل معنى ذلك أنه يوجد عدة مسحاء Christs؟، بكل تأكيد لا.

المسيح في كل مكان هو المسيح الواحد، هو واحد كامل هنا وفي أي مكان وحيثما يقَدم، هو هو نفسه جسد واحد وليس عدة أجساد، وهكذا الذبيحة واحدة.

ورئيس الكهنة يسوع هو الذي قدم الذبيحة الواحدة التي تطهرنا. وهكذا نحن نقدم الآن ما قدمه هو والذي لا يمكن أن يفنى. هذا تذكار لما سبق وصنعه لأنه قال "اصنعوا هذا لذكري" ولذلك نحن لا نقدم ذبيحة غير تلك التي تقَدم كما كان رئيس الكهنة في القديم يفعل، بل نقدم نفس الذبيحة". (عظة ١٧: ٣ على الرسالة إلى العبرانيين).

ويؤكد ذهبي الفم مرة أخرى:

"رئيس كهنتنا في السماء في مجد عظيم يفوق ما كان لدى اليهود وليس فقط في نوع الكهنوت بل في المكان الذي يمارس فيه الكهنوت، وفي المسكن، والشخص نفسه.

إن ذبيحتنا في السماء، وكاهننا في السماء ولذلك فالذبيحة التي تقدم على المذبح ليست من الغنم أو البقر أو الدم أو الشحم، فكل هذه الأمور عبرت، وانتهت وحلت محلها الليتورجية العقلية".

ما هي هذه الليتورجية العقلية؟

هي الذبيحة التي تقدم إلى الله بواسطة النفس ومن خلال الروح القدس لأنه مكتوب: "الله روح.." (يوحنا ٤: ٢٤).

ها أنت تسمع أنه يجلس عن يمين العظمة في الأعالي، فلا تفترض أن رئاسة كهنوته، مجرد لقب. فهو يجلس عن يمين العظمة في الأعالي وهذا تأكيد على ألوهيته، أما رئاسة كهنوته فهي تأكيد على اتضاعه ومحبته للبشر واهتمامه بنا.

وهذا ما يعلنه الرسول بشكل ظاهر مؤكداً اللاهوت ورئاسة الكهنوت معاً حتى لا يغفل أحدهما وقد وصل الرسول إلى النقطة التي يجيب فيها على السؤال الهام، إذا كان المسيح رئيس كهنة فلماذا مات؟ وما هو مؤكد قبل أي شيء آخر أنه لا يوجد رئيس كهنة بدون ذبيحة ولذلك كان له أيضاً ذبيحة ولأنه قال أنه في السماء فقد أكد بشكل ظاهر أنه فعلاً كاهن بالمقارنة بملكي صادق بالقسم والذبيحة نفسها.

ولكن ما هي السماويات التي يتكلم عنها الرسول؟

إ ا الأمور الروحية التي توهب للكنيسة، ورغم أن هذه الأمور تتم ويحتفل ا على الأرض، إلا أ ا أمور سمائية.

وعندما نرى الرب ذبيحة وقرباناً مذبوحاً، وعندما يحمل الروح إلينا هذا، فالكل يتم حيث يجلس المسيح عن يمين الآب.. أي هنا حيث يولد الأولاد بالحميم ويصبحون مواطني السماء لأن مدينتنا هي السماء وحينما نصبح غرباء بالنسبة للأمور الأرضية فكيف لا يعتبر هذا سماءً؟ أليست التسابيح سمائية؟ أليس حقاً أن التسابيح التي نرتلها هي بذا ا التي

ترتلها فرق الملائكة التي نشترك معهم في التسابيح.. أليس المذبح سمائياً ؟ وكيف؟

لا يوجد عليه شيء مادي. كل التقدمات التي توضع عليه روحية، والذبيحة لا تتحول إلى دخان ورماد يتبدد مثل ذبائح العهد القديم بل تصبح في ا ء ومجد لا يقارن بما كان يتم في العهد القديم. وكيف يمكن أن تكون الطقوس شيئاً آخر غير السماء، لا سيما عندما يسمع الذين يخدمون هذه الخدمة ما قيل "ما ربطتموه على الأرض يكون مربوطاً في السماء" (يوحنا ٢٠: ٢٣). وعندما يكون عندنا مفاتيح السماء فكيف لا يكون كل ما لدينا سمائياً (عظة ١٤: ١ - ٢ على الرسالة إلى العبرانيين).

وفي مناسبة أخرى يقول ذهبي الفم:

"عندما ترى الرب وقد ذبح على المائدة قرباناً، والكاهن يقف عند الذبيحة يصلي وكل الأشياء قد صبغها الدم الكريم فهل تظن أنك لا تزال تقف حيث يقف البشر على الأرض؟ لا، أنت قد نقلت إلى السماء لذلك أطرح كل فكر أرضي من قلبك.. لكي ترى هذه الأمور السمائية" (كتاب الكهنوت: ٤).

ويؤكد الآباء أيضاً أننا لا نتحد بالمسيح الذي عاش في أزمنة سابقة بل بالرب الحي الحال في الكنيسة ؛ لأن الإفخارستيا ليست عودة إلى الوراء بل شركة في الحاضر "الذبيحة غير الدموية التي ا نشترك في المسيح في آلامه ولاهوته" (غريغوريوس الثيؤلوغوس مقاله ٤: ٥٢). وتعكس هذه اللغة التعبيرات التي رأيناها في القداسات، وسوف نعود إلى هذه النقطة عندما نناقش "اصنعوا هذا لذكري".

وحقيقة وحدة الذبيحة مرتبطة، بحقيقة أ ا ليست دموية، وهذه بدورها مرتبطة، بأننا لسنا منفصلين تاريخياً، أو زمانياً عن المسيح الحي، بل نحن نعيش "زمان المائدة المقدسة السرية" حسب تعبير القديس كيرلس السكندري (الرسالة الفصحية ٢٣

- ٣١). وهو الزمان الذي يهب فيه حياته للكنيسة في الإفخارستيا. ووحدة ذبيحـة المسيح، يؤكد عنصرها الروحي، الذي فيه تنسكب حياة الكنيسة.

✞ ✞ ✞

الفصل الثالث

سلاماً وبنياناً لكنيسة الله الواحدة

عندما يحمل الكاهن الخبز في اللفافة ويعطي "ا د والإكرام لـ لآب والابـن والروح القدس" يعلن بشكل واضح ان بداية الخدمة دف إلى السلام وبنيان الكنيسة الواحدة"... وكلمة بنيان من الكلمات الأساسية التي يفتتح ا الكاهن أيضاً القـداس الغريغوري "أقرب لك هذه الذبيحة الناطقة غير الدموية.. صفحاً لخطاياي وسيئاتي.. وبنياناً لشعبك أجمع" (صلاة الحجاب).

وحقاً إن الكاهن يسمع وصية الرسول وهو يقول "هكذا أنتم أيضاً إذ أنكـم غيورون للمواهب الروحية اطلبوا لأجل بنيان الكنيسة.." (١ كورنثـوس ١٤: ١٢). ومن الواضح أن كلمة بنيان وردت أكثر من مـرة في (كورنثـوس الأولى ص ١٤) وأكثر من أي موضع آخر في العهـد الجديـد كلـه (١٤: ٣، ٥، ١٢، ٢٦)، لأن الموضوع هو المواهب الروحية وهو أكثر الموضوعات المثيرة للجدل والانقسام.

وهكذا تبدأ الخدمة المقدسة بطلب واضح من الثالوث الأقدس أن تكون هذه الخدمة، بنياناً لكنيسة الله الواحدة. ومن يقرأ الطلبات في القداسات الثلاثة يدرك مـا هو المقصود من هذه الكلمة المهجورة التي غالباً لا تستخدم في أحاديثنا اليوميـة، ولا ندرك أ ا أحد أهداف الله الواضحة جداً. والكلمة أصلاً مشتقة من كلمة أخرى هي كلمة بيت "οικοσ" ومنها جاء الفعل اليوناني يبني "οικοδομεω" إن البنـاء هو أصلاً بناء البيت، والبيت هو هيكل الله (مـرقس ٢: ٢٦) ويـسمى بيـت الله

(عبرانيين ٣: ١ - ٦) ولكن كما هو واضح فإن البيت هو الجماعة المسيحية - أهل بيت الله (١ بطرس ٢: ٣) وهو البناء الروحي الذي يشيد من الحجارة الحية التي المسيح هو رأسها أو حجر الزاوية الحي (١ بطرس ٢: ٤) (راجع أفسس ٢: ٣٢)، ومن الواضح أن الرسول بطرس عندما يتحدث عن البناء الروحي، فهو يصف بيت الله المصنوع من الحجارة الحية الذي فيه الكهنوت المقدس والذبيحة المقبولة (١ بطرس ٢: ٤).

إن المسيح هو الذي وعد ببناء الكنيسة على صخرة الاعتراف به ابناً لله (متى ١٦: ١٨)، ووعد أيضاً أن يبني الهيكل غير المصنوع بيد بشرية (مرقس ١٤: ٥٨) وهوذا الوعد يتصدر بداية الخدمة الإلهية، إننا نحن الذين اجتمعنا في هذه الكنيسة نسعى إلى بنيان الكنيسة أولاً بكلمة التعليم (أعمال ٢٠: ٣٢) وثانياً بالاشتراك في الذبيحة لأننا نصبح فعلاً جسد المسيح، عندما نتحد به، ونصبح هيكله، ويصبح هو فينا، ونحن فيه. وما نقوله في بداية القداس هو ما نعلن اننا سوف نفعله بعد ذلك، لا سيما عند اكتمال السر ا يد - "اجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا أن نتناول من قدساتك طهارة لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا لكي نكون جسداً واحداً وروحاً واحداً ونجد نصيباً وميراثاً مع جميع قديسيك" ونحن لسنا فقط جسداً واحداً مع بعضنا، بل كما نقول قبل التناول "اجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا أن نتناول من جسدك المقدس... لكي نكون جسداً واحداً وروحاً واحداً معك" (الباسيلي).

الجسد يبنى ولا جدال على حقيقة أساسية، وهي تلك التي تذكرها أوشية الاجتماعات "ولعبيدك الآتين بعدنا إلى الأبد". فالجسد ينمو عبر العصور؛ ولم تعرف الكنيسة في تاريخها الطويل من يعمل لعصره أو يجاهد من أجل زمانه بل دائماً من يعمل للآخرين. ولذلك عندما يطلب الرسول بولس أن يعمل الكل للبنيان يقول وهو يلمس جرح الإنسانية الأصلي "فليرض كل واحد منا قريبه للخير لأجل البنيان، لأن

المسيح لم يرض نفسه بل كما هو مكتوب تعييرات معييرك وقعت علي" (رومية ١٥: ٢ - ٣). والسلطان الرسولي هو لبناء الكنيسة "فإني وإن افتخرت شيئاً أكثر بسلطاننا الذي أعطانا إياه الرب لبنيانكم لا لهدمكم لا أخجل" (٢ كورنثوس ١٠: ٨).

وإذ رجعنا للرسول وجدنا دائماً أن بنيان جسد المسيح (أفسس ٤: ١٢) هو بنيان يتم في المحبة (أفسس ٤: ١٦) لأن أساس البنيان هو يسوع المسيح نفسه (١ كورنثوس ٣: ٩ - ١٧) وبالطبع لا يمكن أن يبني أحد على أساس المحبة إلا كل من هو من المحبة.

وبنيان كنيسة الله هو إعلان عن المصالحة بين اليهود والأمم "فلستم بعد غرباء، ونزلاء بل رعية مع القديسين وأهل بيت الله، مبنيين على أساس الرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية الذي فيه كل البناء مركباً معاً ينمو هيكلاً مقدساً في الرب. الذي فيه أنتم أيضاً مبنيون معاً مسكناً لله في الروح" (أفسس ٢: ١٩ - ٢٢) وهكذا تدخل بنا الخدمة إلى هذه الحقيقة الفائقة عندما تبدأ الصلاة بالتمجيد والكرامة للثالوث لأنه بنى لنفسه ذلك البناء الذي ينمو، والذي يصبح مسكناً لله في الروح القدس. ويا ويل من يخطئ في فهم هذه الذكصولوجية "مجداً وإكراماً للثالوث الأقدس الآب والابن والروح القدس سلاماً وبنياناً لكنيسة الله". هذه هي المسيحية كلها في عبارة موجزة.. هي قمة الوعي الروحي بحقيقة علاقة الله بالإنسان في المسيح يسوع وبالروح القدس. ولذلك علينا نحن الذين نرقب الحركة الطقسية المرافقة لهذه الكلمات وهي الدورات حول المذبح والقس والشماس يحملان القرابين أن نتذكر قيمة ومعنى الكلمات التي تقال. لقد دخلنا خدمة بناء المسكن الإلهي حيث وجد الرب له مسكناً بين الناس "والكلمة صار جسداً وسكن بيننا" (يوحنا ١: ١٤) والطواف بمذبح الله ليس رمزاً فقط لوجود الإفخارستيا في العالم وتحقيقاً لوعد الله (ملاخي ١: ١١) في كل مكان من مشارق الشمس إلى مغاربها، بل أيضاً هو طواف الابتهاج والفرح

بالخلاص، وهكذا ندخل بالقرابين إلى داخل الهيكل ونحن نضع أساس القداس الإلهي، لأن الرب سوف يحل بيننا جسدياً في ذلك السر ا يد لكي يضيف إلى بناء جسده ما يحتاجه ذلك البناء.

إن الفقرة التي اقتبسناها من بولس تحتاج إلى وقفة طويلة لأن مجال دراستها هو العهد الجديد ولأ ا من الفقرات الأساسية التي أخذت الكنيسة عصار ا ووضعتها في بداية القداس الباسيلي. ولعلنا الآن ندرك أن جسد المسيح ليس كاملاً بل أنه في طريقه إلى الكمال بمواصلة ضم أعضاء جدد إليه في كل جيل. وكم يحتاج ذلك الكمال إلى دهور يعلمها صاحب الجسد وحده وهو الرب يسوع المسيح. ولكننا علينا أن نـدرك أن الإفخارستيا وهي شركة جسد المسيح هي ذلك البناء القوي الذي سوف يكملـه الرب لأنه يضم إليه كل يوم الذين يخلصون.

الكنيسة الجسد الواحد

من الأخطاء الشائعة ذلك الخطأ الجسيم عن الكنيسة، حيث دخلت الأفكـار الفلسفية في قلب "اللاهوت" وجعلت الكنيسة جسداً بمعنى جماعة متفقـة تعـيش في انسجام مثل الجسد الواحد.

والخطأ الأساسي هو أنه لا يوجد مقارنة بين الجـسد، والكنيـسة. بـل أن الكنيسة لا تدعى أصلاً جسداً، بل هي "جسد المسيح"، والفرق بين الكنيسة كجسد، والكنيسة جسد المسيح كبير جداً، ذلك أن مركز الثقل في التعبير ليس الجـسد بـل جسد المسيح. وحتى في (رومية ١٢)، حيث يبدو أن الرسول يلجأ إلى الكـلام عـن الجسد وأعضائه ذات الوظائف المختلفة، نجد الرسول بولس يقول بكل وضوح "نحـن الكثيرين جسد واحد في المسيح" (رومية ١٢: ٥) والكلام بعد ذلك عـن وظـائف الجسد هو في الواقع كلام عن المواهب وبعد ذلك في (١ كورنثوس ١٢) ليس الكلام

عند الرسول عن الجسد، هذا هراء، وليس الكلام عن العين واليد والرأس يعني الواجب الاجتماعي فهذا لم يخطر على قلب رسول المسيح، ولكنه يحدد بكل يقـين أن هـذا الجسد هو جسد واحد لأنه جسد المسيح (١ كورنثوس ١٢: ١٢) وبعد المقارنة بين وظائف الجسد[١] يعود فيقول "أما انتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفراداً" (١ كورنثوس ١٢: ١٧).

من أين جاء تعبير "جسد المسيح" كوصف لحقيقة اختبار إيماني تعيشه الكنيسة؟

يجيب على هذا السؤال العالم الإنجليزي "*Rawlinson*" ويقـول بـالحرف الواحد: "إن أصل تسمية الكنيسة جسد المسيح جاء من ممارسة الإفخارستيا، ذلك أن المسيحيين يأكلون الخبز الذي هو جسد المسيح، وبذلك يصبحون هم جسد المسيح". ويقدم هذا العالم نص الرسول بولس نفسه "الخبز الذي نكسر أليس هو شركة جسد المسيح؟ ألا ترون أننا نحن الكثرة نصير خبزاً واحداً، جسداً واحداً لأننا نشترك في الخبز الواحد" (كورنثوس الأولى ١٠: ١٦، ١٧) [٢].

وفي الحقيقة فإن الإجماع العام لدى غالبية أساتذة العهد الجديد هو أن الكنيسة ليست مثل إسرائيل القديم أو مثل الوثنيين لأن ما يقدم على المذبح عندهم هو ذبيحة، وأما ما يقدم على المذبح عندنا فهو شركة بين ما يقدمه الشعب والإله الذي يقدمون له الذبيحة. ولذلك يمضي الرسول ليقول بعدها "لا تقدرون أن تشربوا كأس الـرب (في الإفخارستيا) وكأس شياطين (في الأعياد الوثنية)، لا تقـدرون أن تـشتركوا في مائدة الرب وفي مائدة شياطين" (كورنثوس الأولى ١٠: ٢١) وهذه المقارنـة تؤكـد

---

(١) مرتان فقط استخدم الرسول تعبير الجسد دون تحديد (١ كورنثوس ١٠: ١٧، ١١: ٢٩) ولكن من سياق الكلام يظهر أن الكلام عن جسد المسيح. ولا يوجد مطلقاً تعبير جسد الكنيسة بل دائماً جسد المسيح.

٢ Corpus Christi, in Mysterium Christi ed Bell & Deismann, P 225F.

الاشتراك الحقيقي في جسد المسيح ودمه، وهي شركة تجعل المشترك في النهاية يصبح في وحدة مع الإله الذي يعبده. وقد علق العالم الألماني يواكيم يرمياس "*Jeremias*" على هذا النص فقال أن الكلام عن الجسد والدم هنا يعني بشكل مباشر الاشتراك في ذبيحة المسيح. وهذا في الواقع ما ينقله إلينا القداس بشكل مباشر منذ بداية المسيحية في صلوات الديداكي (٩: ٤) ثم في القداسات كلها شرقاً وغرباً، وهو ما ينقله إلينا التراث القبطي في قوة وبساطة التعبير يقول القداس الباسيلي "لكي إذ طهرتنا كلنا توحدنا بك من جهة تناولنا من أسرارك الإلهية" أو بتعبير قوي جداً وغني بكلمات لاهوتية يقول القداس الكيرلسي "لكي اذ نتناول بطهارة من هذه الأسرار نصير شركاء في الجسد وشركاء في الشكل وشركاء في خلافة مسيحك".

إن قوة التعبير كامنة في كلمتين الأولى "المسيح" و الثانية "الواحد"، فالكنيسة ليست جسد المسيح فقط، بل هي جسد المسيح الواحد. والقداسات كلها أخذت هذا التعبير من رسائل بولس الرسول، ولذلك علينا أن نعود إلى بولس نفسه لكي نكشف معنى هذه العبارة، ذلك أنه لا يوجد جسد المسيح عن يمين الآب وجسد المسيح على الأرض أي الكنيسة وجسد المسيح في الإفخارستيا.. العهد الجديد والقداسات لا يعرفون ثلاثة أجساد بل جسد واحد.. وفي الحقيقة فإن الرسول يقول بدقة "فكما أن الجسد واحد وله أعضاء كثيرة وأن جميع أعضاء الجسد مع كونها كثيرة هي جسد واحد كذلك المسيح أيضاً" (١ كورنثوس ١٢: ١٢ - الترجمة الكاثوليكية).

والجسد الواحد هنا أي الجسد البشري يعلن سر المسيح الواحد الذي لا يفترق عن أعضائه. والرسول بولس يعلن عن هذه الوحدة ولا يدخل في تفاصيل فلسفية بشرية، فالمطلوب هو حياة جديدة تعاش. وهو أيضاً لا يقول إن المسيح يذوب أو يختفي أو يصبح المسيح والكنيسة وحدة واحدة تختفي فيها الوحدة، فكل هذه الشطحات لا وجود لها بالمرة، وقد قدم الرسول بعد ذلك تشبيه علاقة الزواج بين

الرجل والمرأة حيث يصبح كلاهما جسداً واحداً ولكن لا الرجل يتحول إلى امرأة ولا المرأة تتحول إلى رجل، ولا يذوب أحدهما في الآخر بل يعيشان في وحدة تختبر (أفسس ٥: ٢٢ - ٣٢). ولذلك بعد الكلام عن الجسد الواحد، يضع الرسول الضمانة الأساسية لهذه الوحدة، وهي عمل الروح القدس "لأننا بروح واحد اعتمدنا جميعاً إلى جسد واحد.." (١ كورنثوس ١٢: ١٣) وهنا كما نرى فإن الذي يجعلنا أعضاء جسد المسيح هو الروح القدس فهو الذي يضمنا إلى الجسد الواحد ليس بالمعمودية فقط بل هو الذي يسقينا ويعطينا الماء لكي نحيا ونظل في هذا الجسد الواحد، وبالتالي لا يمكن شرح هذا الأمر مطلقاً إلا في إطار شركة تعاش، فكل الشروح الفلسفية أو النظرية تهدم قوة السر.

والرسول لم يقل إن الكنيسة مثل جسد المسيح، أو تشبه المسيح، ونحن لا نصلي في القداسات لكي نكون مثل جسد المسيح، بل لكي نكون فعلاً جسداً واحداً وروحاً واحداً، وبالتالي نجد نصيباً وميراثاً مع جميع القديسين [1] (الباسيلي).

وهنا علينا أن نعود إلى العهد القديم، إلى الوحدة القائمة على أساس الشخصية الجماعية، لأننا على أساس ما يذكره الكتاب المقدس يمكننا أن نفهم عبارة الجسد الواحد أو الإنسان الواحد، الذي يجمع الكل فيه، فالكل في الواحد، كما أن الواحد في الكل [2].

يقول الرسول بولس "إن ما يظهر الأضعف من أعضاء الجسد لهو الأشد ضرورة للإحاطة بالرعاية، وما نحسبه الأحقر من أعضاء الجسد، فهو ما يجب أن

---

(1) يقول القديس يوحنا ذهبي الفم "ما معنى الشركة؟، نحن الجسد نفسه. ولكن ما هو الخبز؟، هو جسد المسيح. وماذا يصبح الذين يشتركون؟، يصبحون جسد المسيح، ليس أجساداً كثيرة، بل جسد واحد" (على كورنثوس ١٠: ١٦، ١٧).

(2) راجع مذكرات الواحد والكل، طنطا - ١٩٧٧.

تشمله بأعظم الكرامة وما يقبح منا فهو ما نحوطه بأوفر الحشمة". (١ كورنثوس ١٢: ٢٢، ٢٣ - الترجمة الكاثوليكية).

وهذا النص الذي يتحدث عن الجسد الواحد يقول إن الأعضاء الأحقر الـتي نغطيها، وربما الرسول يعني البطن ثم الأعضاء الأخرى.. هـؤلاء أعـضاء في جـسد المسيح. والرسول هنا لا يتحدث عن أشخاص معينين، بل يصف الضعفاء الـذين لا شهرة لهم، الذين يعتبرون مجهولين مثل أعضاء الجسد التي لا نراها، هؤلاء يجـب أن يحاطوا بالرعاية والكرامة تماماً مثل الذين يملكون المواهب ولهم شهرة في الكنيسة.

وهذا هو معنى الجسد الواحد، وهذا هو معنى المحبة الإلهية التي تهتم بالحقير.

الكنيسة ليست كنيسة أصحاب المواهب فقط بل أيضاً، الذين بلا مواهـب هؤلاء يحيون بيننا في صمت وهم علامات على فقر الإنسانية، واحتياجها الشديد إلى محبة الله.

عندما ننسى هذه الحقيقة - حقيقة الانتماء إلى جسد المسيح الواحد، وأننـا ندخل الكنيسة لكي نمارس المحبة بشكل عملي فيه العطاء والشركة - لا نـستطيع أن نفهم أموراً كثيرة، مثل الثالوث، والزيجة.

وعندما ننسى هذه الحقيقة، فإننا في الواقع نفقد قوة السر وعمله في حياتنـا لأننا لا نتناول للحصول على بركة ولكن من أجل الشركة في الجسد الواحـد. وإذا أغفلنا هذه الحقيقة نكون قد أغفلنا سبب التناول...

ولعلنا في خاتمة هذه الدراسة الموجزة، ندرك أن بنيان الجسد هو تحقيق إتحـاد الأعضاء. كما أن الشركة في الجسد، هي نمو هذا الاتحاد. ويا ليتنا ندرك هذه الحقيقة الهامة في الكنيسة وهي أن الكنيسة تصير إلى ما هي عليه، فهي جسد المسيح، ولكنها تصير جسد المسيح، لأنها تنمو نحو الهدف الذي بدأت منه رحلتها إليه.

ونحن الجسد، نشترك في الجسد، ونحن جسد المسيح، نأكل جسد المسيح لكي نكون ما نحن عليه، أو حسب تعبير العلامة أوريجينوس "نحن نولد من الله، ونكون أبناء له، ولكننا نولد منه في كل قول وفعل، أي نصير ما نحـن عليـه " *We become what we are*".

✞ ✞ ✞

الفصل الرابع

الجسد الواحد
في الصلاة والطقس

من يقرأ الخولاجي يرى بكل وضوح أن الإفخارستيا هي الموضوع الأساسي الذي تدور حوله كل الصلوات والطقوس، ولكن الإفخارستيا في صلوات القداس قائمة على:-

١- المسيح وسيط بين الله والناس.

٢- تكامل عمل الابن كوسيط وعمل الروح القدس كَمقَدس.

٣- وحدة الكنيسة كجسد المسيح.

هذا هو إطار الإفخارستيا الحقيقي، فمن الخطأ أن ندرس الإفخارستيا، دون دراسة عمل المسيح كوسيط أو وحدة المسيح والكنيسة.

ويمكننا أن نرى العناصر الثلاثة معاً في كل صلوات القداس. ولعل أفضل مثال لها هو "يا رئيس الحياة وملك الدهور كلمة الله الآب أبو ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح الخبز الحقيقي الذي نزل من السماء واهب الحياة لمن يتناوله. اجعلنا أهلاً من غير وقوع في دينونة أن نتناول من جسدك المقدس ودمك الكريم فيصيرنا تناولنا من أسرارك المقدسة واحداً معك إلى الانقضاء".

والعناصر الثلاثة الأساسية كما هو واضح هي، نزول ربنا من السماء كوسيط، ثم ظهور هذه الوساطة في تقديم ذاته عنا، وبشكل خاص عندما جعل جسده

ودمه خبزاً سمائياً واهباً للحياة، ولعل وحدة الكنيسة بالمسيح ظاهرة هنا كما تظهر في أماكن أخرى "يصيرنا تناولنا من أسرارك المقدسة واحداً معك إلى الانقضاء" ولكن ماذا عن عمل الروح القدس؟ إن الدراسة المدققة لصلوات الخولاجي سوف تكشف لنا أن الاستحقاق لتناول الجسد والدم، هو عمل الروح القدس الأساسي، فهو الذي يطهر القرابين ويصيرها قدسات للقديسين (صلاة استدعاء الروح القدس) ويجعل الواقفين - بعمله الخاص - قديسين مهيئين للحصول على نعمة الإفخارستيا.

من هنا يظهر لنا أن لقاء الكنيسة، هو لقاء قائم على هذه الدعامات الثلاثة. نحن لا نصبح واحداً فقط مع المسيح، ولكننا نصبح واحداً مع بعضنا البعض "اجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا أن نتناول من جسدك المقدس ودمك الكريم طهارة لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا - لكي نكون جسداً واحداً وروحاً واحداً معك".

وسر اتحاد المسيح بالكنيسة في الإفخارستيا، هو إنه اتحاد يكمله الروح القدس، ويعلن بشكل فائق محبة المسيح غير المحدودة، فهو لم يمت ولم يقُم لكي يظهر وحده، بل مات وقام لكي يتحد بغيره على النحو الذي أعلنه في العبارة السرية "الحق أقول لكم أن لم تمت حبة الحنطة فهي تبقى وحدها ولكن ان ماتت فهي تأتي بثمر كثير". (يو ١٢: ٢٤).

من هنا ندرك أن الذين ينكرون وجودنا في الإفخارستيا هم في الواقع ينكرون محبة المسيح، ولا يهدمون الإفخارستيا فقط، وإنما ينكرون رغبة المسيح في ان يكون فينا لكي نثمر لله.

كيف يعبر الطقس عن هذه الحقيقة؟

علينا أن نصحح خطأً قديماً ساد في أزمنة الضعف الروحي، وهو اعتبار الطقس علامات تذكرنا بالأمور الروحية، وكمثال لهذا الشرح الضعيف، الكلام عن

الشمعتين اللتين نضعهما على المذبح واللتين نصت على وجودهما القوانين الكنسية الخاصة بالقداس (قانون من قوانين البابا خرستوذولوس).

والشرح الضعيف يؤكد أن الشمعتين هما علامة لكي نتذكر وجود ملاكين في القبر. أما الأصل فهو أن الكنيسة هي بيت الملائكة وأن الملائكة هم أعضاء معنا في جسد المسيح الكنيسة. فالمسيح له ا د هو الرأس الذي جمع كل شيء في السماء وعلى الأرض (أفسس ١: ١٠)، والملائكة يرافقون الأحداث الهامة في حياة المسيح لأن هذه الأحداث الهامة تزمع أن تعلن الوحدة الروحية بين السماء والأرض، فهم في بيت لحم، وفي جثيماني، وفي القيامة. ولذلك فإن ظهورهم في مثل هذه المناسبات الهامة التي أسس الرب فيها جانباً أساسياً لخلاصنا، هو تأكيد على أن المصالحة قادمة وأن البشر سوف يرثون رتبة الملائكة لأ م في القيامة سيكونون مثل ملائكة الله في السماء لا يزوجون ولا يتزوجون. ومن هنا ندرك أن وجود الملائكة في الكنيسة روحياً في حضورهم واشتراكهم معنا في الصلاة، هو أمر مؤكد لأن الوحدة الروحية التي تجمعنا م هي وحدة المصير النهائي. ولذلك فإن عقيدتنا تعطي لنا هذه الخبرة الروحية التي نعبر عنها بوجود الشمعتين على المذبح. ولذلك فإن الفرق الضخم بين الشرح المتواتر عندنا وبين النظرة الأرثوذكسية السليمة، هو أننا إن تذكرنا معنى وجود الشمعتين فقد كسبنا فكرة، وان عجزنا عن أن نتذكر ضاعت الفكرة. بينما نحن في الأصل نتعامل مع الملائكة، ونتعامل مع القوات الروحية منذ معموديتنا لأننا نتصالح مع الملائكة في المعمودية، ويصبحون في حراستنا منذ أن نأخذ ختم الرب في المعمودية (راجع صلوات التعميد في الكنيسة القبطية). هنا نحن أمام الحقيقة الروحية التي تختبر، وأمام الواقع الجديد الذي نعيشه منذ معموديتنا، ولذلك فإن الشمعتين على المذبح ليستا علامة على حضور الملائكة، وإنما لأن الملائكة حاضرة أصبح وجود الشمعتين أساساً هو للدلالة على حقيقة الوحدة الروحية والمصالحة التي يعبر عنها النور.

من هذا الإطار ينبغي أن نعيد النظر في الشرح الذي تواتر عندنا، عن الطقوس ونستفيد من الخبرة الروحية التي أخذناها في المعمودية والتي يجب أن ترافقنا في حياتنا الروحية حتى لا نخسر النظرة الروحية، وتتحول العلامات إلى إرهاق وحمل ثقيل نحاول أن نجد له تفسيراً.

اختيار الحمل ووساطة المسيح

من بين عدد القربان الذي يقدم للكاهن، نختار قربانة واحدة. ودون أن ندخل في تفاصيل الشرح الرمزي لذبائح العهد القديم التي يرمز لها بالرقم ٥ ودون أن نرهق أنفسنا بما لدينا من شروحات، علينا أن نرى بساطة الطقس، فوجود أكثر من قربانه واختيار الأفضل - مع ملاحظة أن هذا الاختيار ترافقه الكلمات "الرب يختار له حملاً بلا عيب" - هو دليل على أن المسيح لا مثيل له، وعلى أن الوسيط واحد، وأن هذا هو ما تؤكده ترتيبات العهد القديم، فكل الذبائح وكل الرموز والإشارات القديمة لم تكن قادرة على أن تعطي لنا الوسيط الوحيد بين الله والناس.

ويؤكد هذا الطقس أن الذبيحة الوحيدة التي أكملت كل الذبائح وشرحت معناها، هي ذبيحة الصليب.

يقول الشعب أثناء اختيار الحمل "يا رب ارحم"، كما أن الرد على كل صلاة هو يا رب أرحم، ذلك لأن الرحمة هي أساس العهد الجديد، وهذه الرحمة ليست من حق الإنسان، بل هي عطية الله المجانية.

لقد ساد اتجاه روحي غير سليم مبني على أساس أن الإنسان له حقوق لدى الله، ولكن ما هي حقوق الإنسان - لا سيما إذا كان هذا الإنسان هو مجرد مخلوق يعتمد على عطية الله؟ ليس لنا حقوق، وعلينا أن نرى بكل وضوح أن هذه الكلمة، وكل ما تعنيه أو ما يراد منها لا وجود له في الكتاب المقدس. نحن نعود إلى الله مثل

الابن الضال الذي طلب أن يكون مثل الأجير. ونحن نعود إلى الله كذلك لأن هـذه العودة حقيقية، ولأ ا عودة إلى الوضع الحقيقي للإنسان الساقط. انه تعليم غير سـليم تماماً ذلك الذي يحاول أن يزرع في الإنسان البر الذاتي، وأن يصور له أن له حقوقـاً لدى الله يستطيع أن يطالب ا.

ما لدينا هو عطية الله، ولذلك نحن نقول "يا رب أرحم" عندما نطلـب أي شيء من الله. نحن نأخذ صورة العشار أيضاً الذي هو صورة الصلاة المقبولة، وهـي صورة الإنسان الذي يعرف أنه على يقين من الرحمة، لا سيما وأن هذه الرحمـة قـد أُعلنت لنا في المسيح يسوع. لذلك السبب وحده نقول "اللهم اجعلنا مـستحقين أن نقول بشكر: أبانا الذي في السموات" ونحن نقول ذلك لأننا نطلب عمـل الـروح القدس ليقول فينا "أبا أيها الآب" (غلاطية ٤: ٦). وقد قلنا من قبل إن الاسـتحقاق هو عمل الروح القدس، وطالما أن كل ما فينا هو عمل الله، علينا إذاً أن نكون علـى حذر من أن نعتبر أعمال الله تحت سيطرتنا، أو صارت حقوقاً لنا. هذا الاتجاه خطـير على الحياة الروحية لأنه يؤدي في النهاية إلى أن نقطع علاقة الإنسان بـالله، وبـذلك يفقد ليس فقط ما تخيله حقوقه، بل حياته بأسرها.

ومع بساطة هذا الطقس، وجماله علينا أن نحذر من أن نكون متـسرعين في الصلاة أو غير فاهمين أننا نعبر عن إيمان دقيق ووعي روحي بأن الوسيط يأخذ مكانـه بيننا، وان اختيار القربانة الواحدة، هو علامة على صدق إيمان الكنيسة بالواحد الوحيد ربنا يسوع المسيح.

هذا الإيمان الصحيح تعبر عنه كلمات الصلاة "سلاماً وبنياناً للكنيسة الواحدة الوحيدة المقدسة الجامعة الرسولية" وعلينا أن نرى أن الذي يعطي السلام والبنيان هو عمل المسيح، فهو الذي يبني الكنيسة من لحمه وعظامه.

وساطة المسيح ظهرت بشكل واضح منذ أن اعتمد من يوحنا المعمدان، ولذلك بعد أن يؤكد الكاهن نزول الابن من السماء عندما يرفع القربانة إلى فوق "هذا هو الخبز النازل من السماء الواهب الحياة للعالم" يعود ويمسح القربانة بالماء إشارة إلى معمودية الرب، وإلى بداية إعلان المسيح عن نفسه وسيطاً بين الله والناس.

بعد هذا تأخذ الكلمة الإلهية مجالها، ولذلك تغطى التقدمة باللفائف لأنها سر لا يمكن الوصول إليه إلا بالاستنارة بكلمة الله وبالتعليم.

وعندما تنتهي العظة يكون الاستعداد الروحي الداخلي قد تم لندخل إلى الصلاة.

واللفائف التي تغطي التقدمة، معروفة لنا من رسائل للقديس ايسيذوروس البيلوسي. وهنا لمحة هامة عن الاستعداد الصحيح الذي يرتبه القداس الإلهي، ذلك أن رفع اللفائف لا سيما الغطاء الذي يغطي التقدمة كلها (الابروسفارين) يتم بعد صلاة الصلح.

إن المسيح لا يعلن عن نفسه إلا للذين تصالحوا بقُبلة المحبة، ونحن لا نفهم سر المسيح طالما أننا لم نمارس الوحدة الروحية. ولذلك فإن صلاة الصلح هي مرحلة حرجة في صلاة القداس فهي تأتي بعد الكلمة الإلهية والعظة. لأننا بالكلمة نستعد لنصل إلى المصالحة، والى قُبلة المحبة والسلام، ولذلك علينا أن ندرك إن حركتنا نحو الله، ونحو إدراك السر الإلهي هي حركة أساسية من الله في الكلمة ومنا نحن في رغبتنا في المصالحة، والاتفاق بالرأي الواحد، ومحبة بعضنا البعض.

المصالحة في كتابات آباء الكنيسة ليست التنازل عن الخصومات، فهذا الجانب السلبي لا وجود له في المسيحية، وإنما المصالحة هي أن نحب بعضنا البعض لنكون جسداً واحداً وروحاً واحداً.

هذا الجانب أساسي لتوبتنا، وهو قائم على عقيدتنا؛ فلقد قام المسيح ولذلك نصالح بعضنا البعض.

والجانب الرمزي هنا أساسي أيضاً، الشماس يمسك الصليب والكاهن يرفع اللفافة على شكل مثلث، وهي ترمز إلى أختام القبر. وتوجد وثائق قديمة تؤكد وجود هذه الممارسة في القرن الخامس وإن هذا هو طقس الإسكندرية.

الرمز هنا يؤكد أن قيامة المسيح هي أساس مصالحتنا وأساس قبلة السلام. ويمكن لمن يشاء أن يعود إلى عظات الآباء في القرون الرابع والخامس والسادس، والتي قيلت في عيد القيامة، ليجد أن قيامة المسيح هي أساس المصالحة. لقد قام المسيح، ولذلك فلنحب بعضنا البعض ولنسامح بعضنا البعض.

القيامة تطهر قلوبنا من ثمار الموت، وعندما تنهض الحياة من القبر نستطيع أن نمد يد مصافحة حقيقية. لقد دخل الموت وسكن في الإنسان مثل المرض يفتك به والإنسان المريض لا يشعر بالصحة، بل بالألم، وآلام الموت هي الخوف من الآخرين، هي الحسد والكراهية. الموت يزرع فينا ذلك الاهتمام غير العادي بالحياة، وهذا بدوره يعلمنا ان نقتني أكثر، وأن نتكلم أكثر، وهذا يدفعنا إلى المبالغة حتى في الغضب لأن حياتنا في خطر، ولذلك علينا أن ندافع عنها.

وصلاة الصلح تؤكد هذا الجانب، لقد كان حسد إبليس هو الذي دفع الشيطان إلى كراهية الإنسان، ولذلك نحن لا نصافح بعضنا البعض دون الإشارة إلى أساس الموت والسقوط. وهنا طريق الحياة القائم على المحبة والاتحاد، والذي غرسه المسيح فينا. ليس كطريق الموت الذي غرسه الشيطان القائم على الحسد والكراهية.

الكنيسة الواحدة المتصالحة تستعد لقبول سر المسيح، وبعد أن أخذنا جرعة الحياة بالقيامة كيف لا تكون قد صرنا مستعدين لقبول سر الله في المسيح يسوع. نحن ندرك في الشركة والمصالحة فقط، أن المسيح فينا، وكلمات الرسول تأتي بشكل مباشر

"ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم وأنتم متأصلون ومتأسسون في المحبة حتى تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين ما هو العرض والطول والعمق والعلو. وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله" (أفسس ٣: ١٧ - ١٩). وهذا هو اختبار الإيمان الصحيح.

لقد دخل الموت إلى العالم بحسد الشيطان، ومع الموت الكراهية، وهما لا يمكن فصلهما مطلقاً، ولكن بقوة القيامة صارت لنا هبة الحياة ا انية، وهو ما يعلنه الرمز بقوة وما يعلنه نداء الشماس الذي يرفع علامة الصليب وينادي الشعب "قبلوا بعضكم بعضاً بقبلة مقدسة" لقد أشرقت الحياة ولذلك نحن نحيي كلٌ الآخر بقُبلة المسيح، والقبلة هنا هي ممارسة الإيمان، وهذا ما ندركه من كلام الرسول. عندما يحل المسيح فينا ننمو في السلام والمحبة، وعندما ننمو في السلام والمحبة نستطيع أن ندرك معاً عمق محبة الله، ونستطيع أن نختبر محبة المسيح.

لاهوتياً، نحن لا نضع خطوة قبل خطوة، وإنما نحن نمارس، وكل ما نمارسه يثبت فينا، ويقود حياتنا إلى المسيح. وعلينا أن ندرك هذا الجانب، فهو جوهري في لاهوت الكنيسة الشرقية. نحن في زمان الحياة، لقد قام المسيح، والإفخارستيا تتم في الكنيسة بعد القيامة، ولهذا فإن القيامة تحدث على مستوى الطقس، وعلى مستوى الممارسة.. على مستوى الطقس عندما نرفع لفائف الذبيحة، وعلى مستوى الممارسة عندما نقبل بعضنا البعض. وما نتممه طقسياً، وما نمارسه عملياً، هو ما نتذوقه في الإفخارستيا.

هكذا يبدو القداس وحدة واحدة، وقد يتقدم جانب ويسبق جانباً آخر مثل الكلام عن القيامة قبل أن نتكلم عن السر. ولكن الوحدة وجوهرها هي التي تسمح لنا بأن نؤخر جانباً ونقدم جانباً. والمثال الصحيح هو الثالوث نفسه، الذي تسمح لنا وحدته فقط أن نتكلم عن الابن قبل الآب، لأنه مع وحدة الجوهر، لا أهمية بالمرة لقبل

أو بعد، فليس لقبل أو بعد أي مكان، على نفس القياس، نرى ممارسة الكنيسة "مقدمين بعضكم بعضاً في الكرامة" لأن الكنيسة جسد واحد، ولذلك لا يوجد قبل أو بعد. لنا حياة واحدة ونحن أعضاء في الجسد الواحد، ولذلك الذي يسبق لا يصبح أفضل، والذي يتقدم لا يأخذ أكثر لأن ينبوع الحياة الواحد، المسيح الحي، هو لنا جميعاً. وطالما أن حياتنا واحدة أي المسيح، فمن هو قبل أو بعد؟ لا أحد. إن الوحدة هنا تنطبق أيضاً على بناء القداس: فالمسيح واحد، ولذلك فإن حياته توزع علينا، لا يهم متى نتكلم عن القيامة، ولا يهم متى نضع الكلام عن الروح القدس، لكن يهم جداً في التوبة إدراك أن الإيمان يسبق كل شيء "بدون الإيمان لا يمكن إرضاؤه". ونحتاج أن ندرك أننا قبل أن نتقرب من الإفخارستيا فإننا نقترب من السلام والمصالحة لأن المسيح عندما يريد أن يوزع حياته على جسده الكنيسة، لا يوزعها لكي ينقسم هذا الجسد، ولا يوزعها على جسد منقسم يعاني من الانقسام أو الانفصال، فهو المسيح الواحد الذي جاء لكي يجمع الكل في الواحد أي فيه هو. فإذا كانت الكنيسة تعاند وترفض أن تكون في السلام والاتفاق فكيف تستطيع أن تصبح في الواحد يسوع المسيح.

لذلك فإن القيامة في الصلح، والقيامة في الكلام عن السر، والقيامة في ايـة القداس أيضاً. ونفس الكلام يقال أيضاً عن التجسد، فالمسيح لم يتجسد في بيت لحم، وبعد ذلك تخلى عن الجسد. بل ولد بالجسد في بيت لحم، وتقيم كل كنيسة "بيت لحم" فيها أي بيت القربان لأن تجسد المسيح حقيقة دائمة.

لقد عثر الغربيون وأخطأوا في فهم لاهوت الكنيسة الشرقية، واعتبروا أن هذه الكنيسة تقيم لاهو ا على التجسد، وأن الصليب له مكان صغير. وعثرة الغربيين ظاهرة لأ م أخطأوا في إدراك حقيقة المسيح الواحد الذي يجوز لنا بسبب كونه واحداً، أن نتكلم عن أي حدث من أحداث الخلاص، وأن نعطي له اهتماماً معيناً لأن

هذا الاهتمام في النهاية سيقود إلى الأحداث الأخرى، ولعل أفضل ما عندنا هو صلاة القسمة في القداس الغريغوري "... الذي من قبل تجسدك أعددت لنا خبـزاً سمائيـاً ومزجت لنا كأساً من كرمة حقيقية، التي هي جنبك الإلهي غير الدنس هذا الذي من بعد أن أسلمت الروح فاض لنا منه ماء ودم هذان اللذان صارا طهراً لكـل العـالم" والذي يفشل في إدراك أن المسيح واحد - هذا وحده لا يـستطيع أن يقبـل هـذه الكلمات. لقد ربطت الصلاة الخبز بالتجسد، والكأس بموت المسيح على الـصليب. وحقاً عبرت هذه الصلاة عن تقوى الكنيسة الشرقية وقو ا بتأكيد أن المسيح واحد. ولذلك فإن الأحداث الأساسية كلها تتجمع في الأسرار، والترتيب لا يهم لأن المسيح الواحد لا يمكن ترتيبه وفق أي تصور فكري لاسيما التصور الذي لا يرى وحدة عمل المسيح - ذلك العمل الذي بدأ منذ اتحاد اللاهوت بالناسوت في أحشاء العذراء مريم. وكَملَ بالصعود، وحلول الروح القدس.

والذين لا يفهمون وحدة عمل المسيح يسألون: كيف يعطي المسيح جـسده قبل أن يصلب أو وهو جالس في وسط التلاميذ... ؟ كل هذه الأسئلة لا مجال لها إذا كان لنا إيمان بالمسيح الواحد الذي رتب خلاص الإنسان بالاتحـاد بـين اللاهـوت والناسوت بالميلاد من العذراء، وبالمعمودية من يوحنا، وبالصليب وبالقيامة وبالصعود إلى السموات... كل أحداث الخلاص هذه لا يمكن إدراكها إلا إذا تذكرنا دائمـاً ان المسيح هو هو وأننا لا نحتفل بما حدث له، بل به هو ذاته. لقد جاء إلينا لكي يهبنـا حياته، وحياته الإلهية لا يمكن أن تصل إلينا إلا عن طريق الناسوت. فلاهوتـه لـيس عنصراً مشتركاً بيننا وبينه، بل العكس صحيح، فلاهوته غريب عنا ولا ينتمي إلى عالمنا الإنساني، فهو من جوهر الآب الذي هو فوق الإدراك والشعور. ولذلك تجسد، وأخذ ذلك العنصر المشترك الذي بيننا وبينه، وجعل هذا العنصر أي الناسوت، ا ال الـذي يعلن فيه محبته لنا. فالاتحاد بالناسوت كان قبولاً للإنسان كما هو، كان أشبه بمن يأخذ

العجينة، ثم جاءت المعمودية في الأردن ومسح الناسوت، فدخلت تلك العجينة النار، وظلت في النار - لا سيما - نار الصليب حتى تحولت إلى خبز، إ ـا هـي بـذا ا العجينة. لم تعد ذلك القوام الرخو، بل صارت في صلابة عدم الموت بالقيامة وها هو يقدم لنا ذاته بالروح القدس في الإفخارستيا.

علينا أن نسأل الذين يحاربون صلوات الكنيسة وقداسها لماذا تقرأون الإنجيـل ولماذا تعودون إلى حياة الرب قبل الصليب؟ إذا كان الصليب هو أهم ما عندكم فلماذا تقرأون عن أمور تبدو بكل وضوح أ ا ليست مرتبطة بالصليب مثل إشباع الخمـسة آلاف، أو سير الرب على المياه، أو معجزات الرب الأخرى، أو العظة على الجبـل؟.. حقاً كل هذه تبدو قطعاً متناثرة إذا أخذناها بمعزل عن شخص الرب الذي هو واهب الحياة، والذي يعطي ذاته لنا، ولذلك وفي ضوء هذه العطية الفائقة، يكتسب كل قول وكل فعل الجانب الحقيقي الذي يخصنا. فإذا قرأنا عن إقامة لعازر، أدركنا أننا نقرأ عن الذي أقام طبيعتنا الميتة، وإذا قرأنا عن إشباع الآلاف أدركنا أننا نقرأ عن الذي يهب حتى جسده. فيكف نرى هذه الأمور دون أن نرى شخص المسيح نفسه...

الجسد الواحد والقربانة كخلاصة الخبرة الروحية القبطية

لكل كنيسة طريقة معينة في تقديم الإفخارستيا، ولذلك لا يوجد شكل عـام للخبز الذي يقدم على المذبح، ويختلف الشكل من البرشام اللاتيني الذي لا شكل لـه سوى الاستدارة، إلى خبز الإفخارستيا المملوء بالرموز في كنيستنا القبطية.

وحتى عند الكنائس الأرثوذكسية التي تشترك معنا في الإيمان مثـل الكنيـسة السريانية والأرمينية، هؤلاء يحتفلون بالقداس حسب طقسهم.

هل من الممكن أن نستخدم رغيف بلدي أو فينو في الإفخارستيا؟ والرد طبعاً ممكن، ولكن السؤال الهام لماذا الرغيف البلدي أو الفينو؟ لقد أرتبط الخبـز بالمـسيح

وصارت كلمة "خبز" = "حياة" = "المسيح". هذا هو مجمل كلمات الحديث الطويل في يوحنا ص ٦ بعد معجزة إشباع الآلاف. المسيح هو خبز الحياة، هذه الحقيقة الفائقة هي جوهر الإفخارستيا، ولذلك فإن آداب الاشتراك في الوليمة، هي أن يعبر الخبز نفسه عن حقائق السر. ولذلك فإن شكل القربانة يمثل الكنيسة الواحدة مع المسيح.

المسيح في الوسط، ثم اثنا عشر صليباً، يمثلون الرسل، ثم دائرة تحيط بالرسل تمثل الكنيسة، الكائنة من أقاصي المسكونة إلى أقاصيها.

المربع الذي يتوسط القربانة، يسمى "الاسباديقون" وهو اسم جاء من كلمة يونانية تعني الخاص بالسيد، أي المسيح. ويسمى أيضاً حجر الزاوية، والذين يعرفون هندسة المباني في فلسطين، يدركون أن حجر الزاوية هو الذي يتوسط القبة، ويقفلها، وهو على شكل صليب... وهنا يتم القول الرسولي "مبنيين على أساس الرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية، الذي فيه كل البناء مركباً معاً ينمو هيكلاً مقدساً في الرب، الذي فيه أنتم أيضاً مبنيون معاً مسكناً لله في الروح القدس" (أفسس ٢: ٢٠ - ٢٢).

هنا تلخص القربانة، كل القداس. فيسوع الرب الذي هو حجر زاوية الكنيسة يجعل الكنيسة جسده، ويجمع المؤمنين به حوله ابتداء من الرسل إلى الشعب، إلى كل الكنيسة الجامعة.

وحسب خولاجي العالم الجليل القمص/ عبد المسيح المسعودي، فإن القسمة التي استقرت في الكنيسة، هي تقسيم الجسد كله من فوق ويظل واحداً من أسفل. وهكذا تظهر أعضاء المسيح، أي الكنيسة في الجسد، ويظل الجسد واحداً.

هنا ندرك أن قوة السر الكامنة تظهر واضحة جداً في القربانة نفسها، التي سوف نتكلم عن تقسيمها حينما يحين الكلام عن القسمة.

وبشكل عام يصبح صليب الرب ممتداً عبر كل القربانة، دليل الاتحاد بالمسيح في صليبه وموته (راجع الرسم).



الفصل الخامس

هذا اصنعوه لذكري

تمهيد:

لو أن شرحاً لهذه العبارة كُتب في القرن الثاني عشر، وفي الغـرب بالـذات، لجاءَ الكلام مطابقاً لمعناه، وربما في مفرداته لما كُتب في الشرق، في نفس القرن. ولكن الجدل في الغرب بعد القرن الثاني عشر وما تولد عنه من انقسامات جاءت قمتـها في القرن السادس عشر، أو ما يعرف بحركة الإصلاح البروتستانتية، جعل الكـلام عـن الإفخارستيا معقداً صعباً تحوط به أشواك الهرطقة من كل جانب.

المأساة أصلها في أن الإنسان لا يرضى بالسر "*Mystery*" ولا يقبل أن يسلم حياته إلا لما هو معروف وواضح. فقد لوثت الخطية الفكر، وجعلت الخطية الاعتماد على الذات، هو أحد ما يحرص عليه الإنسان. وخلَق الموت في الإنسان رغبة عارمـة في التأكد من أصل حياته وكيانه، وفي البحث داخل فكره وحياته عن معنى وجـوده وغايته، وبالتالي الاستغناء المطلق عن الله إذا استطاع لذلك سبيلاً.

ولكن الخلاص كما نعرف، هو في جوهره؛ الاشتراك في حياة الله، هو عودة إلى الله عن طريق جحد الذات والاستغناء عن الوجود الخاص الذي يعتمد على الفكر والعواطف والخيالات أي إلى الوجود الذي يستمد حركاته وحياته من الله.

ومما لا شك فيه إن الإنجيل ليس طريقاً معارضاً لطريق الخطية فقط، بل هـو إصلاح الخطأ وإعادة الإنسان إلى الشركة.

ومن هنا ندرك أن الأسرار، ولا سيما الأسرار الكنسية مضادة تماماً لطبيعة الخطية. وعقل الخطية لا يقبل الأسرار لأنها ليست فكرة يعقلها الإنسان ويدركها ويحيط بها. الأسرار لا تتمشى مطلقاً مع الاعتماد على الذات الذي ولد وتربى في قلب الإنسان منذ السقوط.

والأسرار تتطلب عدم الاعتماد على الحواس. والاعتماد على الحواس، هو قاعدة المعرفة عند الإنسان الساقط، الذي لا يقبل إلا المعرفة التي يمكن أن تمتحن في المعامل وبأداة القياس الحسي. المعرفة التي كان يسميها الإنسان إلى عهد قريب المعرفة الكاملة أو اليقينية لأنها المعرفة التي يمكن البرهنة على صحتها واختبارها، وهو أمر لا يمكن مطلقاً أن يتم بالنسبة لما يسمى بالمعرفة النظرية مثل الإيمان بالله، أو بوجود النفس، أو خلود الروح، أو الحياة بعد الموت.

كل هذه تسمى قضايا نظرية، بمعنى أنها لا تنظر ولا ترى ولا يمكن إثباتها. وكانت الإنسانية تعتمد بشكل مباشر على الفلسفة اليونانية، وكانت الفلسفة اليونانية (لا سيما أرسطو وأفلاطون) تؤمن بوجود كامل للحياة الفكرية والروحية، وتعد الحياة المادية أو المنظورة مجرد ظلال، وخرافة الكهف عند أفلاطون بشكل خاص تفترض أن سكان الكهف أي البشر في هذه الحياة الدنيوية لا يعرفون حياةً خارج الكهف، ولكنهم على أساس الضوء القليل الخافت الذي يدخل من فتحة الكهف يدركون من الظلال شيئاً عما حولهم. أي إن الوجود الروحي أسمى وأعظم، وأكثر يقيناً.

ولكن لما جاءت الفلسفة الأوروبية في عصر النهضة بكل ما هو معارض للفلسفة اليونانية اهتز العقل البشري واختلت مقاييسه. وجاءت الزلزلة عندما ركلت أوروبا كل ما وصلت إليه الفلسفة اليونانية. طبعاً هذه قصة طويلة يجب أن تدرس في تاريخ الكنيسة في أوروبا، وهو موضوع لم يدرس بعد في مصر. والمراجع العربية القديمة والجديدة لا قيمة تاريخية أو لاهوتية لها، لأنها في الواقع لا تتناول التعارض الذي

حدث منذ القرن الخامس عشر والذي وصل إلى ذروته بعد ذلك لا سـيما بظهـور العلوم التجريبية وميلاد الفلسفة الحديثة.

هذا التعارض أصلاً هو تعارض بين مدرستين، كل منهما تـصل إلى غايـة مختلفة. ذلك أن المدرسة القديمة اليونانية تعتبر أن الوصول إلى الحق أو إلى الله هو غاية الإنسان العظمى بينما تعتبر المدرسة الأوروبية الحديثة عدة أهداف ليس الله هو غايتها، وإنما الإنسان أو الكون. ولسنا في مجال تفضيل مدرسة على مدرسة أو التحيز لمنـهج يسلك بالإنسان إلى الروح وآخر يضع اكتشاف الإنسان والمادة غايته الأولى والأخيرة.

وكل ما نرجو أن يكون واضحاً هو أن حركة الإصـلاح واكبـت مـيلاد الفلسفة الأوروبية وتأثرت بما ساد أوربا من أفكار واتجاهـات إنـسانية واجتماعيـة وفلسفية. وجاءت حركة الإصلاح ثمرة لحركة النهضة الأوروبية، وأخذت منها الكثير وعاشت على ثمار الأفكار الأوربية في تلك الفترة، فجاء اللاهوت البروتستانتي عقلانياً شديد الولاء للمنهج التجريبي وللفلسفة الحديثة. وقد اكتشف البروتـستانت هـذه الحقيقة بعد ٤٠٠ سنة من البحث (راجع كتاب العالم البروتستانتي "إميل برونر *Emil Brunner*" بعنوان الوسيط "*The Mediator*" وهو دراسة عن صلة اللاهـوت البروتستانتي بالفلسفة، وأثر الفلسفة في صياغة العديد من النظريات اللاهوتية الغربيـة بعد القرن الخامس عشر.

ومما لا جدل عليه الآن وبعد مرور ٤٠٠ سنة من الحوار العنيف تارة والعلمي تارة أخرى أن حضور المسيح في الإفخارستيا هو حقيقة لا تقبل الجدل، وإنما الجـدل حول تفسير هذا الحضور. وطبعاً تفسير حضور المسيح في الإفخارستيا لـيس قـضية فلسفية، ذلك أن العلاقات بين البشر، أو بين البشر والله هو موضوع يمكن أن يعـالج من عدة زوايا منها الفلسفة وعلم النفس، ولكن علاقتنا بالمسيح هي علاقـة سـرية، تفهم في إطار اللاهوت فقط، ولا يمكن أن تفسر بشكل فلسفي، وهذه هي مـشكلة

الجدل حول الإفخارستيا في الأربعمائة سنة الأخيرة، ففي كل مرة يحاول الدارسون الوصول إلى السر يلجأون إلى تحديد السر وصياغته بشكل معقول ومفهوم فيفقد السر مكانته ويتحول إلى قضية فلسفية.

لذلك علينا قبل الدخول في أي حوار حول معنى الكلمات "هذا اصنعوه لذكري" أن نتأكد من الفلسفة التي يتبناها المحاور، لأن اكتشاف الأصل الفلسفي لأي جدل يؤدي دائماً إلى سرعة الاتفاق.

ولعلنا الآن في موقف أفضل بكثير مما كنا عليه في المائة سنة الأخيرة، فقد ظهرت القواميس اليونانية التي حددت بشكل موضوعي معاني الكلمات اليونانية في العهد الجديد، ثم الكلمات اليونانية عند الآباء، وبالتالي لم يعد الحوار اللاهوتي يسير في طريق واحد غير واضح المعالم، بل أصبح تحديد الاتجاه وحصره ممكناً، لأننا لم نعد نستخدم كلمات يمكن لمن يشاء أن يفسرها كما يريد، بل أصبح التفسير العلمي غير المذهبي، هو الطابع الذي كاد يسود الآن في عصر القواميس. وظهر في الغرب عند الكاثوليك والبروتستانت ما يعرف الآن باسم "*Biblical Theology*" أي "لاهوت الكتاب المقدس" وهو محاولة جادة للتخلص من التراكمات التي أصبح من العسير التخلص منها إلاّ بالعودة إلى الكتاب المقدس مباشرة، لكي يمكن إدراك ما يقوله الكتاب المقدس، ومعرفة ما قد تطور من مصطلحات بعد ذلك.

في هذا الإطار نقول لكل الدارسين في مصر، إن التغيير الذي تم في البروتستانتية بشكل خاص، يجب أن يمتد إلى البروتستانتية في مصر، لكي يتقدم الحوار. والأساس الفلسفي للبروتستانتية في مصر، هو أساس أوروبي، ووليد فلسفة القرن الثامن عشر، وإذا ساعدنا إخوتنا البروتستانت في اكتشاف هذه الحقيقة فإن الاتفاق حول الإفخارستيا سهل وميسور.

العهد والذكرى

المسيح حاضر وليس بغائب:

إذا تصورنا أن المسيح غائب عن الكنيسة وأنه لا يحضر عندنا إلا في القداسات فقط، وتصورنا أنه لا توجد علاقة بيننا وبينه إلا في صلاة القداس فقط، فهذا التصور نابع بشكل خاص من الجهل بما تعنيه الكنيسة وما حققه التجسد.

وفي الحقيقة إن كل الذين يحاولون أن يفسروا "هذا اصنعوه لذكري" على أنها حفلة تذكارية رمزية مثل عيد ميلاد أو ذكرى وطنية.. إلخ. إنما يعبرون عن عدم فهم لما حققه المسيح بالنسبة للإنسانية، فقد جمع أبناء الله معاً في "الجسد الواحد" أي جسده، وذلك لم يعد يوجد بعد التجسد ما يفصل بين الله والإنسان ولم يعد حضور الله حضوراً رمزياً أو مجرد ظهور مثل ظهورات العهد القديم بل حضوراً حقيقياً في الإنسانية التي اتخذ منها جسداً. وعبارة "وسكن بيننا" (يوحنا ١: ١٤)، لا تعني السكنى المؤقتة، بل الدوام. فهذا هو معنى التجسد.

والذين يكابرون في حضور المسيح السري في الإفخارستيا، إنما يجهلون حقيقة علاقته بالكنيسة، فقد صار "بكراً بين أخوة كثيرين" (رومية ٨: ٢٩). ولم يكن صعوده يعني انه اختفى من حياة الكنيسة وصار بعيداً عنها، فهذا يتعارض بشكل واضح مع كل ما يصرح به العهد الجديد عن الحياة "في المسيح" بل ومع اختبار المعمودية التي نصلب ونموت وندفن فيها "مع المسيح" (رومية ٦: ٤).

وقد أثار الغرب عاصفة من النقاش حول علاقة الكنيسة بالمسيح. ومنذ أن كتب "*Deismann*" كتابه المشهور عن القديس بولس، والنقاش لم يهدأ ولا سيما بعد أن دخل الكاثوليك الميدان محاولين بدورهم شرح عبارات مثل "في المسيح" أو "المسيح فينا" وعودة الغرب إلى "تذوق السر *Mystery*" وقد أحصى "*Deismann*" في مقالته المشهورة التي نشرها عام ١٨٩٢ وموضوعها "في المسيح" أن حرف الجر "في" "*in*" استخدم ١٦٤ مرة في رسائل بولس للدلالة على الاتحاد السري بالمسيح. وعلى الرغم من أن ديسمان كان يمثل تطوراً في اللاهوت البروتستانتي، إلا ان الهجوم المضاد الذي قاده بروتستانت آخرون، كان يؤذن بتطور في الفكر اللاهوتي الغربي ومحاولة كسر حدة الاتجاه العقلي. وهو ما تحقق في الواقع بعد ذلك.

لقد أدرك الغرب، أن التجسد هو حضور دائم للمسيح، في حياة الكنيسة وفي الإفخارستيا، ولذلك استدعى هذا الإدراك إعادة النظر في معاني الكلمات: "هذا اصنعوه لذكري".

في مصر كان النقاش عندنا لا يدور بطريقة لاهوتية أكاديمية، بل بالعواطف والشعور، وأنتم تعلمون جميعاً ما قيل وما قد يقال في المستقبل حول كتاب "الكنيسة الخالدة" وكتاب "العنصرة" [1] وكلاهما محاولة لشرح الكنيسة، وليس هذا مجال الحديث عن الخطأ والصواب أو الدفاع والهجوم، ذلك أنني أتصور النقاش الذي حدث عندنا في العشرين سنة الأخيرة على أنه تعبير واضح عن عدم استيعاب معنى الكنيسة كجسد واحد.

وهذه الحقيقة هي أيضاً بدورها وراء النقاش حول حلول الروح القدس أبالمواهب أم بالأقنوم؟ وهو سؤال لم يطرح في عصر الآباء لسبب واحد هو أن الآباء كانوا يدركون سر الكنيسة. وهكذا علينا أن نتصور الآن ما يدور عندنا من نقاش لا

---

(1) للقمص متى المسكين.

سيما تحت تأثير الكتب البروتستانتية العربية التي لم تستفد من التطور العالمي الذي حدث في اللاهوت البروتستانتي.

وينحصر الفهم السائد لماهية الكنيسة في تصورين

التصور الأول:

وهو نابع من الفلسفة وعلوم الاجتماع التي سادت أوروبا بعد القرن السادس عشر، وقوامه أن الكنيسة جماعة بشرية تجمعها وحدة الهدف، وينظمها القانون والحياة الاجتماعية، ويربط بين هذه الجماعة العواطف والصلوات والاحتياجات الروحية وغيرها من احتياجات مادية أو سياسية... الخ.

طبعاً في هذا المجال الفكري لا مجال مطلقاً للحديث عن الإفخارستيا كسر لحضور المسيح في وسط جماعة لا يربط بينها أي رباط الهي. الكنيسة هنا أشبه ما تكون بناد رياضي أو مؤسسة اجتماعية لا تقوم العلاقات فيها إلا على ما يوجد في العقل والقلب من عواطف وأفكار واحتياجات. وعندما تعيش الجماعة في هذا الإطار، لا يمكن أن يولد منها لاهوت حقيقي للأسرار، بل تصبح الكنيسة هي ما تحققه في المجالات الاجتماعية والإنسانية.

ولعلنا نذكر هنا أن أول ما فعلته الكنائس البروتستانتية في القرن السادس عشر هو إلغاء العشاء الرباني الأسبوعي وهو أحد أركان خدمة يوم الرب (الأحد) الأساسية والاكتفاء بالكلمة أي الوعظ والصلاة. كان الدافع الأساسي لهذا هو معارضة الكنيسة الكاثوليكية، ولكن هذه المعارضة، تحولت إلى لاهوت.

في مثل هذه الأجواء، حيث لا يتم العشاء الرباني سوى مرة واحدة في السنة أو الشهر، لا يمثل الخبز والخمر سوى ذكرى ما فعله يسوع ليلة آلامه ولا يكون يسوع حاضراً إلا بقدر ما يعبر في عقل الجماعة من أفكار ومشاعر. وفي مثل هذه

الأجواء يظهر تفسير كسر الخبز وشرب الكأس، على أنه مجرد وليمة تذكارية لأمر فعله يسوع وأمر الكنيسة أن تفعله.

وقد أدرك بعض اللاهوتيين المعاصرين أن فكرة صعود المسيح في الغرب ارتبطت بالعلوم وليس باللاهوت. فالسماء هي الطابق الثالث في بناية الكون الذي يقوم على السماء - الأرض - الجحيم، وكل طابق منفصل عن الآخر، ولا يوجد حتى سلم. ولما صعد المسيح، ترك الكنيسة وصار مجرد فكرة. ولكن عندما تغيرت نظرة العلوم إلى الكون، عاد الغرب إلى العقيدة الشرقية، وهي أن السماء حضور الله، وليست مكاناً منفصلاً عن الأرض.

التصور الثاني:

هو إدراك أن الكنيسة سر. وأن الذي يجمع الأعضاء معاً هو المسيح رأس الكنيسة، وبالتالي فالرابطة ليست إنسانية نابعة من الأعضاء بل نابعة من المسيح نفسه الذي يخلق الحياة الجديدة في كل عضو ويغذيها دائماً بما لديه من قوة. وبالتالي فإن المسيح حاضر بشكل دائم، ويتجلى بشكل خاص في القداس حيث يجمع كل الأعضاء لكي يكون كل عضو حياً "فيه"، ومتحداً بغيره من الأعضاء.

هنا الكنيسة ليست جماعة بشرية رغم أنها تبدو كذلك لمن يراها من الخارج، وإنما هي جسد واحد. وفي هذه الأجواء لا تعني عبارة "هذا اصنعوه لذكري" مجرد ذكرى حدث انتهى وغاب، بل تصبح الذكرى هي الحديث المباشر مع المسيح نفسه عما صنعه لأجلنا، وما هو حاضر فعلاً. ومن منا لا يرى في الإفخارستيا ذلك الجسد الذي يكسر طالما أن رأس الجسد بيننا يظهر لنا ذاته بشكل واضح جلي...

المسيح حاضر ومعه كل الأحداث التي حدثت له لا سيما الصليب والقيامة فهو بيننا، وهذه الأحداث حدثت لأجلنا، لأنه لم يكن يريد أن يظل وحده مثل حبة الحنطة التي تظل وحدها حتى تقع في الطين وتموت ومتى ماتت تأتي بثمر كثير (يوحنا

١٢: ٢٤). ولقد اشتاق ان يجمع هذا الثمر "ها أنا والأولاد الذين أعطاهم إياي الرب" (عب ٢: ١٣) وعندما يجلس في وسطنا فهو يوزع علينا حياته لأنه منذ الأزل يفكر فينا ويشتهي أن يعطينا ذاته في الإفخارستيا ويظهر لنا جروحه وقيامته في آن واحد.

أول أركان العهد... الله يعلن عن نفسه

العهد مرتبط أصلاً بالسقوط. ولولا سقوط الإنسان ما عرفنا كلمة "إعلان" أو فعل "يعلن" أو "يظهر"، لأن السقوط حجب الله عن الإنسان. وصار الحجاب على قلب الإنسان وفكره. ولولا السقوط أيضاً ما ظهرت كلمة "غير المنظور" كوصف لله.. فالقداس الغريغوري بالذات يصف الله بأنه "غير المرئي، غير المحوى، غير المبتدئ..."، لأن كل هذه الأوصاف هي في الواقع نفي للمعرفة الفاسدة التي ورثها الإنسان من الوثنية.

لكن في الأصل الله منظور ومعروف، وفي الأصل الله نور يعلن عن نفسه. أما بعد السقوط، وبعد أن فسدت مخيلة الإنسان وقدرته على الرؤيا، صارت أوصاف الله والكلمات التي تعبر عنه مرتبطة بشكل واضح بالعلاقة الجديدة التي نشأت بين المخلوق الأعمى والخالق.

في العهد القديم الله يعلن عن نفسه، وهذا هو أول أركان العهد. ذلك أنه عندما بدأ يدعو الإنسان إلى شركة معه، كان يدعوه بشكل خاص إلى ان يعرفه. وهكذا دعى الله إبراهيم أب الآباء. ولم يكن العهد هو بركة، بل كان العهد أولاً أن يعرف الله "وظهر الرب لإبرام.. فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له" (تكوين ١٢: ٧).

وظهور الله هو أمر أساسي، فهو يعلن عن ذاته، وها هو يقول "أليس أنا الذي تجليت لبيت أبيك وهم في مصر في بيت فرعون" (١ صموئيل ٢: ٢٧) ودخلت تلك

الكلمة الهامة في لغة الأنبياء "قد شمر الرب عن ذراع قدسه أمام عيون كل الأمم فترى كل أطراف الأرض خلاص إلهنا" (أشعياء ٥٢: ١٠ - ٥٣: ١)، وكل أعمال الله القوية لم تكن مجرد معجزات أو أعمال يبهر ا أبصار الإنسان. لقد كانت كلها إعلانات إلهية عن رحمته "لأنه قريب مجيء خلاصي واستعلان بري" (أشعياء ٥٦: ١) وليست هذه صياغتنا بل صياغة المزمور "رنموا للرب ترنيمة جديدة لأنه صنع عجائب. خلّصته يمينه وذراع قدسه. أعلن الرب خلاصه. لعيون الأمم كشف بره" (مزمور ٩٨: ١ - ٢). هذه هي غاية الوحي وغاية العهد القديم والجديد معاً.

فالله لا يترك الإنسان في ظلمات الجهل. حقيقي إنه يعلن كلمته للإنسان ويكشف عن الوصية (عاموس ٣: ٧). ولكنه قبل الناموس وقبل نزول الشريعة كان الإعلان عن الله: "ثم كلم الله موسى وقال له أنا الرب. وأنا ظهرت لإبراهيم واسحق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء.." (خروج ٦: ٢-٣). ولذلك كانت القضية الأساسية في العهد القديم، والتي تجعل العهد القديم يفوق بكثير الديانات الوثنية بل والديانات غير الوثنية أيضاً، هي أن الله يعلن عن نفسه.

هذا الإعلان ليس هو الشريعة، بل هو إعلان عن شخص الله. وحتى بعد نزول الشريعة على جبل سيناء لم يتوقف الله عن الإعلان عن نفسه، وما كتابات الأنبياء إلا هذه الإعلانات، إما بظهورات مباشرة أو بأعمال الخلاص التي تؤكد أن الرب حاضر "*Present*" أو حسب التعبير العبراني والعربي "الله سار ليفتدي شعبه" (٢ صموئيل ٧: ٢٣).

وحتى يوم الدينونة هو يوم إعلان وظهور للرب (يوئيل ٢: ١٠ - ٣: ٢-٤) وعلى أساس إعلان الله لنفسه وإظهار شخصه قامت العبادة في العهد القديم، وعلينا أن نتذكر أن كل الأعياد لا سيما عيد الفصح هو عيد لظهور عمل الله الخارق، وهو عيد

إعلان قوة الله (راجع خروج ص ١٢) ويقول الرب "أذكروا هذا اليوم الذي فيه خرجتم من مصر من بيت العبودية فإنه بيد قوية أخرجكم الرب.." (خروج ١٣: ٣).

ولذلك فمن الأخطاء القاتلة للحياة الروحية أن يتصور إنسان أننا نعبد إلهاً مجهولاً، أو إلهاً يعلن وصاياه فقط. فالله يعلن عن نفسه، وهذا هو أسمى ما في العهد بل هو ركن العهد الأساسي أو الأول.

في العهد الجديد، الله، يعلن عن ذاته بشكل أوضح بكثير، وعلينا أن نلاحظ أن كل الإعلانات السابقة أو الظهورات لا سيما تلك التي تصاحبها مظاهر طبيعية غير عادية مثل البروق والرعود أو النار، كل هذه اختفت تماماً بسبب اتضاع الله العجيب وتنازله إلى مستوى الإنسان إلى الحد الذي قبل فيه أن يأخذ طبيعة جسدية.[1]

قمة هذا الظهور يعبر عنه الإصحاح الأول من انجيل يوحنا "الكلمة صار جسداً. والله لم يره أحد قط، الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو خبر" (يوحنا ١: ١٤-١٨) لقد جاء الابن إلينا مؤكداً لنا أن الآب أخفى نفسه عن الذين يدعون الحكمة والفهم لكنه يعلن ذاته للأطفال "نعم أيها الآب لأن هكذا صارت المسرة أمامك... ولا أحد يعرف الآب إلا الابن ومن أراد الابن أن يعلن له" (متى ١١: ٢٥) ولذلك يعطي الرب الطوبى لسمعان بطرس الذي عرف أن المسيح هو ابن الله الحي، ليس بواسطة الحكمة أو القوة البشرية ولكن الآب هو الذي أعلن لبطرس (متى ١٦: ١٧).

فالله، حتى بعد التجسد، يعطي روح الحكمة والإعلان في معرفته (أفسس ١: ١٧)، والمسيح له المجد هو "نور إعلان للأمم" (لوقا ٢: ٣٢) فالله يعلن عن نفسه في يسوع المسيح (يوحنا ١٧: ٦) وما الإنجيل إلا "إعلان يسوع المسيح" (غلاطية ١:

---

(1) يؤكد الآباء الذين فسروا العهد القديم، أن هذه المناظر المخيفة هي إعلان عن سيادة الله كخالق. أما في العهد الجديد فان الاعلان عن الخلاص والمحبة، جعل كل هذه المناظر المخيفة تختفي تماماً، ولكنها سوف تظهر مرة ثانية في يوم الدينونة، عندما يعلن الله من جديد سيادته كملك وخالق.

١٢) حتى بولس لا يقول انه يعلن كلمة الرب بل يؤكد أن الله أفرزه لكي "يعلن ابنه" فيه (غلاطية ١: ١٦) وهذا الإعلان يتم بواسطة الروح القدس لا بواسطة الكـلام (١ كورنثوس ٢: ١٠ - ١٢: ٧ - أفسس ٣: ٦ - عبرانيين ٩: ٨).

وهذا هو الخلاص؛ أن يعلن الله نفسه في يسوع بواسطة الروح القدس (يوحنا ٩: ٣ - أفسس ٣: ٥).

ولقد كنا نؤكد دائماً أن الإعلان ليس كلمات، بل هو شخص الله، وهذا هو الفرق الجوهري الهام بين المسيحية وغيرها، وعندما نقول، المسيحية، فإننا نعني بشكل خاص العهد القديم وكماله أي العهد الجديد.

وطبعاً ليس الفرق بين الإعلان عن الله والإعلان عن كلمات الله فرقاً لاهوتياً ضخماً في عقيدتنا عن الله وحسب، بل هو فرق لاهوتي ضخم في علاقة الله بالإنسان. ذلك أن من يعلن له الرب عن ذاته ويكشف له شخصه، يشترك في الحياة الإلهيـة وفي خيرات الله التي تأتي منه مباشرة، وتصبح الصلاة مختلفة تماماً عن الصلاة لإله لا يعلـن إلا وصاياه وأحكامه. وعلينا أيضاً أن نتذكر تلك العبارات الهامة التي يصف ـا الله نفسه وهو يتحدث مع البشر فهو يقول دائماً "أنا الرب إلهك" وهي عبـارة تفـوق الحصر في العهد القديم والجديد. فالله يدخل دنيا الإنسان ويقول له "أنا" وهي كلمـة تعريف بالذات وكلمة تستدعي العلاقة، وتطلب رد الإنسان عليها ولـذلك يقـول الإنسان لله "أنت" وطبعاً لأن الله في القرآن لا يعلن عن ذاته، لا نجد إطلاقاً كلمة "أنا" في الكلام عن الله.

فالله يقول "أنا" لأنه يريد الإنسان، وليس طاعة الإنسان وهو يعلن عن ذاتـه وليس عن وصاياه وأوامره. وهذا يؤكد دور "أسرار الله" الذي يسير مع دور "كلمـة الله". فرغم أن الكلمة في العهد الجديد محدودة الوظيفة، فهي ليست الوصايا بل هـي أداة تعلن الله، علينا أن نلاحظ كيف يصف الرسول بولس اجتماعات الكنيسة الأولى

التي لم يكن لديها في تلك الفترة كتاب اسمه العهد الجديد تقرأه في الاجتماعات الكنسية، لأن كلمات الرسالة الأولى إلى كورنثوس سبقت إنجيل يوحنا بما لا يقل عن خمسة عشر سنة وربما أكثر، يقول الرسول "متى اجتمعتم فكل واحد منكم له مزمور له تعليم له لسان له إعلان..." (كورنثوس ١٤: ٢٦) وراجع أيضاً (فيلبي ٣: ١٥) فالرسول لا يقول إن الله يعلن كلمته بواسطتنا بل "يظهر بنا رائحة معرفته في كل مكان" (٢ كورنثوس ٢: ١٤ - ١١: ٦) وما يظهر في كرازة الرسل هو "حياة يسوع في جسدنا" (٢ كورنثوس ٤: ١٠) ونكتفي بالطلبة الأخيرة في خاتمة الرسالة إلى رومية فهي علاج للانحراف الذي ظهر عندنا تحت تأثير الاتجاه العقلاني البروتستانتي: "والقادر أن يثبتكم حسب إنجيلي والكرازة بيسوع المسيح حسب إعلان السر الذي كان مكتوماً في الأزمنة الأزلية ولكن ظهر الآن وأعلم به جميع الأمم بالكتب النبوية" (رومية ١٦: ٢٥ - ٧) فالرسول يعلن ذلك السر الذي كان محجوباً أو مكتوماً "ولكن أظهر في الأزمنة الأخيرة من أجلكم" (١ بطرس ١: ٢٠) ذلك السر هو "الله ظهر في الجسد" (١ تيموثاوس ٣: ١٦ - ٢ تيموثاوس ١: ١٠).

إن ربنا يسوع المسيح لم يأت إلينا بكلمة الله - فهذا هو عمل ووظيفة الأنبياء. وما عقيدتنا في لاهوت المسيح سوى تأكيد على ان الإنسان لا يقبل كلمة، وإنما يقبل ابن الله. وهكذا عندما يصف الرسول يوحنا صلب المسيح وموته الكفاري يقول "وتعلمون ان ذاك اظهر لكي يرفع خطايانا.. لأجل هذا أُظهر ابن الله لكي ينقض أعمال إبليس" (١ يوحنا ٣: ٥-٨) فالرب جاء لكي تصبح حياته إعلاناً ونوراً وظهوراً لمحبة الله (١ يوحنا ٤: ٩) وهذا الإعلان هو الحياة نفسها التي نحياها ونتذوقها (١ يوحنا ١: ٢).

هذا هو عهد إعلان الله عن نفسه، وفيه تصبح الإعلانات القديمة والظهورات التي أعطيت، مقدمة لكمال الإعلان الأخير في يسوع المسيح. هذا الإعلان الأخير هو أهم ما يربطنا بالله وهذا ما يعبر عنه القداس الإلهي بشكل ظاهر.

إعلان الله عن ذاته في القداس

القداس ليس إلا الاستمرار - لاهوتياً - لما أخذناه من الرسل القديسين، ولذلك لا يجب أن نندهش إذا وجدنا أن نفس الاتجاه الرسولي بارز وواضح.

علينا أن نندهش فقط من جهلنا وتكاسلنا في اكتشاف ذلك العمق الروحي. والقداس هو عصارة الحياة الروحية والفكرية واللاهوتية، إذ لا يمكن أن تكون كنيسة عمرها يزيد على ١٩٠٠ سنة هزيلة الصلوات، عديمة الخبرة بأسرار الله. وكل ما في الموضوع هو أننا جيل نشأ وتربى على كتب لاهوتية لا تمت بصلة للحياة الطقسية التي نحياها - ولعل أعجب ظواهر هذا العصر هو امتلاء اجتماعات درس الكتاب بالناس وعدم امتلاء كنائسنا في القداسات بنفس العدد. هذه ظاهرة خطيرة تحتاج إلى أن نؤكد انحرافها الروحي بهذه الدراسة.

إن أول ما نلاحظه هو أن لغة الصلوات لا سيما القداس الباسيلي بشكل خاص لا تختلف مطلقاً عن لغة الكتاب المقدس. ونحن هنا لا نجري وراء الكلمات وإنما نبحث عن الخط اللاهوتي الواضح الذي يربط الصلوات بعضها ببعض. وسوف نلاحظ أيضاً أن كلمة "ظهور" وفعل "يظهر" مستخدمة بشكل أوفر في القداس الباسيلي لأنه أقدم القداسات، ويحمل بساطة الكتاب المقدس ووضوحه ولغته، ولئلا نتوه في النصوص علينا أن نستعرض معاً ماذا يقول القداس الباسيلي عن ظهور الله الابن، وعلاقة هذا الظهور بسر الإفخارستيا الذي تحتفل به الكنيسة؟

يؤكد لنا القداس حقيقة أساسية جداً وهي أن هذا الظهور ليس حدثاً انتهى، بل هو ما يحدث فعلاً في كل مرة تجتمع فيها الكنيسة التي تـأتي إلى منـاظر الـرب وإعلاناته (٢ كورنثوس ١٢: ١). ولعل خير مثال على ذلك، كلمات هـذا اللحـن القديم جداً الذي يعبر عن روح المسيحية وتقوى الأرثوذكسية، "خبز الحياة الذي نزل لنا من السماء وهب الحياة للعالم. وأنت أيضاً يا مريم حملت في بطنك المـن العقلـي الذي أتى من الآب، ولدته بغير دنس وأعطانا جسده ودمه الكريم فحيينا إلى الأبـد، يقوم حولك الشاروبيم والسرافيم ولا يستطيعون أن ينظروك ونحن ننظرك على المذبح ونتناول من جسدك ودمك الكريم". والكلمات لا تحتاج إلى تعليـق، لأن تنـازل الله وظهوره لنا هو حقيقةٌ تختبر وتعاش، فقد سكن الله في وسطنا، ولذلك صار يتجلى لنا ويظهر كملك عظيم. وبقية كلمات اللحن تؤكد هذه الحقيقة وتصف العذراء مـريم بمدينة الملك العظيم أي أورشليم وهو ليس الوصف الوحيد فهو موجـود في أغلـب القطع الخاصة بالعذراء لا سيما في التسبحة السنوية.

ويسوع الملك هو عصارة العهد القديم كله، فالملك هو ابن الله الذي سكن في المدينة العظيمة العذراء، وأصبح يتجلى في وسط هذه المدينة أي الطبيعـة الإنـسانية. ونحن نعرف من كل كتابات الآباء ان مريم تمثل الإنسانية التي سكن فيها يسوع وهي رمز الكنيسة. وعلينا أن نلاحظ أيضاً هذه الحقيقة الهامة وهي كيف تربط الكنيـسة القبطية بين العليقة وهي حادثة تجلي وظهور الله لموسى، وبين التجسد حسب تفاسير آباء الكنيسة لا سيما هيبوليتوس وافرآم السرياني وكلاهما اشترك في وضـع اللحـن الخاص بالعذراء "العليقة التي رآها موسى على مثال والدة الإله".

ويصل هذا التناسق إلى الكمال حينما تمنع الكنيسة دخول الهياكل بالأحذية، لأن الله يتجلى في الهيكل ويظهر السر العظيم وهو حضور الله في الكنيسة وظهوره لنا. وقد علق القديس كيرلس عمود الدين على عدم لبس الأحذية في الهياكل وخلع الحذاء

بقوله "إن الجلد هو رمز لبر الناموس الذي كان يناله كل من يقدم الذبائح في التدبير الأول أي العهد القديم" وطبعاً لا يتجاسر أحد أن يدخل الهيكل المسيحي وهو يحمل رمزاً لبر الناموس في قدميه لأن الذي نلبسه في أقدامنا هو استعداد انجيل السلام (أفسس ٦: ١٥)، وليس غريباً ان يقول كيرلس عمود الدين في صلاة القسمة "أظهر في نفوس عبيدك مجد أسرارك الخفية".

هذا الإعلان الإلهي تمهد له الكنيسة بالتدريج بالفصول والقراءات والعظة ثم قانون الإيمان ولذلك تستخدم في صلاة الكاثوليكون "أيها الرب إلهنا الذي من قبل رسلك الأطهار أظهرت لنا سر انجيل مجد مسيحك...".

ذلك أننا لا نسمع كلمات بل ندخل في هذا السر العظيم عندما يعلن الرب لنا ذاته، ولذلك وقبل قانون الإيمان تنهي أوشية الاجتماعات كل الطلبات ذا النص المأخوذ من العهد القديم "قم أيها الرب الإله وليتفرق جميع أعدائك... وأما شعبك فليكن بالبركة..." (عدد ١٠: ٣٥) وكما نعرف من العهد القديم فإن موسى رجل الله كان يصلي هذه الصلاة عندما يتقدم تابوت عهد الرب، الشعب في ارتحاله نحو الأرض التي أقسم ا الرب لإبراهيم.

إذن لماذا يوجد هذا النص وفي هذه المرحلة بالذات من الصلاة؟

لأن الشعب ارتحل من مكان الموعوظين ويستعد للدخول إلى الأرض المقدسة أي أورشليم السمائية بتلاوة قانون الإيمان وهو الحد الأدنى للإيمان المطلوب للشركة في الحياة الإلهية ودخول أرض الموعد أي السماء.

الخلق والخلاص استمرار للعهد:

بعد هذا تتحدث كل الصلوات عن الخلق في تسبحة شكر، ثم وقوف السمائيين أمام العرش الإلهي وهم ونحن معاً في وحدة واحدة نرفع تسبحة "قدوس قدوس..".

هذه درجة من درجات الظهور الإلهي بلا شك، وهو موضوع معروف، لأن تسبحة الشاروبيم قدوس قدوس هي تسبحة الذين يحرسون شجرة الحياة (تكوين ٣: ٢٤). وهم الذين رآهم اشعياء النبي وهو في الهيكل القديم حول عرش الله وقد أمسك واحد منهم بالجمرة الغافرة [١] ولمس فم اشعياء ف ع إثمه.

وتعكس صلاة القسمة في قداس القديس كيرلس التي تبدأ "يا الله الذي سبق فوسمنا للبنوة بيسوع المسيح" تعكس هذا التفسير القديم، لأ ا تطلب من الله الذي أهلنا للبنوة أن يفتح عيون قلوبنا لكي نستطيع ان نرفع أعيننا إلى فوق حيث اء مجده القدوس، ثم تطلب بعد ذلك "وكما طهرت شفتي عبدك أشعياء النبي إذ أخذ أحد السيرافيم جمرة بملقط من على المذبح.." هنا يستعلن الله كسيد وخالق للكون الذي جاء إلى الوجود من العدم بواسطة الله، وهو الذي رتب وجوده، ووجود كل القوات السمائية واستمرارها، ويحفظها لكي تنال من قوته وتشاركه خيراته. ويعكس القداس الغريغوري هذا بوضوح (راجع صلاة قدوس قدوس....).

الخلق هو بداية إعلان الله عن نفسه، ليس فقط، قدرته الإلهية الأزلية، بل ذاته كمصدر للوجود وهنا ينتهي الشكر على الخلق بالتسبحة الشاروبيمية. وتسبحة الله على الخلق لا تدوم أكثر من ذلك، لأن سقوط الإنسان أفسد جمال الخليقة وأدخل

---

(١) الجمرة الغافرة هو اسم الأجزاء التي تقدم من الذبيحة حسب استعمال آباء الكنيسة القبطية لا سيما تيموثاوس الأول.

الباطل إلى الحياة وجعل الموت سيداً وهذا يعلنه الرسول بولس بقوة، ويؤكـد بكـل وضوح أن الخليقة ستعتق (رومية ٨: ٢٠-٢٤).

ولذلك نحن لا ننسى أننا نقف هنا في الكنيسة كخليقة، وأمامنا عظمة الخليقة والقوة التي تم ا إخراج الكائنات من العدم، ولكن هذه الخليقة المهددة بالموت تحظى بظهور ابن الله وإعلانه لنفسه، وقد صاغ القداس الباسيلي هذه الحقيقة في عبارة هامة جداً "يا الله العظيم الأبدي الذي جبل الإنسان على غير فساد والموت الذي دخل إلى العالم... هدمته بالظهور المحيي الذي لابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح" فالمصلي يشترك في تسبحة الشاروبيم لأنه يعلم ان الفساد والموت قـد تم هـدمهما بظهور ابن الله.

هذا النص هو عصارة ما لا يقل عن عشرين نصاً من العهد الجديد من بولس ويوحنا بشكل خاص. ولكن التسبحة التي تنهي الكلام عن خلق الكون تمهد للكـلام عن خلق الإنسان. وهنا علينا ان نلتفت إلى حقيقة هامة وهي أننا هنا نلمس سـبب وجودنا في الكنيسة ذلك أننا لا نتحدث عن الماضي بل نعيش الحياة بأبعادها الحقيقية.

الخليقة حدثت منذ أزمنة سحيقة والسقوط أيضاً مرت عليه أعوام يعلمها الله. ولكننا نحن الوقوف أمام المذبح المقدس شركاء في كل هذا، فالحياة ليست بعيدة عـن لوثة آدم، وليست غريبة عن مراحم الله، إ ا تتحرك في نطاق هذه الأبعاد الواضـحة، والويل لمن لا يفهم هذه الحقيقة. ولذلك فالقداس هو قبل أي شيء آخر، إعادتنـا إلى حقيقة جوهر وأبعاد الحياة بكل ما فيها.

هنا "قدوس" تلتحم بالخلق "قدوس... الذي جبلنا وخلقنا ... وعندما خالفنا وصيتك" والتسبحة هي شكر على الخلاص وهي شكر على الخلـق أيـضاً. ومـن المعروف - وقد سبق وأكدنا هذا أكثر من مرة - أن الخلق والخلاص همـا وجهـان لعملة واحدة أو هما عمل واحد ذو شقين، وقد أخطأ كل الهراطقة بـدون تمييـز في

إدراك هذه الحقيقة الهامة، وكل من يخطئ ويفصل الخلق عن الخلاص يقع في كل البدع دون ان يدري، أو يصبح معرضاً للوقوع في البدع. ولولا أن الخلق والخلاص هما عمل واحد لما وضع القداس الخلق والخلاص معاً، ذلك ان القداس يردنا إلى الوعي بحقيقة كياننا وغاية وجودنا. لقد خلقنا، وها نحن نعود إلى الله بالخلاص من الآثام والخطيئة.

وقد قلنا ان الخلق والخلاص هما عمل واحد لله، ولذلك لا يمكن لمن يؤمن بوعي بهذه الحقيقة، أن يفشل في فهم لاهوت المسيح وتجسده وصلبه وقيامته ثم حقيقة اتحاد اللاهوت بالناسوت ووجود الأسرار لا سيما الإفخارستيا.

وعلينا أن نتأمل هذا الأمر في إيجاز. ان الخليقة من صنع الله وقد انحرفت، ومظاهر الانحراف ظاهرة ولا جدال عليها، ولذلك، من الذي يجيء ليرد هذه الخليقة إلى وضعها القديم؟ يقول القداس الغريغوري "مما لم يكن كونت الإنسان ... وعندما سقط.. أردت أن تجدده وترده إلى رتبته الأولى، لا ملاك ولا رئيس ملائكة.... بل أنت بغير استحالة تجسدت وتأنست" هذا هو الخلق والخلاص من عمل الله، لا يمكن ان يشترك فيه أحد من المخلوقات، لأن المخلوقات لا تملك ان تمد بالحياة مخلوقاً آخر لا سيما إذا كان ذلك المخلوق من مرتبة أعلى ويحمل صورة الله في كيانه. من يمكنه أن يعيد صياغة الإنسان أو يجدده؟ لا أحد. وهكذا تعلن العقيدة المسيحية - لا سيما لاهوت المسيح وتجسده والثالوث - وهنا القداس هو واقع هذه العقائد وهو الاختبار الذي نتعامل معه في كل يوم وفي كل صلاة مع هذه العقائد.

نحن هنا في الكنيسة نختبر ونتذوق تلك الحقائق وهذا هو معنى السر.

لا يمكن ان تسير الحياة الروحية بدون عقيدة توجهها أو تحدد لها الهدف.

فليست العقيدة سوى المؤشرات أو العلامات التي توضع في طريق الحياة الروحية، وبدونها لا يمكن للإنسان أن يسلك هذا الطريق.

وقد أكدنا أن الخلق والخلاص هما عمل واحد للإله الواحد، ولذلك لا يمكن ان يقوم بالخلاص سوى الخالق، وبالتالي لا يخلص سوى الخالق، فهو وحده الـذي يعرف كيف يرد الخليقة إليه.

فليس طريقاً سليماً، ذلك الذي يفترض ان إعلانـات الله توقفـت بمجـرد التجسد أو الصليب أو القيامة أو الصعود. وليس طريقاً سليماً، ذلك الذي يتجاهـل دور الروح القدس في أن يكمل عمل المسيح ويعلنه.

إن حلول الروح القدس لم يكن مجرد عمل إضافي أو زائد - ولكن الـروح القدس جاء ليمنح الإنسانية أن تتذوق ما حققه المسيح الله الابن لأجلنا.

وهذا معناه بكل وضوح ان الروح القدس إنما "يظْهر" لكل إنسان عبر تاريخ الكنيسة ماذا فعل المسيح؟ ومن هو المسيح؟

فشل الهرطقات في فهم وحدة الخلق والخلاص

ومن هنا جاء تأكيد الآباء الواضح على أن إنكار لاهوت الابن يعني حتمـاً إنكار لاهوت الروح القدس. لأن الابن هو غاية حلول الروح القدس في الكنيـسة، فالروح هو الذي يعلنه. إذن ماذا يعلن؟ أمخلوقاً أم الله الكلمة؟

هذا هو برهان آباء القرنين الرابع والخامس على لاهوت الروح القـدس.(١) لذلك رفضت الكنيسة، الاريوسية، ثم رفضت النسطورية وهذا الموضوع بالـذات لم يدرس في الكنيسة التي أنجبت أثناسيوس بكفاية، ولازلنا نعتبر بـشكل سـطحي أن النقاش حول لاهوت المسيح إبان المحنة الأريوسية، هو نقاش حول تفسير النـصوص الخاصة بالمسيح في الكتاب المقدس والحقيقة غير ذلك على وجه الإطلاق.

---

(١) بالطبع توجد براهين كثيرة يمكن لمن يشاء أن يطالعها في كتاب رسائل أثناسيوس عن الروح القدس لسرابيون لا سيما الرسالتين الثانية والثالثة.

الخلاص هو إكمالٌ للخلق، وهما شقان لعمل واحد يقوم الله به عبر التـاريخ ولذلك عندما يخلص الابن فهو يكمل غاية وجود الإنسان في الحياة.

المخلوق لا يمكنه ان يرتقي إلى رؤية الخالق بقدراته الذاتية، لا يمكنه أن يقتحم حياةً وكياناً أعظم منه.

والمخلوق لا يمكنه أن يقتحم المكانة الرفعية، ليس فقط بسبب جهله وضعف إمكانياته، بل لأن الله ليس كائناً خاضعاً لأحلام الإنسان ومطامعه. لابـد أن تتـوفر الإرادة الإلهية ويقبل الله ان يدخل الإنسان في حياة شركة ولقاء معه، فالتنازل الإلهـي هام جداً وأساسي وإلا تعذر كل شيء.

إذا أبقينا دائماً على الإيمان بضرورة بقاء المبادرة في يد الله فإننا لا يمكـن ان نخطئ في التعرف على فساد الهرطقات. فالله هو الذي يتنازل للإنسان، وهذا هو قلب وجوهر العطية الإلهية. إذا تذكرنا هذا أمكننا أن نفهـم لمـاذا كانـت الأريوسـية والنسطورية مزعجة لضمير الكنيسة وحيا ا.

اللاهوت المسيحي الصحيح هو حركة نزول الله إلينا، أما الهرطقات - بكل فسادها - فهي حركة صعود الإنسان واقتحامه الحياة الإلهية.

على هذا الأساس يمكننا أن نقول أن الأريوسية وهي تزعم أن الابن مخلـوق وليس من ذات جوهر الآب، جعلت المخلوق يرتفع بقدراته ورغباته إلى الحياة الإلهية، وفي ذات الوقت تحجب الخالق وتمنعه من الاشتراك في خلاص الإنسان.

وهنا لا يكون للخلاص علاقة بالخلق، وعلى المخلوقات أن تجد طريقها إلى الله.

الأريوسية كانت ولا تزال شراً بكل ما في الكلمة من معان. هي شر لأ ا تمنع الله من الاشتراك في خلاص الإنسان. وهي شر لأ ا تنكر تنازل الله وهو رب الخليقة والمسئول الوحيد عنها، لأنه هو الذي أوجدها من العدم وأعطاها الحياة وحدد لها غاية تحيا لها، وهي شر لأ ا تنكر إمكانية عطاء الله أي "النعمة".

ماذا نقول عن الآب الذي حسب الأريوسية، يكلف مخلوقاً بإتمام الخـلاص كأنه لا علاقة له بالمخلوقات أو كأن الخلاص هو عمل ضئيل يمكن أن يقوم به مخلوق بكل إمكانياته المحدودة العاجزة؟ هذا التـصور الـشرير الخـاطئ جعـل الكنيـسة الأرثوذكسية تحارب الأريوسية بكل طاقتها.

وهنا يبرز سؤال: ما علاقة الأريوسية بالكلام عن ظهور الله؟

والجواب واضح جداً، إن الله يظهر لنا في القداس لكي يعطينا الحياة الجديدة، ويكمل غاية خلقنا أو بعبارة لازلنا نحاول أن نشرحها: إن الله يظهر لنـا لأن الخالـق والخلاص عمل واحد.

والخلاص هو عودة إلى الاشتراك في الحياة الإلهية، وهو عودة إلى الله نفـسه. وقبل الكلام عن مجيء المسيح لخلاص الإنسان نشترك في تسبحة الشاروبيم، وفي تأكيد وجودنا في حضرة الخالق الكريم.

ولكي لا يتفرع الكلام عن الخلق والخلاص نعـود إلى الـوراء قليـلاً، إلى النسطورية، وهي مثل الأريوسية، شر رهيب لأ ا مثل الأريوسية، أنكرت اشتراك الله المباشر في خلاص الإنسان.

المسيح في النسطورية إنسان. والمسيح في الأريوسية إله مخلوق، وكلاهما يتفق حول حقيقة واحدة وهي ان الله لم يشترك في الخلاص.

الأريوسية تؤكد ألوهية مخلوقة، والنسطورية تؤكد إنسانية (مخلوقة) تسعى نحو الله، والذي يضيع هو الإنسان. وكما يقول القديس أثناسيوس الرسـولي، لم تتقـدم الإنسانية خطوة واحدة في طريقها إلى الله. ولم تستفد الإنـسانية شـيئاً، لأن فائـدة الإنسانية الأساسية هي في اشتراكها في حياة الخالق [١] والذين درسوا بعمق، كتـاب

([١]) يمكن دراسة هذه النقطة بتوسع في حوار مع صديق - الحوار الثاني عن التجسد.

تجسد الكلمة أمكنهم أن يدركوا ما هي البراهين التي سوف يقدمها أثناسـيوس عـن لاهوت المسيح والتي سوف تظهر بعد ذلك عند القديس كيرلس السكندري.

كان القديس كيرلس م عجاً من النسطورية لأ ا حولت الـسر ا يـد أي الإفخارستيا إلى وليمة بشرية، وجعلت البشر آكلي لحوم بشرية لأ م يأكلون جـسد إنسان. ولكن الطعام المقدس الذي تأكله الكنائس هو جسد الابن الله الكلمة الـذي يعطي الحياة ويهب الإنسان الخلود وعربون القيامة (الرد على نسطور ١: ٢٣). ألسنا من جديد أمام هذه الظاهرة الغريبة جداً في الفكر البشري التي تصور الإنسان بأنه قادر على ان يخلص نفسه. هذه مأساة فعلاً لأن الإنسان الذي يخلص نفسه يبدأ بالضعف البشري وينتهي إلى الفراغ، إلى حيث تقوده أحلامه إلى حياة بعيدة عن الله.

هذه النقطة الحاسمة هي قلب المسيحية وجوهرها، وهي بالتالي ليست جـدلاً حول تفسير نصوص الكتاب المقدس الخاصة بالمسيح وإنما هي جدل يـدور حـول خلاص الإنسان ومعناه وغايته. والمصيبة الكبرى هي أننا قد نتصور ان الموضوع كله هو جدل عقيم لا فائدة منه، وأما الحقيقة فهي انه جدل حول علاقة المخلوق بالخالق، وهو جدل لا زال يمس - في الصميم - كل ما نفعله في كل يوم نقف فيـه حـول المذبح ونصلي تلك الصلوات القديمة التي تحتاج اليوم لمن يكشف - ليس عن أصالتها التاريخية فقط، بل أيضاً صدقها وارتباطها بالتقليد الحي الآتي من المسيح له ا د ومـن الرسل.

عندما نصلي نحن ندخل في شركة، ونتذوق ذلك الإعلان أو ذلك الظهـور ا يد الذي فيه ننال هذه الشركة الإلهية وعلينا أن ندرك هذه الحقيقة من مجرد لمـس الكلمات التي يستخدمها القداس الباسيلي:

(أ) التجسد استمرار لظهور الله "الموت الذي دخل إلى العالم هدمته بالظهور المحيي الذي لابنك الوحيد وفي آخر الأيام ظهرت لنا نحن الجلوس في الظلمة.. بابنك الوحيد".

(ب) وعندما يعبر القداس عن حقيقة حضور المسيح في الإفخارستيا، وبعد استدعاء الروح القدس على القرابين يقول الكاهن في الصلاة السرية: "نسألك أيها الرب نحن عبيدك الخطاة غير المستحقين نسجد لك بمسرة صلاحك ليحل روحك القدوس علينا وعلى هذه القرابين الموضوعة ويطهرها وينقلها ويظهرها قدساً لقديسيك" ⲟⲩⲟϩ ⲛ̀ⲧⲉϥⲟⲩⲟⲛϩⲟⲩ

فالروح يعلن ويظهر أن الابن على المذبح بجسده ودمه، هذا الإعلان ليس مسألة حسابية أو موضوعاً خاضعاً للمنطق وقدرات الإنسان. ولذلك وقبل ان يتكلم الكاهن عن أحداث العلية في يوم الخميس الكبير، يمهد بعبارة مأخوذة من (١ تيموثاوس ٣: ١٦) "عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد". وعبارة القداس تأخذ الحقيقة الواضحة "ووضع لنا هذا السر العظيم الذي للتقوى".

وفي الخاتمة وبعد التوزيع تقول الكنيسة صلاة شكر هي خاتمة كل ما حدث في القداس "فمنا امتلأ فرحاً ولساننا تهليلاً من أجل تناولنا من أسرارك غير المائتة يا رب". "لأن ما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر، أعددته يا الله لمحبي أسمك القدوس، هذا أعلنته للأطفال الصغار الذين لبيعتك المقدسة. نعم أيها الآب ان هذه هي المسرة التي كانت أمامك لأنك رحيم".

وقد نحتاج لمحاضرة مستقلة خاصة عن هذه الصلاة، ولكن يمكن ان نقف قليلاً حول الكلمات التي وضعنا تحتها هذه الخطوط. إنها مفتاح لكل ما في القداس. وهي تشرح لنا سر هذا الاهتمام غير العادي الذي يحدث عندنا عندما تقام صلاة القداس،

أي الأسرار غير المائتة التي يعلنها الله للأطفال الصغار أي أبناء الكنيسة وهـذه هـي المسرة الكائنة أمام الآب السماوي لأنه رحيم.

ويمكننا أن نرى كيف تضع الصلاة ذلك النص العجيب الذي نطقه القـديس بولس عن السماء الثالثة حيث سمع ما لم تسمعه أذن وما لم يخطر على قلب بشر، فهذا الاختبار هو في متناول أيدينا حسب مسرة ورحمة الآب، وهو الذي يعلن لنـا هـذه الرحمة غير المُدركة، ويا لعظَم مراحم الله. لقد جاء الابن و "أظهر لنا نور الآب" بـل "أنعم علينا بمعرفة الروح القدس الحقيقية". ولا يتوقف العطاء، لأنه لا حدود للمحبـة ولذلك تكمل الصلاة "الذي أظهر لنا هذا السر العظيم الـذي للحيـاة" (القـداس الغريغوري).

هذه ليست ظهورات، بل ظهور واحد تعبر عنه خاتمة القـداس الكيرلـسي: "أظهرت لنا هذا السر جميعه، هذا المخفي منذ الدهور... لكي يظهر الآن... " وعندما نقول الآن فنحن نؤكد أن هذا يتم فعلاً وحقاً.

ثاني أركان العهد الدوام والاستمرار:

العهد ليس مؤقتاً أو لفترة معينة من الزمان - ولا حتى العهد القـديم، كـان يمكن أن يكون لفترة زمنية. ويعلق الرسول على ذلك بقوله "لذلك اذ أراد الله أن يزيد ورثة الموعد بياناً لعدم تحول عزمه، توسط بالقَسم، حتى نحصل بميثاقين لا يتحولان ولا يمكن ان يكذب (يرجع) الله فيهما"... (عبرانيين ٦: ١٧ - ١٨).. فالعهد قد تأكـد بالقَسم وكلاهما لا يمكن ان يغيرهما الله، وفي هذا الإطار لا نملك إلا أن نقول إن العهد الجديد لم ينقض العهد القديم بل أكمله، وعلينا أن نحترس في فهم معنى كمال العهد، فالمسيح لم يأت لكي ينقض بل ليكمل. وهذا لا يعني سريان كل القواعـد القديمـة الطقسية والاغتسالات والتطهيرات والذبائح وما إلى ذلك، بل بقاء المواعيد، وتحولهـا

إلى صورة أكمل. فالمواعيد هي جوهر العهد وإذا زالت الطقوس القديمة بقيت المواعيد (كولوسي ٢: ١٦ - ٢٣).

كان الاتفاق القديم أو الميثاق القديم مع شعب واحد هو شـعب إسـرائيل، فصار مع الإنسانية، وبعد ان كان في بقعة واحدة صار في كل الأرض. وبعد أن كان بعدة ذبائح صار بذبيحة واحدة. وبعد أن كان بعدة اغتسالات صـار بالاغتـسال الواحد - المعمودية المقدسة التي أبطلت قدرة الماء على التطهير، حيث أ ا ليست إزالة وسخ الجسد، بل وسخ الجسد والروح معاً بقوة قيامة يسوع المسيح من بين الأموات، فهو الذي أزال لعنة الموت، وهي اللعنة الوحيدة التي جلبت الدنس الحقيقي للإنـسان (١ بطرس ٣: ٢١ - ٢٢).

فالعهد قائم، والله الذي تجلى قديماً وقال "أنا إله إبراهيم واسحق ويعقـوب" هو الذي يقول الآن للكنيسة "خذوا كلوا... خذوا اشربوا..." فهو يقول "هـا أنـا معكم كل يوم" وليس في ذلك غرابة. يقول أغناطيوس الأنطاكي "وإلهنا يسوع المسيح عاد إلى حضن أبيه وبذلك صار يتجلى لنا بمزيد من الوضوح" (إلى الرومـان ٣: ٣). وبكل تأكيد يمكن لمن يدقق في قراءة العهد الجديد، أن يرى كيف ترتبط المعموديـة بنوع خاص، في أغلب النصوص التي تتحدث عن المعمودية بالقيامة والصعود والجلوس عن يمين الآب (راجع بشكل خاص كولوسي ٢: ١٦ - ٢٣، ١ بطـرس ٣: ٢١ - ٢٢).

فالذي يعتمد للمسيح يقوم معه ويطلب ما هو فوق حيث المسيح جالس عن يمين الآب.

وعندما وعد الله إبراهيم كان العهد قبل الناموس بأربعمائة وثلاثـين سـنة (غلاطية ٣: ١٧)، فلم يكن الناموس ثم العهد بل العكس، كان العهد ثم النـاموس. وماذا يقول الرسول عن الناموس - يقول أنه "زيد بسبب التعديات" أو هو بكل دقة

إضافات لاحقة للعهد لا يمكن مطلقاً ان تقَلل من العهد أو تقضي عليه... فالعهد باقٍ، حتى مجيء المسيح الذي هو نسل إبراهيم (غلاطية ٣: ١٦)، وعندما نزل الناموس على يد موسى، كان موسى هو الوسيط بين الله والشعب أي بين طرفين، أما عندما نطـق الله بالعهد لإبراهيم لم يكن في هذا أي وسيط، بل كان الله وحده هو الذي وهـب، وهو الذي أعطى (ترجمة حرة لنص غلاطية ٣: ١٩ - ٢٠، وهو نص صعب جداً).

ومن هذا ندرك أن توسط الله نفسه، وقيام العهد يعني بكل دقة أن العهد هبة من الله (رومية ١١: ٢٧ - ٢٩). وهذه الهبة هي أن"ي ع الرب خطايا شعبه" (رومية ١١: ٢٧) ولذلك يتوجه بولس بالكلام للأمم الذين هم غرباء تماماً عن كل ما وعـد به الله للآباء (أفسس ٢: ١٢)، ولكنهم سينالون كل هذا في المسيح دون العـودة إلى اليهودية وإلا بطل تماماً صلب المسيح وقيامته وبطل تماماً حلول الروح القدس.

وعندما يقارن بولس بين الخدمة الأولى التي ظهر فيها مجـد عظـيم، جعـل الشعب يخاف أن يرى وجه موسى يقول "إذا كانت خدمة الناموس التي كُتبت بكـل وضوح، أن من يتعدى الناموس يموت فكم بالحري خدمة الحياة التي تقيم الموتى والتي لا تسمح مطلقاً لاك من يطلب الله"، وهكذا يقارن الرسول بين الخدمة الأولى الزائلة والخدمة الثانية الباقية أو الدائمة (راجع بدقة ٢ كورنثوس ٣: ٣ - ١١)، ليؤكد بقاء خدمة المسيح، فهي خدمة حياة.

العهد الأول يشبه - إلى حد كبير - هاجر التي رغم أ ا ولدت ابناً لإبراهيم إلا أن هذا الابن كان مولوداً حسب الجسد أي ولادة طبيعية لا يوجد فيها أي تدخل الهي، أما العهد الجديد فهو يشبه إلى حد كبير سارة التي ولدت ليس حسب الجـسد ولادة طبيعية بل بالموعد أي من الله، ولذلك نحن مثل إسحق أولاد الموعد (غلاطية ٤: ٢٨)، أي أننا نسل إبراهيم ولكن ليس بالولادة الجسدية، بل بالولادة الروحية بالقوة الإلهية التي تتدخل في حياتنا.

إذن العهد القائم على عمل الله الفائق وليس حسب قوانين الطبيعة أو الانتساب الجسدي، فهو عهد جديد ليس فيه دخل للوراثة في موضوع الهبة، وليس فيه مجال لوجود العلاقة الجسدية، ولا ضمان له إلا المسيح يسوع وحده.

وكما رأينا إن الرسول بولس يؤكد أن الوسيط هو بين اثنين (راجع شرحنا السابق لغلاطية ٣: ١٩ - ٢٠) يقول بكل وضوح في مناسبة أخرى أن الوسيط بين الله والناس هو "الإنسان يسوع المسيح" (١ تيموثاوس ٢: ٥). حيث استخدمت نفس الكلمة اليونانية في معناها الشائع أي الوسيط، إلا أنه حيث الكلام عن العهد لا يوجد وسيط مطلقاً والضامن لهذا العهد هو يسوع المسيح، وهذا الضمان هو هبة، وليس وساطة.

لقد مات على الصليب وقدم دمه فدية عنا - هذا الدم ليس مجرد موت على الصليب بل هو دم العهد. وقد أضاف الرسول بكل دقة دم العهد الأبدي (عبرانيين ١٣: ٢٠ - ١٢: ٢٤).. إن دم العهد (عبرانيين ١٠: ٢٩)، هو الذي قام به يسوع من بين الأموات حسب قول الرسول، والقيامة هنا في الرسالة إلى العبرانيين هي تأكيد ليس لحياة يسوع المسيح فقط بل تأكيد على دوام كهنوته كرئيس كهنة وهذه نقطة حاسمة تفصل بين الأرثوذكسية والبروتستانتية لأن كهنوت المسيح هو عمل دائم يستند على الحياة الجديدة التي يهبها لنا - لا سيما - في الأسرار (راجع الفصل الأول: المسيح والكاهن في الصلوات السرية)، بينما في أغلب الأحوال، المسيح عند البروتستانت، هو شفيع يتوسل عن خلاص المؤمنين أمام الآب مستنداً على موته على الصليب، ودخول شفاعة المسيح وتوسله للآب عن المؤمنين معناه أصلاً أن سفك دم المسيح على الصليب قد انتهى عمله تماماً، وهذه صورة تشبه تطرف الأريوسية وتنال من كرامة الابن ووحدة جوهره مع الآب، بل إنها تبعد الآب تماماً عن عمل الخلاص وتصوره بالغاضب القاسي الذي لا يمكن تهدئته إلا بتوسل الابن، وهي صورة نابعة من

المجتمع الأوروبي في القرن السادس عشر، مجتمع الإقطاع والسيادة المطلقة، الذي يتمكن فيه الوجهاء أي النبلاء وحدهم من الحديث مع الملك.

أما في الأرثوذكسية فالآب في الابن وبالروح القدس يخلص المؤمنين، والمسيح الكاهن هو الشفيع في حياته وموته، وعن عمد وضعنا كلمة الحياة قبل الموت فهو شفيع لأنه حي، وشفيع لأن حياته تحمل هبات موته أي المصالحة مع الله.

كيف تأسس العهد

إن دراستنا لا تسمح لنا بأن نتناول في استطراد ذلك الموضوع العميق أي موضوع العهد، لا سيما ما في العهد القديم من نصوص كثيرة جداً. ثم في العهد الجديد حيث استخدمت الكلمة عند بولس ٣٦ مرة منها ٢٧ مرة في العبرانيين وحدها.

ولكن العهد كما رأينا هو منحة أو ميثاق ترتبط به المواعيد وتؤكده الضمانات التي منها القَسم، فالله أقّسم أن يحقق مواعيده "ليصنع رحمة مع آبائنا ويذكر عهده المقدس.. القَسم الذي حلف لإبراهيم أبينا.." (لوقا ١: ٧٢) كان العهد والقَسم هو أن الله قال لإبراهيم "وبنسلك تتبارك جميع قبائل الأرض"، (أع ٣: ٢٥)، ولكن علينا أن نرى كيف يفسر القديس بطرس هذا العهد والقسم "فلأجلكم أولاً أقام الله فتاه يسوع.. وأرسله لكي يبارككم فيرتد كل واحد عن شروره" (أعمال ٣: ٢٦).

إذن الوعد بالبركة هو القيامة، ويسوع الحي جاء لكي يبارك كل واحد ويرده عن شروره بالقيامة من الأموات، ثم هو أيضاً قبول الروح القدس "لأن الموعد هو لكم.." (أع ٢: ٣٩)، فالموعد ليس كلاماً يقال للإنسان، إنه خارج نطاق الكلمة، أي أن الكلمة تبشيرية، ولكن الله يحققه. ولذلك علينا أن لا نخلط بين مواعيد العهد القديم، ومواعيد العهد الجديد، فالأولى كانت قائمة على الكلمة الإلهية، وعلى تحقيق

هذه المواعيد في المستقبل، أما الثانية فهي قائمة على الخلاص في المسيح وعلى تحقيق هذا بالروح القدس الحاضر فعلاً في الكنيسة، وهذا هو السبب الذي يجعل الرسل يقتبسون ذلك النص الممتاز (من أرميا إصحاح ٣١)، عن العهد الجديد حيث سيكون الله ساكناً في شعبه وسكنى الله هي غاية العهد الجديد.

العهد إذن ينقل الموتى إلى الحياة، والخطاة إلى القداسة، وهو تحقيق لما فعله المسيح لأجلنا ولذلك يرتبط هذا العهد بالإفخارستيا، وهذا ظاهر تماماً من الكلمات الواضحة التي استخدمها ربنا يسوع في تأسيس السر في العلية قبل موته.

"ثم أخذ الكأس... هذا هو دمي الذي للعهد الجديد".. (مرقص ١٤: ٢٤ - متى ٢٦: ٢٨ - ١ كورنثوس ١١: ٢٥ - لوقا ٢٢: ٢٠)، الدم نراه مسفوكاً عنا في الإفخارستيا، والجسد مكسوراً عنا في ذلك السر ا يد - الذي كما قلنا سابقاً - لا يتناول موت المسيح فقط بل قيامته أيضاً أي العهد كله، ولذلك أيضاً لا يضع القداس ما حدث يوم الخميس الكبير في العلية قبل الصليب والقيامة بل بعد الصليب والقيامة، لأن هذا السر سوف لا يكمل إلا بعد قيامة المسيح. وهذا هو السبب في تقسيم القربانة بدون فصل عندما يقول الكاهن "أخذ خبزاً.. وقسمه"، فهو يفصل القربانة إلى ثلث وثلثين لأن ما حدث في العلية هو المرحلة الأولى التي أكملها بالصليب والقيامة وحلول الروح القدس، ولذلك لا يتم تقسيم الجسد إلا بعد حلول الروح القدس تأكيداً على اكتمال سر المسيح الذي يعلنه الروح وحده.

الدم والعهد:

في سنة ١٠٥٩ ميلادية طلبت الكنيسة الرومانية من أحد قادة ذلك العصر يدعى "*Berengar*" أن يوقع على منشور يقول فيه عن الإفخارستيا "أنه بشكل منظور وليس بطريقة سرية"*Sacramental*" نرى دم المسيح في يد الكهنة ويمضغ

جسده بأسنان المؤمنين" وطبعاً كان رد ذلك الإنسان هو أنه وضع القيامة، كنقيض لفكرة أكل الجسد وشرب الدم وقال بالحرف الواحد (إن جسد المسيح القائم من بين الأموات لا يمكن مضغه أو تقسيمه فهو جسد غير قابل للفساد) هذا التعارض بين القيامة والإفخارستيا هو تعارض مصطنع وليد الجدل الغربي الفلسفي وليس اللاهوتي حسبما يشرح اليوم لاهوتيون أفاضل من الكاثوليك والبروتستانت. وقد تمخض الجدل الفلسفي وولد تعبيراً جديداً معروفاً في اللاتينية فقط ولا وجود له في اليونانية وهو تعبير الاستحالة الجوهرية "*Transubstantiation*".

وهو يعني أن الخبز والخمر يتحولان في جوهرهما إلى جسد المسيح ودمه. بينما يظل شكلهما من الخارج خبزاً وخمراً. هذا التعارض بين الجوهر *Substance* وبين الشكل أو العرض *Accident* هو أحد دعائم فلسفة أرسطو الخاصة بعلم الطبيعة وما وراء الطبيعة. وهنا لم يعد حضور المسيح سراً بل موضوعاً جدلياً يدخل في إطار التحديد العقلي، لفلسفة معينة أصبح من المؤكد اليوم أنها غير صحيحة ولا تواكب الاكتشافات الحديثة في علوم الطبيعة والكيمياء [١] ولعل الأهم من هذا كله هو أن الإفخارستيا لو خضعت للتحليل الفلسفي القديم أو الحديث لما استطاع واحد مهما كانت مقدرته الإجابة على الاعتراضات الفلسفية التي يمكن أن تثار. ورغم ان الكنيسة الكاثوليكية تبنت تعليم "الاستحالة الجوهرية" منذ مجمع ترنت إلا أن محاولات التفسير لم تكن موفقة بالمرة. ولعل خير مثال على ذلك هو تفسير لوثر الذي أكد على اتحاد الطبيعتين في المسيح الواحد وقال ان اللاهوت لا يلغي الناسوت ولا الناسوت يلغي اللاهوت، وعلى نفس القياس فالمسيح الإله المتجسد في الإفخارستيا لا يلغي الخبز والخمر ولا الخبز والخمر يلغي ناسوت المسيح ولاهوته... وهذا معناه ان الإفخارستيا

([١]) لا يميز العلم الحديث بين جوهر المادة وشكلها، لا سيما بعد اكتشاف تركيب الذرة. فالجوهر والعرض واحد، ومع معرفة الآباء جميعاً بالفلسفة اليونانية، إلا انه ولا واحد منهم حاول أن يشرح ما يحدث في الخبز والخمر، لأن هذا هو عمل الروح القدس، وليس الإدراك العقلي أو التحليل الفلسفي.

ليست حضوراً حقيقياً للمسيح، وطالما ان المسيح هو المسيح والخبز هو الخبز فمـاذا يأخذ المؤمنون في الإفخارستيا؟ المسيح أم الخبز؟ طبعاً لا توجد إجابة شافية عند لوثر.

كل هذه المحاولات تؤكد لنا بشكل واضح أننا نحاول إخضاع السر للإدراك البشري. وآباء الكنيسة لم يستخدموا مطلقاً عبارة "الاستحالة الجوهرية" ولكنـهم لم يقولوا أيضاً ان الخبز هو خبز، بل الخبز هو جسد المسيح. ولم يحاول واحد منـهم أن يخضع هذا السر للعقل، ولعل محاولات الغرب تؤكد أننا لا نستطيع إخضاع الـسر للفلسفة ولا لأي مصطلحات بشرية، ويكفي أن نذكر في هذا ا ال أن الخـولاجي القبطي لا يذكر "الاستحالة الجوهرية" بل "الاستحالة" والفرق بين الاستحالة الجوهرية والاستحالة هو أن الأولى فلسفية تأتي من أرسطو والثانية تؤكد تحول الخبز والخمـر دون أن تشرح كيف. لأن الشرح معناه الوقوع في الهرطقة. وقد راعـت الـصلوات القبطية الجانب السري واكتفت بكلمة "وهذا الخبز يجعله جسداً مقدساً لـه" دون أن تشرح كيف ولماذا...؟ فكل هذه الأسئلة لا مجال لها لأننا لا نأكل المسيح مثل طعـام الغذاء أو العشاء وإنما نتحد به هو شخصياً بجسده ودمه ولاهوته.. ذلك أن العهد هو حضور المسيح بيننا - ذلك الحضور السري الذي لا مجال لاكتشافه حسب مقـاييس الفلسفة والمنطق بكل فروعه.

المصطلحات اليونانية عند الآباء، وهل تعني الاستحالة الجوهرية؟!!

ثار جدل طويل في مطلع القرن التاسع عشر حول معاني المصطلحات اليونانية التي استخدمها آباء الكنيسة لا سيما في القرون الخمسة الأولى.

وهل تؤدي هذه المصطلحات في النهاية إلى الاعتقاد بالاستحالة الجوهريـة أم بالاستحالة فقط دون تحديد نوع التغير الذي يحدث. وقبل أن ندرس كل كلمة يونانية علينا أن نلاحظ ما يلي:-

(أ) من الممكن طبعاً ترجمة الكلمة اللاتينية "*Transubstantiation*" إلى ما يقابلها في اليونانية Μετουσιωσισ، ولكن يظل السؤال الهام. هل استعمل الآباء هـذه الكلمة الفلسفية؟ والجواب القاطع بكل تأكيد لا. فالآباء يتكلمون عن الاستحالة دون تحديد.

(ب) والكلمات اليونانية الشائعة عند الآباء هي:

Μεταποιουνται	=	*Transmade*
Μεταστοιχειουνται	=	*Transelemented*
Μεταρρυθμιξει	=	*Transfigured*
Μετασκευξει	=	*Transfashion*

(ج) إن القداسات الشرقية كلها تقول "وهذا الخبز يجعله" أو "يقدسه" مثل قـداس يعقوب الرسول "قدسه واجعله" Αγιασκη και ποιηση وقداس مار مـرقس المنسوب للقديس كيرلس السكندري وحسب النص اليوناني القديم "قدسـه وكملـه واجعله".

والقداس الباسيلي اليوناني والقبطي "ليحل روحك القدوس ليقدس ويطهـر (يقيم أو *appiont*) ويجعل.." وقداس يوحنا ذهبي الفم "واجعل هذا الخبز الجـسد الكريم لمسيحك وهذا الذي في الكـأس دم مـسيحك وغيّرهمـا Μεταπαλων بروحك القدوس".

التغيير والتحول:

١- الكلمة الأولى *Transmade* أو Μεταποιουνται هي من أكثر الكلمـات عند غريغوريوس النيسي.

يكتب غريغوريوس في تعليمه للموعوظين عن الإفخارسـتيا ويقـول "لأن الطبيعة الإنسانية مزدوجة، مركبة من نفس وجسد، فالذين يخلصون، إنمـا يخلـصون

نفساً وجسداً، وعندما يتبعون ذاك الذي يقودهم للحياة، فـالنفس تتحـد (تمتـزج) بالمسيح بالإيمان، وبذلك تنال فرصة الخلاص، والاتحاد بالحياة (المسيح) يعني الاشتراك في الحياة. أما الجسد فله طريق آخر للاشتراك والاتحاد والامتزاج بمن يخلص (المسيح). فالذين بالشر قد أخذوا سماً قاتلاً يحتاجون إلى دواء آخر، له قدرة على القضاء علـى السم، وهكذا الذين ينالون الترياق، يعمل الترياق في أحشائهم للقضاء على الـسم، ومن الأحشاء تسري قوة الترياق إلى كل أجزاء الجسد.... وما هو الترياق؟ هو الجسد الذي صار ظاهراً كأقوى من الموت، والذي صار بداية الحياة. وكما يقول الرسول ان خميرة صغيرة تخمر العجين كله، هكذا ذلك الجسد الذي نال عدم الموت من اللاهوت يصبح فينا، مغيراً ومحولاً Μεταποιει και Μεταποιησιν الكل إلى ذاته... ولا شيء يمكن ان يجيء إلى الجسد إلا بواسطة الطعام والشراب الذي يقوت الجسد.. وهكذا جسد الخلود يصبح في كل من يأخذه، ويحوله إلى طبيعته (عـدم المـوت أو الخلود).... كما أن أجسادنا لا يمكن ان تحيا إلى الأبد في حياة خالدة إلا بالاشـتراك في الخالد وعديم الموت.... وهذا ندركه من اعتبارنا كيف أن جسداً واحـداً يـوزع على ربوات وربوات من المؤمنين في كل العالم، يصبح كله (الجسد) في كل واحـد، ويظل كما هو دون أن ينقص" (٣٧).

فما هو التحول أو التغيير الذي يعنيه غريغوريوس النيسي؟

من المؤكد ان المثال الواضح عند غريغوريوس، وباقي الآباء هو المعموديـة. حيث يتم التغيير والتحول في مياه المعمودية وبالتـالي في الـنفس والجـسد. يقـول غريغوريوس النيسي "أن التحول Μεταποιησισ في حياتنا الذي يتم في التجديد، لا يصبح تحولاً إذا ظللنا على ما نحن عليه. إنني لا أعرف كيف يمكن ان يصبح إنساناً آخراً من يظل في نفس الحالة، التي كان عليها، دون ان يـتغير Μεταποιησῃ في صفاته. ولكن التغيير الذي نناله والتجديد الذي يعيدنا إلى حالتنا الأولى هو أمر ظاهر

لكل واحد. ولكن الطبيعة الإنسانية تظل كما هي بعد المعمودية، وإني أعـني الإدراك والذكاء والقدرة على الفهم وكل صفات الطبيعة الإنسانية الأخرى التي لا تـتغير..." (٤٠).

إذن التغيير الداخلي في المعمودية لا يشمل صفات الإنسانية العادية وإنما يـتم فيه تغيير النفس والجسد إلى حياة عدم الموت.

هذا التغيير يأخذ قوته وأصله من المسيح نفسه. وهذا واضـح جـداً عنـد غريغوريوس وعند باقي الآباء "إننا نقول إن الجسد الذي أخذه المسيح والذي تألم به، اتحد باللاهوت وتغير Πεποιησθαι بالاتحاد واكتسب طبيعة من الذي اتحد بـه" (مقالة ٤).

إذن التغيير تم في ناسوت المسيح، وننال نحن هذا التغيير في مياه المعمودية، ثم في الإفخارستيا. هذا التغيير نفسه يحدث فينا بقيامتنا من الأموات، وهي ذات القيامـة التي نالها من المسيح. يقول كيرلس الأورشليمي "هذا الجسد يقوم مرة ثانية، ولا يظل جسداً ضعيفاً، بل هو نفسه يقوم ولكن يلبس عدم الفساد ويتحول، مثل الحديد الذي يوضع في النار، يتغير إلى نار..." (تعليم الموعوظين ١٨:١٨).

فالحقيقة الواضحة التي سنراها عند الآباء هي أن ما حدث في ناسوت المسيح، أي ما حدث في القيامة بشكل خاص، يعطي لنا في الإفخارستيا، بشكل سري ننالـه عندما تصبح حياة المسيح وقوته هي العنصر الفعال.

يقول غريغوريوس الـ يـ ي "اذا هاجمك الشيطان بالطمع وأراك كل ممالـك العالم في لحظة من الزمان وأوهمك بأ ا له، وسألك أن تعبده - فاحتقره كمن لا يملك شيئاً، وقل له و أنت متحصن بختم المعمودية اني صورة الله، صورة ا د السماوي، ولم أسقط من رتبتي مثلك بسبب الكبرياء، أني لبست المسيح وتحولـت بالمعموديـة إلى المسيح Ξπιστον Μεταποιημαι (مقالة ٤٠: ١٠) هذا التحول، الـذي

يتم في المعمودية، عندما تنال النفس ومعها الجسد قوة المسيح وحياته، هو نفسه الذي يتم في الخبز والخمر، لكي تنال النفس والجسد ما سبق وأخذته في المعمودية، وهـذا العنصر واضح جداً في كل صلوات المعمودية لكل الكنائس الشرقية الأرثوذكـسية، الأقباط - السريان - الأرمن - الروم. هؤلاء يطلبون ليس فقط تحول المـاء إلى قـوة حياة، بل تحول المعمدين أيضاً إلى حياة المسيح وقوته.

٢- واذا درسنا الكلمة الثانية

Μεταστοιχειουνται Transelemented

ومع أننا لسنا قادرين في اللغة العربية على استخدام كلمة أخرى غير تحول أو تغيير، إلا ان هذه الكلمة بالذات مثل الكلمة السابقة، تستخدم للكلام عن ناسـوت المسيح، الذي يشبه الجمرة، المشتعلة بالنار، تكتسب طبيعة النار دون ان تفقد طبيعتها. وهكذا صار التشبيه عند كيرلس السكندري وغريغوريوس النيسي وغيرهم من الآباء (حياة موسى: ١ - شرح المزامير مزمور ١٥٠: ٥). ونفس الكلمة تستخدم لجـسد القيامة الخاص بنا، وهي نفس الكلمة التي تستخدم لقيامة المسيح، يقول غريغوريـوس النيـسي "في القيامـة سـوف يتحـول الجـسد إلى عـدم الفـساد Μεταστοιχειωθεν " (عظة على النشيد ١: ٣)، بل ان هذا التحول بـدأ أصلاً في المسيح عندما ولد من العذراء واتحد لاهوته بناسوته، "يا ليتنا نـسمع جيـداً الكلمات السماوية التي تصف ا الأسفار المقدسة جمال الحبل العذراوي. لنسمع الذين من لحم ودم وقد تغـيرت Μεταστοιξειωθεντεσ إلى هـذه الطبيعـة الروحية" (عظة على مزمور ١٣٩: ١٨).

وإذا درسنا هذه الكلمة بالذات عند القديس كيرلس فإننا نكون أمام وحـدة متكاملة من الشرح اللاهوتي الجيد، ولكن هذه الوحدة المتكاملة مبعثرة، هنا وهناك في تفاسير القديس كيرلس، لكنه بشكل دقيق متناسق يربط هذا التحول في الإنـسان إلى

ما حدث أولاً في التجسد، "لقد أخذ طبيعتنا، لا لكي يصبح شريراً مثلنا بـل لكـي يجعلنا أخياراً، محولاً Μεταστοιξειωσασ إيانا بالروح القـدس إلى كـل الفضائل" (تفسير سفر العدد ٢: ٤). وهذا التحول بالروح القدس هو تحول في "عقل الإنسان يجعله قادراً على ان يبتعد عن رموز الناموس وظلاله ويختار جمال عبـادة الله بالروح القدس والحق" (تفسير يوحنا كتاب ١٠: فصل ١٣) هذا التحول الذي بدأ في المسيح تحقق في القيامة [1] فهو ليس تحولاً جاء بسبب الاتحاد فقط وإنما عندما مـات المسيح وقـام، وقبـل القيامـة "لم يكـن ربنـا يـسوع المـسيح قـد حـول Μεταστοιχειωση هيكله إلى ا د الذي يليق به" (تفسير يوحنا ١٢: ٨).

وفي الرسالة العشرين وأيضاً الرابعة والعشرين يقول عن قيامة المـسيح "لقـد مات عن الموت في اليوم الثالث لأنه الاله الذي أحيا جسده أي هيكله، وصار باكورة الراقدين، البكر من الأموات لكي يجعل الطبيعة الإنسانية أعظم من الموت والفـساد. ومحولاً الإنسانية فيه إلى حياة عدم الموت".

Εισ Μακπαιωνα Εωην Μεταστοιχειωση.

هذا التحول في المسيح ينقل الينا، عندما يسكن المـسيح فينـا بـاللاهوت والناسوت، وعلينا أن نلاحظ ان هذه النقطة بالذات هي النقطة التي جعلت القـديس كيرلس يكتب ضد النسطورية، فالمسيح الوحيد غير المنقسم إلى اثنين هـو المـسيح الواحد الذي يحل فينا. يقول كيرلس "هكذا يتصور المسيح فينا، لأن الروح القـدس يحولنا من (الشكل) الإنساني إلى المسيح"

Μετασταιχειουντοσ ωσπεπ ημασ εξ των Ανθρωπι ων εισ τα αυτου

([1]) هكذا يفهم القديس كيرلس السبب الأساسي لميلاد المسيح من العذراء بالروح القدس وبدون زواج "لقد ولدت كلمة الله الآب حسب الجسد لكي ننال نحن ميلاد من الله بالروح القدس ولا نعود بعد نسمى أبناء الجسد بل نتحول إلى ما فوق طبيعة الجسد، ونصبح أبناء الله حسب النعمة" (ضد نسطور المقالة ٣: ٢).

(المقالة الثالثة ضد نسطور ٣: ٢ ص ٧٢ طبعة Pusey).

وعمل الروح القدس هذا يبدأ في المعمودية، وحسب تشبيه القديس كيرلس السكندري والذي ذاع في كتابات الآباء "بواسطة الروح القدس تتقدس روح الإنسان، والجسد يتقدس بالمياه. لأن المياه التي تسكب في قدرٍ تحته نار مشتعلة، تتصل بالنار وتأخذ قوة النار، أي الحرارة، هكذا بعمل الروح القدس تتحول المياه المحسوسة Αναστοιχεισυται إلى قوة إلهية غير مدركة وتقدس إلى الأبد كل الذين يغطسون فيها" (تفسير يوحنا ٣: ٥ - كتاب ٣). وعلى نفس القياس يقول كيرلس السكندري عن الإفخارستيا "لأن المسيح خليقة جديدة - كما تقول الأسفار - كذلك نحن أيضاً الذين نقبله في حياتنا (حرفياً ذواتنا) من خلال جسده المقدس ودمه، نتحول بواسطته اليه Αναστοιχειουμενοι من الإنسان العتيق الفاسد حسب شهواته وهو الذي نخلعه إلى الإنسان الجديد" (العبادة بالروح والحق ١٢: ٤١٩).

وهكذا الاتجاه واضح جداً، فالروح القدس يعمل في تقديس الإفخارستيا لكي يغير الخبز والخمر إلى قوة وحياة المسيح، وهنا يؤكد كيرلس أن المسيح حاضر فعلاً.

٣- الكلمة الثالثة هامة جداً:

Μεταρρυθμιξει Transfigured

فهي الفعل اليوناني "يعيد ترتيب الأمور لكي تتجلى ويظهر معناها بوضوح" هذه الكلمة شائعة عند الآباء جميعاً، وبشكل خاص ذهبي الفم "المسيح حاضر الآن، هو نفسه الذي قدس هذه المائدة (في العلية)، هو الذي يقدسها الآن، فهو الذي يغير العناصر (حرفياً يجعلها تتجلى)" (عظة على مقدمة الرسالة إلى يهوذا ١: ٦).

ونفس الكلمة تظهر في الكلام عن المعمودية "عظيمة جداً قوة المعمودية لأنها تجعل الذين يشتركون في هذه العطية أناساً آخرين. فهي لا تجعل البشر يولدون من

بشر، وتجعل الوثني يؤمن أن قوة الروح القدس عظيمة، فهـي الـتي تجـدد وتغـير Μεταρρυθμισε (عظة ٢٣ على سفر الأعمال ٣).

ويقول كيرلس السكندري عن التجسد "لقد ظل الابن في الجسد إلهاً ورضى أن يخلي ذاته حسب التدبير، مغيراً إلى القداسة Μεταρρυθμι ξιν Εισ Ασιασιον ومبرراً بالإيمان كل الذين يأتون إليه" (الرسالة الفصحية ١٤).

هذا التحول أو التغيير، هو عمل الروح القدس في المعمودية، وهو عمل الابن الكلمة عندما اتحد بالناسوت، وهو ما يحدث في الإفخارستيا وفي جسد القيامة الخاص بالمسيح والخاص بنا.

٤- الكلمة الرابعة:

Transfashion Μετασκευξει

مأخوذة من الفعل يغير أو بدقة أكثر يجدد. فالفعل Μετασκευαξω يجدد، أو يغير. ولكي نفهم ما سبق وذكرناه من قبل، وما ندرسـه الآن علينـا أن لا نخرج خارج الإطار والتشبيهات التي عند الآباء.

يقول ذهبي الفم عن الإفخارستيا "ما هو أمامنا على المـذبح، لـيس عمـل إنسان، فالذي صنع هذه المعجزة الباهرة في الوليمة (قانا الجليل) هو نفسه الذي يعمل هنا. إنه يستخدم العبيد ويدعوهم إلى خدمته، ولكنه يقدسهم، ويحولهم في ذاته" (عظة ٨٢ على انجيل متى ٥). وطبعاً الكلمة مستخدمة للإفخارستيا، وهي مستخدمة للكلام عن تقديس الإنسان.

ونفس الكلام أيضاً يستخدم في وصف عمل المعمودية "هذا هو السر الـذي فيـــه بـــالميلاد مـــن فـــوق تتجـــدد - تتحـــول طبيعتنـــا Μετασκευαξεται ημων ηφυσισ من الفساد إلى عدم الفـساد،

لأننا نحن الذين من الإنسان القديم، نتجدد إلى صورته، أي ذاك الذي في البدء خلـق الإنسان على صورة الله ومثاله" (عظة ٢ ضد هرطقة أنوميوس: ٢).

وهذا العمل الفائق الذي يتم في الافخارستيا والمعمودية هو البرهان على عمل الثالوث الواحد في الجوهر. ولذلك يقول ذهبي الفم "لقد تعلمنا من الرب إلى ما يجب أن ننظر، أي إلى تجديد Μεταστοιχειωσισ طبيعتنا من الموت إلى الخلـود، وهذا هو الإيمان بالآب والابن والروح القدس" (نفس المرجع السابق).

وقد أثبتنا هذه الفقرة بالذات كمثال على أن الكلمات الأربعة عنـد الآبـاء تستخدم بشكل غير مقيد. ولا يحتوي هذا الاستخدام على نظريات أربعة أو تفسيرات لمعنى التحول أو التجديد. فقد استخدم ذهبي الفم التحول الذي يحـدث في الطبيعـة الإنسانية بالمعمودية واستخدم كلمة Μετασκευαξεται وعاد إلى استخدام صيغة المصدر المأخوذة من فعل آخر درسناه في شرح الكلمة الثانية.

ونفس الملاحظة تخص كل الآباء [1] ونكتفي بفقرة من القـديس كيرلـس السكندري "لقد قبل الابن الوحيد الروح القدس، ليس لذاته، لأن الروح القدس هـو روحه وفيه وبه، وانما لأنه صار إنساناً وكانت فيه كل الطبيعة الإنـسانية، فـأراد أن يجدد الكل ويحولها (الإنسانية) إلى صور ا الأولى

Μετασκευασισ Εισ το απχαιον " (تفسير يوحنا ٧: ٣٩).

ويمكن أيضاً أن نرى نفس الملاحظة في مؤلفات كيرلس بالـذات في عـدة مواضع تفوق الحصر (الرسالة عن الإيمان الصحيح للإمبراطور فقرة ٥).

([1]) لم ندرس القديس أثناسيوس لسبب واحد وهو أن الفقرات الخاصة بالافخارستيا قليلة جداً. وكان أثناسيوس مثل كل الآباء، يصف اتحاد الناسوت باللاهوت في المسيح على أنه يغير الناسوت إلى مجد اللاهوت الفائق (ضد أريوس ٢: ٤٧ - ١: ٦٢ - ١: ٦٣) هذا التغيير نفسه هو الذي ينتقل الينا نحن بسبب اتحاد اللاهوت بالناسوت.

الخلاصة:

١- إن ما قدمناه من نصوص يمثل ١٥/١ من النصوص المعروفة عند آباء الكنيسة الخاصة بالإفخارستيا. هذه النصوص حصرناها في الكلام عن التغيير الذي يحدث في:

- الناسوت في المسيح المتجسد وبسبب الاتحاد.
- الناسوت في المسيح المتجسد وبسبب المعمودية في الأردن.
- الناسوت في المسيح المتجسد وبسبب الصليب والقيامة.
- الطبيعة الإنسانية عندما تقوم في اليوم الأخير.
- المياه في المعمودية وبسبب عمل الروح القدس.
- الخبز والخمر في الإفخارستيا وبسبب عمل الروح القدس.

لقد كان من الضروري أن نضع هذه العناصر معاً و ذا الترتيب حتى يستقر في وعي الإنسان اننا أمام عمل واحد يقوم به الروح القدس والابن المتجسد.

٢- هذا التغيير لا يمكن شرحه، ولا يمكن أن نضع له الإطار الفلسفي المبني على فلسفة أرسطو، فهذا خلط بين الفلسفة العقلانية والاختبار السري الذي يتذوقه الإنسان بسبب التجسد والقيامة والأسرار. إن الاختبار السري لا يمكن صياغته وإنما نكتفي بالإشارة إليه، أما التأمل الفلسفي فهو موضوع يمكن دراسته وإثارة الجدل بكل أنواعه حول الدراسة.

٣- وأخيراً وهذه هي النقطة الهامة والأساسية، إن الإفخارستيا هي حضور المسيح الحقيقي، وهو حضور لا يمكن إدراكه إلا من النموذج الوحيد وهو التجسد، أي اتحاد اللاهوت بالناسوت. وهو ما يجب ان نحصر فيه الجدل إذا كان من الضروري أن ينشأ جدل حول هذه العطية الفائقة. ولكن عندما اتحد اللاهوت بالناسوت في الابن المتجسد، اكتسب الناسوت صفات كثيرة من اللاهوت، وهي بشكل أساسي "حياة عدم الفساد وعدم الموت أو الخلود" و "القداسة" هذه الصفات وغيرها قامت عند

الآباء على أساس لاهوتي واضح يعرف باسم "الاتخاذ المتبادل للصفات" *Communicatio Idiomatum* أي أن الاتحاد الحقيقي بين اللاهوت والناسوت في المسيح جعل الناسوت يشترك في صفات اللاهوت، واللاهوت يشترك في صفات الناسوت. والذي وضع هذا الأساس هو أثناسيوس، وكيرلس السكندري، وإن كانت جذور هذا الأساس اللاهوتي تعود أصلاً إلى أوريجينوس وأستاذه اكليمنضس ولكن هذا الأساس اللاهوتي ليس وقفاً على السكندريين من الآباء بل هو عام عند باسيليوس، ذهبي الفم، النيسي، ال ي ي... الخ.

ولعل أفضل شرح يمكن أن يقدم في هذا المجال هو صلاة القسمة للقديس كيرلس السكندري الذي نرى فيه بشكل بارز ماذا حدث لناسوت المسيح بسبب الاتحاد وكيف أصبح الأساس اللاهوتي *Communicatio Idiomatum* هو أصل الاحتفال الرهيب والمجيد بالسر، (راجع تذوق اللحم والدم، والارتفاع إلى المجد، الاتحاد بالمسيح في الإفخارستيا، الاتحاد بالآب والروح...) من هنا ندرك ان الاستحالة الجوهرية تعبير خطير يمكن أن يؤدي في النهاية إلى فقدان للعلاقة بين الإفخارستيا والتجسد، فهو يحدد الاستحالة بالكلام عن العرض والجوهر...

بينما حقيقة التغيير الذي يحدث في الخبز والخمر هو ما يحدث أصلاً في ناسوت المسيح نفسه بسبب الاتحاد والقيامة، وما يحدث فينا بسبب المعمودية... وهذا يطرح علينا موضوعاً أساسياً عن علاقة المعمودية بالإفخارستيا، لكن المؤكد هو أن اتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح هو اختبار سري نتذوقه في المعمودية ونعود إليه من آن لآخر في كل قداس الهي... وهذا في حد ذاته يشكل رفضاً للفلسفة الارسطوطالية صاحبة الكلمة الشائعة التي ترفضها الكنيسة الكاثوليكية الآن *Transubstantiation*.

الاستحالة ومعنى كلمة جسد، وكلمة دم:

إذا درسنا موضوع الإنسان، فأهم ما يجب أن نصححه هو الثنائية الأفلاطونية التي تعتبر ان الإنسان مكون من عنصرين هما الروح والجسد. "هذه الثنائية" تفشل في شرح نصوص الكتاب المقدس لا سيما العهد القديم. وقد عانى القديس بولس طـويلاً من الا ام بالثنائية وبأنه يجعل الجسد نقيضاً للروح أو العكس. كل هذا ينهار إذا جمعنا كل النصوص التي يستخدم فيها الرسول كلمة جسد ودرسناها بعناية، حينئذ نكتشف أننا تحت تأثير أفلاطون نفشل في إدراك معنى كلمة جسد ودم.

ويكفي أن نسأل أنفسنا ماذا يعني الرسول يوحنا بقوله "الكلمة صار جسداً" (يوحنا ١: ١٤)؟. ألا تعني أنه صار إنساناً مثلنا - وماذا تعني العبارات الـتي تنفـي الولادة من مشيئة جسد ولحم، ألا تعني رفض الولادة حسب قانون الولادة الإنـساني (يوحنا ١: ١٦-١٨).

عند الرسول بولس الجسد هو الشخص، ولذلك هل يمكن أن يكـون لهـذه الكلمات أي معنى آخر "الذين لم يروا وجهي في الجسد" (كولوسي ٢: ١ و٥)... ألا تعني بكل وضوح الذين لم يشاهدونني؟... وماذا تعني هذه العبارة "أذكروا أنكم أنتم الأمم قبلاً في الجسد المدعوين غرلة"؟ (أفسس ٢: ١١). مما لا شك فيه ان الرسـول يقول يا أيها الأمم من جهة حياتكم السابقة كبشر دعاكم اليهود غرلة. وأيـضاً "إن كان إنساننا الخارجي، يفنى فالداخل يتجدد..." (٢ كورنثوس ٤: ١٦) طبعاً الإنسان الخارجي هو الجسد أي الشخص من ناحية هيئته، ويؤكد الرسول أن كلمة لحم ودم هي مثل جسد ولا فرق مطلقاً.

يقول الرسول انه عندما رأى المسيح وهو في طريقـه إلى دمـشق لم يأخـذ مشورة إنسان - لكن كيف يعبر عن هذه الحقيقة "لم أستشر لحماً ودماً" (غلاطية ١: ١٦).

وطبعاً لا يمكن أن نتصور أن الرسول أمسك بقطعة من اللحم وبكمية مـن الدم لكي يسألهما.. هذا هراء.. ونفس التعبير عن الإنسان "لأنه بأعمال النـاموس لا يتبرر كل جسد" (رومية ٣: ٢٠) ومثلها "بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما" المقصود هنا أي إنسان لأن أعمال الناموس لا تبرر الجسد دون الروح.

طبعاً ثنائية أفلاطون لا يمكن أن نستعملها مطلقاً أمام عبارة مثل هذه "لكي لا يفتخر كل جسد أمامه" (كورنثوس ١: ٢٩) والمقصود أن لا يفتخر أي إنسان. مثل هذه التعبيرات لا تختلف مطلقاً عن قول الرب لسمعان بطرس "طوباك يا سمعان... إن لحماً ودماً لم يعلن لك لكن أبي الذي في السموات" (متى ١٦: ١٧).

وكلمة دم لا تعني ذلك السائل الأحمر الذي يجري في العروق.. مثـل هـذا التحديد قد يكون صحيحاً في العلوم، ولكنه ليس كذلك في الكتاب المقدس. ولعـل أهم ما نلاحظه هو أن سفك الدم هو قتل الحياة، ونصوص العهد القديم في هذا الشأن كثيرة جداً، لا مجال لأن نوردها. ولكن يكفي أن نذكر أن نفس الجسد هي في الـدم (لاويين ١٧: ١١) راجع أيضاً (تكوين ٩: ٥ - أرميا ٢ :٣٤)، ولذلك فان سـفك الدم معناه قتل النفس والنفس تعني الحياة (تثنية ١٧: ٢٣).

وعندما يقول العهد الجديد عن المسيح أنه لنا فيه الفداء بدمه (أفسس ١: ٧ - ١ بطرس ١: ١٩ - رؤيا ١: ٥)، فإننا لا يمكن أن نتصور أن الرسول يعـني ذلـك السائل الأحمر وأنه لا يعني حياة المسيح كحياة.

ولكن التأكيد على الدم جاء بشكل خاص لتأكيد حقيقة أساسية في الخلاص وهي أنه بدون الصليب والقيامة لا خلاص للإنسان. ويمكننا أن نرى هـذا بـشكل واضح. "متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح الذي قدمـه الله كفـارة بالإيمان بدمه" (رومية - ٣: ٢٤).

فالفداء "فيه" في يسوع، وطبعاً إن سفك الدم واضح، ولكن سفك الدم يعني تقديم الحياة "إن ابن الإنسان لم يأت ليخدم، بل ليخدم.. وليبذل نفسه فدية عن كثيرين" (متى ٢٠: ٢٨) راجع أيضاً نفس التعبير عند بولس "الذي بذل نفسه فدية" (١ تيموثاوس ٢: ٦) وعلينا ألا ننسى أن سفك دم الذبيحة في العهد القديم هو فداء للنفس أي الحياة (لاويين ١٧: ١١)...

ومما لا شك فيه أننا هنا أمام حضور شخص الابن المتجسد أي الإله المتأنس، هذا الحضور السري يؤكده وجوده على المذبح بجسده ودمه أي ذاته وحياته، وهو ما نراه في خاتمة القداس "لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين" فهو المسيح الواحد كله.

وهذه الحقيقة كامنة خلف كلمات القداس "هذا هو الجسد المحيي الذي لابنك الوحيد.. أخذه من سيدتنا... وجعله واحداً مع لاهوته... واعترف الاعتراف الحسن.. وأسلمه على خشبة الصليب...".

وهكذا من الميلاد إلى الصليب، حضوره الحقيقي معنا - هذه الحقيقة لا يجب أن نحصرها كأطفال في إطار معرفة كيميائية أو بيولوجية عن الإنسان، وبشكل خاص الجسد والدم - فكل هذا قد تجلى بشكل فائق في التجسد وصار حياةً تسكب في الأسرار، وليس كماً أو شكلاً...

كل هذا يطرح علينا بشكل واضح، أن الذكرى هي حضور المسيح نفسه وأنها ارتفاع إلى إدراك. حقاً الفعل العبراني هو فعل ثلاثي "ذ ك ر" مثل الفعل العربي. ولكنه لا يؤدي ذات المعنى الشائع العام لأن المزمور يقول "صنع ذكراً لعجائبه.." (مز ١١١: ٤).. فالله يذكر الإنسان ويقيم بأعماله ذكرى ويصنع عهده ذكرى لكل رحمة ونعمة يهبها.

وما يمتاز به الكتاب المقدس هو أن الذكرى احتفال طقسي يتم فيه عطاء الهي وتجديد للعهد، ولذلك جاء عيد الفصح والأعياد الأخرى "تذكاراً" وذكرى للخلاص الذي حققه الرب ولعجائبه. وطبعاً الذكرى تتجاوز الفكر، لأن الذين عبروا البحـر الأحمر احتفلوا بهذه الذكرى ثم صارت لهم ولمن أتى بعدهم تذكاراً دائمـاً (خـروج ١٢: ١٤)... وطبعاً الأساس في الذكرى هو أن الله عمل عملاً عظيماً لا مثيل له، وله آثار واضحة في حياة الشعب، تجعل الشعب يحتفل كل سنة بوجوده في هذه البقعـة بالذات لأن الله هو الذي أخرجه من أرض العبودية وجاء به إلى هذا المكان وتعهـد بحمايته إذا ظل مرتبطاً بالعهد. هنا الذكرى تلمس حياة الشعب بشكل واضح، فهو لا يحتفل بأمرٍ حدث في الماضي، ولم يعد له سوى ذكريات قديمة، بل يحتفل بمـا يمـس حياته الواقعية كل يوم.

في هذا الإطار يجب علينا أن نفهم معنى كلمة ذكرى: فهي احتفال، وهـي أيضاً اشتراك في كل ما جاء به العهد الجديد. وعلينا أن نتذكر أنه بعد عدة سـنوات من صعود المسيح وجلوسه عن يمين الآب يكتب الرسول بولس "كأس البركـة الـتي نباركها أليست هي شركة دم المسيح.. الخبز... أليس هو شركة جسد المـسيح" (١ كورنثوس ١٠: ١٥ - ١٧). وهنا بشكل خاص حيث تقال عبارة "هـذا اصـنعوه لذكري" تصبح الذكرى اشتراكاً. وهذا يؤكده الرسول بعد ذلك "أإن الوثن شيء أو إن ما ذبح للوثن شيء" (١ كورنثوس ١٠: ١٩)؟ ذلك أن ما يقدم للأوثان هو شركة مع الأوثان وهو ما يجعل الرسول يقول: "لست أريد أن تكونوا شـركاء الـشياطين (الأوثان).." (١ كورنثوس ١٠: ٢٠).

إن شركتنا في الجسد والدم هي شركة في الرب ذاته. وهنا الذكرى هـي أن نلمس بشكل سري حياة المسيح وصلبه وقيامته. ولا تصبح هـذه الأحـداث مجـرد ذكريات، لأن صاحب هذه الأحداث حاضر. ولذلك فهي ليست وقائع مجردة بل هي

أحداث تخص شخص المسيح وتخص الذين حوله... أي الذين ارتبط م بعلاقة قوية هي علاقة الجسد الواحد أي الكنيسة التي هو رأسها.

إن العهد الذي هو أساس الذكرى، حيث يعلن المسيح ذاته لنا في هذا السر ا يد...

والذكرى ليست عقلية وإنما اشتراك في الخلاص:

لقد تأكدنا الآن ان حضور المسيح هو حضور حقيقي، وأنه فعلاً وحقاً معنا بجسده ودمه. فما معنى الذكرى؟ لعل أول ما يتبادر إلى أذهاننا هو أن الذكرى هي استرجاع ذكريات وأحداث عندما نحتفل بذكرى صديق رحل. فهي ذكريات من طرف واحد، الصديق غاب، وكل ما نملكه هو أن نتذكر أعماله وأقواله وما تركه لنا.. هذا المستوى من الذكرى لا يمكن أن ينطبق على علاقتنا بالمسيح... فهو ليس صديقاً رحل أو غاب عنا، بل هو معنا "بمجد أبيه والروح القدس" كما نقول في لحن يا ملك السلام.

الله يذكر:

يقول سفر التكوين "ثم ذكر الله نوحاً.. " (٨: ١) وطبعاً لا يمكننا أن نتصور أن الله ذكر نوحاً لأنه نسى أين هو؟.. ولكن المؤكد أن الله ذكره بمعنى اتخذ قراراً، وهذا ما نراه بعد ذلك "وأجاز الله ريحاً على الأرض" ونفس المعنى يظهر أيضاً في (تكوين ١٩: ٢٩) ويمكننا أن نتأكد من ذلك من طريقة صياغة نص تكوين ٣٠: ٢٢ - "وذكر الله راحيل وسمع الله لها وفتح رحمها.." فإن الله افتقد راحيل واتخذ قراراً "ذكر = عمل".

وتذَكُر الله تعني أيضاً ارتباط الله بالعهد "أذكر إبراهيم واسحق وإسرائيل الذين حلفت لهم.." (خروج ٣٢: ١٣)، ولذلك فإن عطاء الله المرتبط بالعهد هو

ذكرى العهد (تثنية ٩: ٢٧)، وهو مناسبة تقديم شيء جديد أو عطية أو نعمة، راجع بدقة (خروج ٢: ٢٤، ٦: ٥، لاويين ٢: ٤٢)..

✞ ✞ ✞

القسم الثاني

الفصل الأول

الترتيب الطقسي وعلاقته بالعقيدة

التقسيم التاريخي:

لقد درسنا كيف رتبت العقيدة أجزاء طقس المعمودية، فهل ساهمت العقيدة أيضاً في ترتيب القداس الإلهي على النحو الذي نراه؟ أم أنه ترتيب تم دون ارتباط؟..

سوف نكتشف ان الترتيب الطقسي، والصلوات يكشف من خلفه منـهجاً عقائدياً هو السبب الأساسي في تقسيم القداس إلى قسمين معروفين من التاريخ القديم باسم قداس الموعوظين، وهو الجزء الخاص بالتعليم، ثم قداس المؤمنين وهو الجزء الخاص بالمؤمنين.

هذا التقسيم مبني على قاعدة هامة، وهي أن الكلمة تـسبق الأسـرار، وأن الأسرار تأتي دائماً بعد التعليم، لأن التعليم يمهد ويقدم للأسـرار، وحقيقـة الحيـاة الأرثوذكسية قائمة على أن ما نسمعه في التعليم نتذوقه في الأسرار.

الجزء الأول الخاص بالقراءات هو تمهيد يشبه الخطوبة، أما الجزء الثاني فهـو الكمال، ويشبه الزواج، ولذلك ينتهي بالتسبيح لأن القداس يدخلنا مباشرة في فـرح

وتسبيح الحياة الأبدية.. ومن المؤكد أن ممارسة الوعظ أثناء التوزيع هو خطأ جـسيم ويدل على استهتار - غير متعمد - بالسر العظيم.

الرب يسوع يوزع حياته علينا، وهو على المذبح يقدم ذاته، ولذلك ما هـي قيمة التعليم في هذه اللحظة بالذات؟ إذا كان كل ما تقوله الكلمة يتذوقـه المـؤمنين الآن، فعن أي شيء نتحدث؟.

وما معنى هذا التداخل في السر وكلمة التعليم، وكلاهما يقَـدمان في وقـت واحد، أي أثناء التوزيع؟ إما إننا لم نعد ندرك علاقة الكلمة بالسر - وإما أننا نريد أن نقسم الكنيسة الواحدة أثناء التوزيع إلى جماعتين بدلاً من جماعـة واحـدة، جماعـة الموعوظين؛ الذين يسمعون التعليم، وجماعة المؤمنين؛ الذين يتناولون الإفخارستيا. وهذا التقسيم يحطم وحدة الكنيسة ويزيد التباعد بين المؤمنين.

السر وكيف يعلن؟

من البداية ومنذ دورة الحمل تحاط القربانة باللفائف، وتغطـى الكـأس، ثم تغطى كل الذبيحة، ويتم ذلك كله أثناء قداس الموعوظين..

إن اختيار الحمل يرمز إلى الجانب النبوي المستتر، لذلك لا تظهـر القـرابين مطلقاً أثناء القراءات، والوضع الأصلي هو أن وجود الموعوظين كان يمنع ذلك، إذ لا يحق للموعوظين أن يطلعوا على أسرار الكنيسة، لا سيما الإفخارستيا، ولذلك فـإن القرابين لا يمكن رؤيتها.

وعندما يرفع الكاهن القربانة مغطاة باللفافة فوق رأسه فهو بـشكل رمـزي يقول للكنيسة "هذا هو الخبز الذي نزل من السماء الواهب الحياة للعالم"... وفي هذه المرحلة بالذات تذكر الذين تريد أن تذكرهم من الأحياء والراقدين، لأن المسيح لـه

الذي جاء إلى العالم وجاء من أجل كل الذين رقدوا لا سيما الذين رقدوا على رجاء الحياة الدائمة [1].

عندما يرفع الكاهن القربانة فهو يحدد بالكلمات، لماذا نزل هذا الخبز من السماء؟ لكي يظهر مجد الثالوث ويظهر محبة الله ويتم بناء الجسد، وقبل أن يرفع القربانة إلى فوق يمسحها بالماء، وكما يقول الخولاجي "مثال العماد الطاهر" لأن بداية إعلان نبوة المسيح في العالم أي في الزمان كانت بالمعمودية، وهذا الرمز في غاية الأهمية لأن القداس يكشف لنا حياة المسيح من الأردن إلى يمين الآب.

هنا المسيح يظهر نفسه لنا "مبتدأ من المعمودية إلى اليوم الذي ارتفع فيه" ولكنه يظل تحت ستار اللفائف غير معلن عنه حتى يقال قانون الإيمان، وكما نعرف من القديس ايسيذوروس البيلوسي أن وضع الستر (الابروسفارين) يرمز إلى القبر، واللفافة المثلثة ترمز إلى الختم، وبعدما ترفع ينادي الشماس بالقبلة المقدسة (الرسالة ١٢٣).

المصالحة تتم هنا في ذكرى رمزية للقيامة، لأن المسيح بقيامته رفع الموت وصالحنا مع الآب. ولكننا كما نرى لا تزال القرابين مغطاة لا يلمسها الكاهن، ولا تشير إليها الصلوات. ويبدأ قداس المؤمنين - وكما نعرف منذ سنة ١٥٠م - بكلمة: "الرب مع جميعكم".

كل رشومات القداس، هي رشم الصليب (ورشم كلمة سريانية تعني ختم) ورشم الصليب كما رأينا في طقس المعمودية هو بداية قبول الموعوظين في الإيمان، والاشتراك المباشر في الصليب والقيامة في المعمودية. وبعد الخروج من الماء تختم أعضاء

([1]) ذكر الأحياء والراقدين أثناء اختيار الحمل، وبعد التقديس هو ترتيب قديم جداً يعود إلى أيام يوستينوس الشهيد، حيث كانت القرابين يقدمها الشعب لكي يختار الأسقف ما يصلح منها للتقديس، وكان الغائبون بشكل خاص يذكرون في الصلوات، وترسل الإفخارستيا إلى منازلهم. ولما كانت ذبيحة الإفخارستيا هي التي تبني الكنيسة وتجمع كل المؤمنين بالمسيح في وحدة واحدة، أصبح تذكر الراقدين من الأمور الأساسية التي تدل على وحدة الكنيسة.

الذي يعتمد بـ ٣٦ ختماً أو رشماً بزيت أو مسحة الميرون. وطبعاً يظهر بكل وضوح أن الصليب في الطقس ليس علامة موت المسيح على الصليب بل هو علامة الموت والحياة معاً، فهو يحمل إلينا كل هبات الحياة، حتى عطية الروح القدس تعطى من خلال الصليب لأنه الرمز الوحيد للمصالحة، ورضاء الله ومسرته بأن يعمل في الإنسانية. وبعد الخروج من المعمودية يلازمنا رشم الصليب في بداية الصلاة وقراءة الكتاب المقدس، وبشكل خاص في الإفخارستيا. وعلينا أن نلاحظ أنه في كل مرة نرشم فيها الصليب يتم ذكر الآب والابن والروح القدس وهذا يؤكد أمرين هامين:

١- اشتراك الأقانيم الثلاثة في خلاص الإنسان بسبب وحدة الجوهر.

٢- انفراد الابن بالذات بالتجسد والصليب والقيامة.

وكل الذين أهملوا رشم الصليب وقعوا في أخطاء قاتلة وانحرف تصورهم للخلاص، وحصروا الخلاص في المسيح وحده. وكأن الآب والروح القدس يراقبان فقط ما يحدث على الأرض!!

لذلك فإن الصليب ليس مصالحة فقط بين الآب والإنسانية، بل هو تأكيد على العمل الواحد للثالوث، وهو ما يعبر عنه الآباء دائماً "الآب يعمل كل شيء بالابن في الروح القدس" وهي عبارة يعرفها كل قارئ للآباء لا سيما بعد ظهور الأريوسية. وعلينا أن لا نتهور مثل بعض المتهورين في القرن الخامس والسادس وننسب التجسد والصلب للآب أو للروح القدس، لأن هذا ليس ضد الحق الواضح فقط، بل هو أيضاً بشكل خاص فوضى واضطراب في فهم الثالوث وعلاقة الثالوث بالخلاص❖. وفي كل مرة يمسك فيها الكاهن بلفافة أو بالقرابين أو الكأس يرشم الصليب ثلاثة

❖ يمكن لمن يريد أن يدرس هذه النقطة بالذات بوفرة أكثر أن يدرس الفصول الثمانية عشر الأولى من كتاب تجسد الكلمة لأثناسيوس، حيث يرد على السؤال الخاص، لماذا تجسد الابن بالذات وليس الآب؟

مرات، أما يذكر الآب والابن والروح القدس، أو الاكتفاء بالرشوم الثلاثة دون ذكر الآب والابن والروح القدس.

وقد شرح هذه النقطة بشكل خاص تيموثاوس الأول بابا الإسكندرية في عدة مقالات ضاع أصلها اليوناني والقبطي ووصلتنا بالسريانية فقط، وفي مجموعة شروحات سريانية ومن مقالات هذا العالم الجليل، نفهم أن جدلاً واسعاً شمل معظم الكنيسة الشرقية حول ذكر الآب والابن والروح القدس في القداسات وأثناء رشومات الصليب وهو ما أدى إلى عدم ذكر الآب والابن والروح القدس في تقديس الخبز والخمر (شكر، بارك، قدس)، ثم في استدعاء الروح القدس والرشومات الثلاثة على الخبز والرشومات الثلاثة على الكأس، ثم رشم الجسد بالدم، والدم بالجسد بعد صلاة القسمة، أي حذف ذكر الثالوث تماماً، والاكتفاء بالصليب [1].

وفي الواقع كانت الكنيسة السريانية بنوع خاص هي التي حذفت ذكر الآب والابن والروح القدس في هذه الرشومات وقلدتها الكنيسة القبطية بعد ذلك، حتى لا يخطئ الناس في فهم ذكر الأقانيم الثلاثة أثناء التقديس، وبسبب الضعف الفكري والروحي، وبسبب الجدل كادت الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية أن تنسى هذه القاعدة الذهبية التي وضعها الآباء "كل شيء يعمله الآب بالابن في الروح القدس".

إن الصليب يحمل إلينا هبات الآب والابن والروح القدس، وما رشم الصليب سوى إقرار بهذه الحقيقة التي تبدأ في المعمودية وتصل إلى الكمال في الإفخارستيا. ورغم أننا لا نتحد إلا بجسد الابن ودمه إلا أننا لا نتحد بالابن وحده، وإنما بالثالوث. فالوسيط في الاتحاد بالثالوث هو الابن الذي يقدم الكنيسة للآب في الروح القدس.

---

(1) قداس تيموثاوس الإسكندري، مخطوطة سريانية من القرن الثامن، نشرها العالم الفرنسي "A. Raes" في مجموعة القداسات السريانية المجلد الأول، والمعروفة باسم "Anaphora Sur." ودون الجدل كله المؤرخ السرياني المشهور التلمحري (عام ٨٤٥) - وأيضاً المؤرخ السرياني العظيم ميخائيل (كتاب ٣: ص ١ - ٨ طبعة باريس ١٩٠٥م) التي نشرها "Chabot".

وحسب نص (رومية ١: ١-٦) المعمودية هي موت ودفن وقيامة مع المسيح، ولكنها هي أيضاً مناسبة تبني الإنسان وحلول الروح القدس عليه في المعمودية والميرون. والإفخارستيا هي مناسبة الاتحاد بالمسيح والثبات فيه واتحاد الكنيسة كلها لتصبح جسداً واحداً.. "اجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا أن نتناول من قدساتك طهارة لأنفسنا و... لنصير جسداً واحداً..، هذا الجسد الواحد يأخذ قوته من المسيح ومن الروح القدس (١ كورنثوس ١٢: ١٠ - ١٤). وهنا نلمح كيف ان قاعدة كل شيء هي الصليب والقيامة وعليها يكمل الروح القدس ويرفع الابن والروح الكنيسة للآب .... أو حسب تعبير أغناطيوس "واعتبرتم نفوسكم حجارة هيكل الآب أعدت لبناء الله وارتفعتم إلى فوق برافعة يسوع المسيح أي الصليب وبحبل الروح القدس" (أفسس ٩: ١ - ص ٢٧).. ولذلك ذكر الثالوث أثناء رشم الصليب، يحدد الاتجاه الذي سنسلكه في حياتنا الروحية، ويحدد بشكل خاص، ان علاقتنا بالمسيح هي علاقة في الروح القدس وبالآب.

✞ ✞ ✞

الفصل الثاني

مكان الرشومات في الطقس ومعناه

الرشومات الأولى في دورة الحمل: [١]

دورة الحمل والرشومات هي تمجيد للثالوث "الذي أقـام الكنيـسة جـسد عمانوئيل وجعلها شعبه الذي يسكن الله فيه"، فالرشومات مرتبطة بالذكصولوجية التي تبدأ ا خدمة القداس "مجداً وإكراماً للثالوث القدوس.." وعلينا أن لا نخطئ في فهـم كلمة (للثالوث) لأ ا في القبطية Ⲙ̀ⲧⲡⲁⲛ Ⲁⲅⲓⲁ Ⲧⲣⲓⲁⲥ ولا تعني ا د والكرامة الذي تقدمه الكنيسة للثالوث إنما تعني حضور مجد وكرامة الثالوث في الخدمة، وقـد كشفت الترجمات الإنجليزية التأثير الغربي. كأننا في خدمة القداس بنـوع خـاص لا نعطي التمجيد بقدر ما نشترك فيه ونناله، ولولا حضور الثالوث وإعلان مجده ما كان الشعب يرد على نداء... "مجداً وإكراماً.." بقوله "ا د للآب والابـن والـروح..." ولأننا اجتمعنا من أجل بنيان الجسد أي الكنيسة، نبارك الآب والابن والروح القدس، ونضع ختم الصليب على الصعيدة (الخبز والخمر) سبب حضورنا إلى البيعـة، وعنـد تقديس الصعيدة بالروح القدس، يظهر مجد الآب والابن والروح القـدس وفي أثنـاء التقدمة لأن الثالوث القدوس هو الذي دعانا إلى هذه الخدمة.

([1]) هذه الشروحات قد جمعت من عدة خولاجيات قبطية وعربية تزيد على ألف خولاجي، في المتحف القبطي، المتحف البريطاني، المكتبة الأهلية، ومكتبات جامعة أكسفورد، وكامبريدج، والفاتيكان، والأديرة القبطية بوادي النطرون.

ولئلا نسقط في كبرياء سابليوس أو تجديف نسطور وأريوس، رتبت الكنيسة ذكر الثالوث عند تقديم الصعيدة حتى ندرك أن بركة واحدة للثالوث وعملاً واحـداً للآب والابن والروح القدس، وان حضور الابن الوحيد الكلمة المتجسد على المذبح لا يمنع حضور الآب والروح، فهو رئيس كهنة الكنيسة الجامعة التي أتى ا إلى شـركة الآب والروح القدس.

هذا التعليق القديم على الرشومات، يشرح لنا رشومات دورة الحمل على إ ا تأكيد على اشتراكنا في الخلاص الذي قدمه الآب بالابن في الروح القدس.

ويمكننا أن نلاحظ انه ذكر سابيليوس ونسطور وأريوس - هؤلاء الهراطقـة الثلاثة الذين تفرعت منهم كل الهرطقات - لأن كل منهم أنكر وحدة الثالوث بشكل أو بآخر، وكأن الرشومات في دورة الحمل وفي بداية الخدمة هي نوع من الاسـتعداد والتطهير للإعلان الذي سيأتي بعد ذلك.

الرشومات الثانية قبل التقديس:

عندما يقول الكاهن الرب مع جميعكم يأخذ اللفافة التي على القربانة ويرشم ا الشعب ثم الخدام وأخيراً ذاته، وهو ذا وبشكل سري "يؤكد مجيء ربنا يـسوع بالجسد وانه يسعى إلى خطبة الكنيسة واستردادها للآب ولـذلك يجيـب الـشعب "مستحق وعادل" وبعد ذلك يشكر على الخليقة الأولى التي أُعدت بمجيء الله الكلمة الذي تقف الملائكة لتخدمه، وبعد تسبحة الشاروبيم يأخذ الكاهن اللفافة التي علـى الكأس، لأنه بعد أن أخذ اللفافة التي على القربانة يعود ويأخذ تلك التي على الكـأس ويرشم مثل الرشومات الأولى وهو يقول "قدوس" لأن سفك دم الحمل الكريم هـو الذي قدسنا".

"وعندما قدم الرب ذاته عنا، قدم جسده ودمه عن خلاص جنسنا الساقط، ولولا دم الحمل كلمة الله ما صار لنا اشتراك في التقديس الشاروبيمي ولا استطعنا ان ننتظم مع الصفوف السماوية ونقول قدوس..".

"وعندما يفرغ الشعب جميعه من التسبحة، يسبح الكاهن ويرشم، مؤكداً صدق الإيمان الذي وصلنا، ومؤكداً بشكل خاص ان الصليب هو سبب اشتراكنا في تقديس الثالوث الآب والابن والروح القدس".

وطبعاً لا نملك ان نضيف شيء إلى هذا الشرح لأنه يؤكد أن الرشم الأول (الرب مع جميعكم)، مرتبط بالرشم الثاني (قدوس). الأول يؤكد مجيء ربنا بالجسد وهو ما ترمز اليه أخذ اللفافة من على القربانة والثاني تقديم حياته، وهو ما ترمز إليه أخذ اللفافة من على الكأس.

ويقول نفس الشرح السابق "ان الآب عندما خلق الإنسان كان يرتب لإعلان ذاته بالابن، ولذلك هيأ رتبة الخليقة الأولى وجعل الإنسان سيداً عليها لأنه وهب أن يكون على صورة الله ومثاله ان حفظ الوصية".

ورتبة الخليقة الأولى عند الآباء تؤكد ان الخلق كان عملاً إلهياً قصد به الآب ان يعلن عن محبته واهتمامه بالإنسان، وهو الذي جعل الابن يأتي لكي يكمل الخليقة الأولى ويرفعها إلى رتبة الخليقة الثانية أو الجديدة.

"ولذلك فان الاستعداد يء الابن هو شكر الكنيسة على الخليقة الأولى، التي رغم ا ا أُخضعت للباطل بسقوط آدم الأول، إلا أ ا لم تصبح مرذولة تماماً من الآب لأ ا لو رذلت ما كان الابن بالحقيقة قد جاء ليخلصها ويرفعها".

"وأعلم ان رشم الصليب على الشعب أولاً ثم على الخدام هو تأكيد شركة ووحدة الكنيسة في الثالوث الآب والابن والروح القدس الذي هو مثال الثالوث على

الأرض، ويأخذ الشعب الرشم الأول لأن منه تظهر الأبوة في الأساقفة والقسوس فهو كنـز الآب الذي يودع للأمناء على الأبوة".

رشومات التقديس ورشومات قبل القسمة وبعدها:

من النصوص الأساسية التي بدونها لا يمكن ان نفهم هذا الجزء الصعب من القداس، هو نص عند القديس كيرلس السكندري، وهو يتحدث عن شق ملابس المسيح وتوزيعها على أربعة أقسام "وهكذا يجب أن نفكر في رمز تقسيم ملابس المسيح التي رغم أنها قسمت إلى أربعة أجزاء إلا ان القميص ظل واحداً بدون تقسيم، وهذا إشارة إلى التوزيع، ووحدة الذبيحة" (تفسير انجيل يوحنا ص ٧٨).. وواضح ان المسيح لا يمكن تقسيمه مطلقاً، ولذلك وحتى عند توزيع الذبيحة يؤكد القداس إننا لا نتناول جزءاً من جسد المسيح بل المسيح كله. وكما نعرف من تعبير بولس البوشي أن تقسيم الجسد ليس تقسيماً للجسد كما هو شائع، إنما حسب التعبير الواضح لهذا العالم الجليل "ونحن لا نقسم الجسد في الصينية، ذلك ان المسيح لا ينقسم فهو المسيح الواحد أمس واليوم والى الأبد بعينه، كلمة الآب الأزلي الذي تجسد لأجلنا".

إذن ماذا يحدث في القسمة؟

"إننا نقسم الجسد أي تظهر أعضاؤه أي الكنيسة، لأن الرسول يقول "وأما أنتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفراداً" (١ كورنثوس ١٢: ٢٧) هذا المسيح الواحد هو الحقيقة التي تختفي خلف الجزء الطقسي الذي يبدأ من: الجسد المقدس، إلى: جسد مقدس ودم كريم حقيقي ليسوع المسيح ابن إلهنا.

لذلك، إن غاية الطقس هي تأكيد الإيمان، ولذلك جاء رشم الجسد بالدم والدم بالجسد - لا سيما عند آباء الكنيسة السريانية - مؤكداً حقيقة هامة هي وحدة

ذبيحة المسيح على النحو الذي تبرزه القسمة السريانية "هذا الجسد لهذا الدم وهذا الدم لهذا الجسد"، وهذه الوحدة لا تجعل الكأس منفصلاً عن الجسد، أو الجسد منفصلاً عن الكأس، بل ذبيحة واحدة ولذلك يتكرر أثناء رشم الجسد بالدم "جسد مقـدس ودم كريم.." تأكيداً لوحدة الذبيحة وبأن المسيح واحد.

من جانب آخر تذكر الرشومات القديمة السريانية أن رشم الجسد بالدم أولاً من فوق ومن أسفل، وهو يتم عندنا في مقدمة القسمة وأثناء صلاة الشعب "نـسجد لجسدك المقدس"، يؤكد أن جسد المسيح قد صبغ كله بالدم.

أما طريقة التقسيم الحالية فهي سـريانية وشـرحها معـروف في المـصادر السريانية. وقد أسهب الأب اسحق ساكا السرياني في شرح معانيها الرمزية (شـرح القداس بحسب طقس الكنيسة السريانية الأرثوذكسية ص ٩٤ - ٩٨).

أما طريقة التقسيم المعروفة في الخولاجي القبطي والتي شرحها العالم الجليـل القمص عبد المسيح المسعودي، فهي لا تستخدم في كنائسنا الآن، وهي معروفة لنا في القداس السرياني المنسوب للبابا تيموثاوس الإسكندري.

وتؤكد لنا الرموز أن عدم تقسيم الجسد إلى أجزاء والاكتفاء بالتقسيم مـن فوق والاحتفاظ بالقربانة سليمة بدون كسر هو لتأكيد وحدة جسد المسيح وتنـوع أعضاؤه وهذا ما يذكره بولس البوشي وهو يشرح كيف أن المسيح لا ينقسم، وإنمـا القسمة هي إظهار أعضائه أي جماعة المؤمنين (ميمر على تقسيم جسد ربنـا وإلهنـا ومخلصنا يسوع المسيح).

الاسباديقون:

يرمز إلى المسيح الذي يحوط به اثنا عشر صليباً رمزاً للرسل. وهنـا تؤكـد القربانة ان الصليب علامة الرسولية الحقة. وقد عثرنا على ميمر في شرح القربانة يعود

إلى القرن الرابع عشر يقول "القربانة مستديرة مثال إلى كمال الخلاص، فالدائرة هي الشكل الجيد الكامل. اثنا عشر صليباً صغيراً هم مثال للرسل القديسين الذين ظهرت رسوليتهم بإتباعهم طريق الرب، فقد نالوا ذات الأتعاب. وجلوسهم حول المسيح هو مثال الكنيسة الجامعة التي تحيط بالرب وهو حاضر في وسطها. وتزين القربانة بلحن الخلاص "قدوس.. قدوس.. الخ" لأنها علامة التسبيح التي تؤكد يقين وحدة السمائيين والأرضيين وتوضع فيها خمسة ثقوب مثالاً لجراح الرب التي احتملها بإرادته عنا".

وطبعاً من الواضح أن القربانة تحمل أساس الكنيسة - المسيح له المجد والرسل. وهؤلاء هم الذين ننضم إليهم بالتناول ليكون الجميع واحداً كما أننا نحن واحد (يوحنا ١٧: ٢٠ - ٢٢).

ومن هنا جاء رشم الجسد بالاسباديقون مؤكداً توزيع المسيح لحياته على أعضائه. ثم الاحتفاظ بالاسباديقون في الكأس نصيباً خاصاً بالكاهن دون سواه، لأن الكاهن يحمل كهنوت المسيح.



رسم لقربانة قبل القسمة



يظهر شكل الصليب، ويظهر أيضاً أنه يشمل القربانة كلها، لأن الجسد المصلوب هو الجسد الواحد، المسيح والكنيسة.

القسم الثالث

شرح القداس الإلهي

نضع هنا ثلاثة نماذج لشرح القداس الإلهي.

الشرحان الأول والثاني يعودان إلى القرن الخامس / والسابع ومع أن الـذين وضعوه من علماء الكنيسة السريانية، إلا انه من أهم المراجع الطقسية التي يجب العودة إليها لدراسة الجوانب الرمزية.

والشرح الأول لجرجس أسقف العرب، والشرح الثاني لموسى باركيفا. وقـد نشرت المقالتان بالسريانية مع ترجمة إنجليزية[١].

أما الشرح الثالث، فهو الشرح المنسوب لسمعان بن كليل.

✞ ✞ ✞

---

(١) R.H. Connally - H. W. Cordington.

Two commentaries on the Jacobite Liturgy, by George Bishop of Arabs and Moses bar kepha.

الشرح الأول
لجرجس أسقف العرب

١- التقدمة:

تبدأ بخدمة المزامير التي تسبق الأسرار وترتل بصوت واحد، يعـبر عـن إرادة واحدة لشعب الكنيسة واتحادهم بالله.

قدوس الله: يصرخون ا ثلاث مرات، وهي اعتراف بمجيء الأمم إلى الإيمان، وكمال هذا الإيمان الآن في السر الذي سبق ورآه إشعياء.

سماع الأسفار المقدسة: ومعانيها هو الطعام الروحي الدائم للنفس، وهو مثـل الخبـز والماء اللذان يتغذى ما الجسد.

العهد القديم: يقرأ قبل العهد الجديد للدلالة على أن ما سبق وأخبر به العهد القديم قد تم.

ا مرة: التي يحملها الشماس حتى صحن الكنيسة للدلالة على اهتمـام الله بالكـل، وانتشار الرائحة الذكية للدلالة على خلاص المسيح الذي ذاع للكـل. أمـا عـودة الشماس با مرة إلى الهيكل فهو للدلالة على ثبات الخلاص وعدم تغيره، فهو يعلنـه الهيكل بدون نقص، مثل المصباح المنير الذي إذا أخذت من نوره، أشـعل المـصابيح الأخرى دون أن ينقص نور المصباح الأصلي.

٢- قبلة السلام:

التي يعطيها المؤمنون كلٌ للآخر، وهي ‍اية للعداوة القديمة وإطفاء للغضب، وتأتي بالسلام والسكينة، ومحبة كلٌ للآخر، والمصالحة مع الله والملائكة القديسين.

٣- الشمامسة:

يشبهون اللاويين في القديم، ولذلك هم يقومون بخدمة الكنيسة أي قراءة الأسفار والكرازة، وحراسة أبواب الكنيسة، ويصرخون ويطلبون من الشعب الهدوء أو الصمت، كما أ‍م يجعلون كل إنسان يقف في مكانه الخاص به حسب رتبته وحالته (الروحية).

أما الكاهن: فهو يقوم بثلاثة أمور رئيسية، فهو أولاً يشبه بالفادي معطي الحياة، الذي قدم ذاته لله أبيه لكي يصالحنا معه. ثانياً: هو اللسان في رأس الكنيسة، ولذلك فهو الناطق عنها، ثالثاً: هو الذي يعلن الأسرار.

٤- المذبح:

يدل على عمانوئيل نفسه، الذي هو شجرة الحياة، والخبز والخمر اللذان يوضعان عليه للدلالة على جسد ودم الله الكلمة، وهذان هما ثمرة شجرة الحياة. وعندما تمزج الكأس المُحلى بالخمر والماء، فذلك للدلالة على الدم والماء اللذين نبعا من جنب المسيح الفادي وهو معلق على الصليب.

الستر: الذي يوضع على القرابين [1] ويغطيها للدلالة على سرية وعدم إمكانية رؤية القوة الكامنة فيها. وعندما يرفعه الشماس، فهو للدلالة على أن الستر يعلن لكل حسب استحقاقه، ويدل على أن المسيح يأتي ليعلن هذا السر.

---

(1) ديونسيوس الاريوباغي رئاسة الكهنوت فصل ٤ مجلد ٣: ٤٨٤ - ايسيذوروس البيلوسي رسالة ١٣٩.

الستارة: التي تغطي باب الهيكل هي رمز للستر الذي يحجب الموضع السمائي فهو لم يظهر بعد.

أما الذين يحضرون للتقدمة وتقديس الأسرار، ويخرجون بدون تناول فـإ م رغماً عن إراد م يحاربون بواسطة الشياطين، وذلك لأسباب لا نعرفها نحـن وإنمـا يعرفها الله وحده.

وهؤلاء عندما يتصالحون مع الله يسقطون في تجارب متنوعة. وقد علمنا الآباء أن هؤلاء بإراد م يقبلون على التجارب ويخطئون ويسلمون إلى الشياطين حـسب القول "أسلمته للشيطان لكي يتعلم أن لا يجدف" (١ تيموثـاوس ١: ٢٠). وربمـا يجرب هؤلاء لأسباب أخرى لكن أهم هذه الأسباب الكسل (التـواني) والخـوف (الجبن).

الشمامسة مثل الملاكين اللذين شاهد ما النسوة عند رأس وقـدمي يـسوع الفادي.

والبطرشيل [1] على الكتف الأيسر علامة الخضوع للكهنة.

والمراوح التي يحملو ا دلالة على انتسا م للطغمة الملائكيـة، فهـي مثـل الأجنحة، ولكن للعقل وليس للجسد، فالعقل يطير دون سقوط.

٥- السجود:

هو دلالة على سقوط آدم، أما القيام من السجود فهو دلالة على قيامتنا بقيامة المسيح. أما في يوم الأحد والأسابيع السبعة للخماسين، فنحن لا نسجد، لأن هذه أيام قيامة المسيح، التي ا صار لنا قيامة.

([1]) الكلمة اليونانية والسريانية هي Orarium وليست البطرشيل، ومع ذلك لأن البطرشيل شائعة عندنا فقد تركناها.

٦- أبانا الذي في السموات:

هي صلاة الجسارة [١] وهي التي تدل على أننا أبناء الله بالنعمة. وهي صـلاة فيها اعتراف بأن الله هو الخالق وصاحب الصلاح الذي يكره الشر، كما أ ـا تعلـم الرجاء ومغفرة الخطايا وطلب ما هو ضروري فقط.

٧- القدسات للقديسين:

تعني أن الأسرار المقدسة تعطى للأتقياء وليس للنجسين.

"واحد هو الآب القدوس.. واحد هو الروح القدس"، تعلن وحـدة جـوهر الثالوث القدوس - الآب والابن والروح القدس - واعتراف بأن الطبيعة الالهية جعلت طبيعة البشر المائتين تستحق اسمه القدوس.

٨- تقسيم الأسرار:

وتقسيم الأسرار المقدسة للمؤمنين يدل على اجتماع المؤمنين معاً واتحـادهم كلٍ بالآخر، وبالمسيح طبقاً لما قاله النبي "سوف أقسمه للكثيرين وهو يقـسم ميراثـه لكثيرين" (أشعياء ٥٣: ١٢). أي ميراث مغفرة الخطايا.

٩- قبول الأسرار:

وهو اتحادنا بالله الكلمة ابن الله، واليد اليمنى التي تمتد لقبول الأسرار بينمـا تحملها اليد اليسرى هو علامة على إكرام العطية التي تعطَى وهو عربون حيـاة عـدم الموت [٢].

([١]) نفس الكلمة التي تقال في القداس الباسيلي Παρρησια وتترجم دالة.

([٢]) كانت الإفخارستيا توضع في أيدي المتناولين بشهادة كل آباء الكنيسة، حتى القرن السادس. راجع القديس كيرلس الاورشليمي العظة ٢٣: ٢١ تعليم الموعوظين وأيضاً الآباء الحاذقين في العبادة - ميمر البساطة للقديس فيلوكسينوس ص ٥، طبعة دير السريان.

والكاهن الذي يقدم الأسرار يتناول قبل الكل، وبعده يتناول الشعب، وذلك ليكون مثالاً للتقوى ظاهراً أمام الجميع.

١٠- الصلاة التي تقال بعد تناول الأسرار:

هي شكر واعتراف يقدمه الكل بعد قبول العطية.

١١- الكاهن يغسل يديه أمام المذبح:

إعلان منه بأنه يقف أمام المسيح ديان الكل الذي يفحص قلوب الشعب وأسراره، واليه هو يخضع الكل. وهذا يعلم الشعب أن يغسل عقله بعد التناول من كل الاهتمامات العالمية.

الشرح الثاني

شرح سر القربان
لموسى باركيفا

١- الأسماء التي تطلق على هذا السر:

هي أسماء ستة (الاجتماع - الشركة - التقرب - القربان - السر - كمال الكمال).

يقال له "الاجتماع"، لأن الكل يجتمع معاً، كما أن كل ما فينا يجمع ليقدم في وحدة مع الله الواحد.

"الشركة" لأننا جميعاً نشترك في جسد المسيح، ونصبح جسداً واحداً معه، كما قيل "كل من يأكل من هذا الجسد ويشرب من هذا الدم، يكون في وأنا أكون فيه" (يوحنا ٦: ٥٦)، وأيضاً يقول الرسول "نحن أعضاء المسيح" (أفسس ٥: ٣٠ - ١ كورنثوس ٦: ١٥).

"التقرب"، لأننا نحن البعيدين والقريبين، والذين في السماء، والذين على الأرض، صاروا قريبين كلٍ من الآخر، كما يقول بولس "الذي فيه نقترب" (أفسس ٢: ١٨)، أي الشعب مع الشعوب، والسمائيين مع الأرضيين.

"القربان"، لأن المسيح صار قرباناً لله الآب عن خطايانا، كما يقول الرسول "الذي قدم ذاته قرباناً" (عبرانيين ٩: ١٤) عن خطايانا، وأيضاً وفي شريعة موسى كانوا يقولون "قربان" للذبائح التي تقدم عن الخطية.

"السر"، لأن المسيح قدم السر بشكل سري، وخفي عن جماعة تلاميذه في العلية. ولأنه بعد أن سلم السر لتلاميذه، أعلن لهم سر آلامه.

"كمال الكمال"، لأنه يكمل الأسرار الإلهية الأخرى، فكل من يعتمد لا يكمل حتى يتناول الأسرار، كذلك كل من يرسم شماساً أو كاهناً تكمل هذه البركة ويكمل هو بالتناول [١].

٢- التفسير السري للناقوس:

يضرب الناقوس [٢] للأسباب التالية:

أولاً: لأن استخدام قطعة الخشب للدلالة على الخطية التي كانت بسبب الشجرة والتي كانت عصياناً للوصية وطرداً من الفردوس. وبخشبة الصليب صار لنا الفداء من العصيان، ولذلك كلما سمعنا صوته نرشم ذواتنا بعلامة الصليب قائلين "باركني يا رب"، أي اسمح لي يا رب أن أسبحك على الفداء الذي قيل عنه "يا رب أفتح شفتي" (مزمور ٥١: ١٥).

ثانياً: لأن البوق كان يجمع الجيوش للملك، حتى يهتفون ويمجدونه، وهكذا يجمعنا الناقوس لكي نسبح المسيح ملكنا.

ثالثاً: لأن البوق يجمع جيوش الملك لكي تستعد للقتال ومنازلة العدو وهكذا يجمعنا الناقوس لكي نحارب الشيطان عدو جنسنا.

---

(١) ديونيسيوس الأريوباغي رئاسة الكهنوت فصل ٤ مجلد ٣: ٤٢٤.
(٢) الكلمة السريانية "ناقوساً" واليونانية Σεμαντρον.

رابعاً: لأن البوق يجمع جيوش الملك لتوزيع العطايا عليهم، وهكذا يجمعنا الناقوس في حضرة المسيح ملكنا الذي يعطينا هذه العطايا، مغفرة الخطايا، وقبول صلواتنا، وكل العطايا الروحية الأخرى.

معنى قدوس الله:

يليق بنا أن نقول قدوس الله.. أولاً: فمن الذي علمنا أن نقول له قدوس؟ وثانياً: لماذا نقول قدوس الله؟ وثالثاً: لأي أقنوم من أقانيم الثالوث نوجه التقديس؟ ورابعاً: ما هو معنى "قدوس الله، قدوس القوي، قدوس الذي لا يموت، الذي صلب عنا ارحمنا"؟

أما من الذي علمنا أن نقول ذلك، فإن البعض يقول أنها مأخوذة من النبي أشعياء، الذي رأى رؤيا عجيبة من الله. السارافيم يقدسون رب المجد ويقولون "قدوس.. رب الجنود" (اشعياء ٦: ٣) ومن أشعياء أخذ الآباء القديسون هذه التسبحة لاستعمالها في الكنائس. بينما يقول البعض أن ربنا يسوع عند صلبه وبعد أن مات وأسلم الروح في يدي أبيه، جاء السارافيم معاً حول جسد المسيح، وقالوا هذه التسبحة، ولم يقولوا الذي صلب عنا فهو لم يصلب من أجل الملائكة، بل من أجل جنس البشر. وأثناء ذلك كان يوسف الرامي المشير حاضراً، وهو الذي جاء ليطلب جسد المسيح من بيلاطس، لكي يكفنه بالحنوط، فسمع يوسف الرامي الملائكة يقولون "قدوس الله.. قدوس الحي الذي لا يموت" فاستنار عقله وأضاف هو "الذي صلب عنا أرحمنا".

ويقول البعض الآخر أن أغناطيوس الناري (١) وهو تلميذ بولس الرسول هو الذي ثبت استعمال هذا التقديس وهو الذي قسم الكنيسة إلى قسمين، قسم يصلي،

---

(١) الشهيد أغناطيوس الأنطاكي، استشهد عام ١٠٧م.

والآخر يجيب عليه مثل مجمع اليهود، ومن أغناطيوس إلى يومنا هذا ثبتت هذه العادة. ويقولون أن أغناطيوس كان عقله يخطف إلى السماء، ويرى أجناد الملائكة، بعضهم يرتل ويسبح والبعض يجيب، وسمع هذه التسبحة في السماء، وهذا الرجل القديس هو الذي ثبت ذلك في الكنيسة.

والسؤال الثاني: لأي من أقانيم الثالوث نوجه التسبيح؟ نقوله للابن الذي تجسد وتأنس لأجلنا، ولا نشترك مع الهراطقة الذين يقولون، قدوس الله الآب، قدوس الابن القوي، قدوس الروح القدس الذي لا يموت.

ومعنى هذا أن الذي صلب عنا ليس الابن بل اقنوم رابع، وبذلك يعترفون بأربعة وليس بثالوث مثل المسيحيين.

ونحن نقول أننا نوجه التسبيح للابن نفسه، الذي لأجلنا نحن البشر صلب ونقول له "قدوس القوي... الذي صلب عنا ارحمنا".

والسؤال الثالث: لماذا نقول قدوس الله؟ نجيب: أننا نقدم الشكر للكلمة الذي تجسد لأجلنا وصلب، ومات وفدانا، ولذلك نقدسه بهذا التسبيح.

والسؤال الرابع: ما معنى قدوس الله؟ نقول: لأننا نفهم أن الله الكلمة وهو الغني، صار فقيراً لأجلنا، وصار إنساناً دون أن يفقد لاهوته، بل أظهر أنه الإله الذي صار جسداً دون أن يتغير فنشكره قائلين قدوس الله.

أما معنى الكلمات "قدوس القوي" يعني الله الكلمة الذي تجسد وتقبل الآلام والجلدات والصلب، ورغم أن هذا يبدو ضعفاً، الا انه ظهر القوي وحده بشكلين، لم يتألم لاهوته، وإنما ربط الشيطان الملعون، وخلصنا من سطوة الطاغية، "أشهر السلاطين جهاراً في جسده" (كولوسي ٢: ١١ - ١٥) ونشكره، ونقدسه "قدوس القوي" لأنه استطاع وهو القوي أن يتجسد دون أن يتغير وأن يتألم ويصلب ويموت ويظل غير متألم وغير مائت. وما معنى "الذي لا يموت" لأن الله الكلمة نفسه الذي

واجه الموت في جسده، ظل غير مائت، بل نزل إلى الجحيم، وأخرج نفوس الأسرى، وقام في اليوم الثالث، وأعطانا العربون العظيم بالقيامة من الأموات وبالتالي، حياة عدم الموت، فنشكره، الذي لا يموت.

أما معنى "الذي صلب عنا ارحمنا". فإننا نفهم أنه احتمل كل هذا لأجلنا حتى أنه بذل ذاته على الصليب، ونقدم له الشكر قائلين "الذي صلب عنا ارحمنا" أي الآن كما في كل آن، أنت ترحمنا.

٤- قراءة الأسفار:

نقرأ الأسفار لهذه الأسباب:

أولاً: لأن الأسفار تقدم لنا الطعام الروحي للنفس، وتتغذى النفس بواسـطة الكلمة مثلما يتغذى الجسد على الخبز والماء.

ثانياً: لأ ا تعاليم الحياة والبشارة الأكيدة بملكوت السموات.

٥- المزامير وهليلويا:

تقال قبل قراءة الأسفار لأ ا مثل البوق، تجمع المؤمنين لـسماع الكلمـات الإلهية.

لماذا نقرأ العهد القديم قبل العهد الجديد؟ لأن العهد القديم هو شـهادة عـن الجديد، ولكي يعلن الجديد تمام العهد القديم.

٦- ما معنى: "قفوا حسناً":

وهو ما يقوله الشماس قبل الإنجيل - أي لـنكن في سـكوت ولنـسمع. والشماس يحث الشعب على ثلاثة أمور: أن يقفوا حسناً وأن يصمتوا ولا يتكلمـوا - أن يفهموا ما يسمعونه - وأن لا يسمحوا لأفكارهم بالتجوال.

٧- السلام لجميعكم:

التي يقولها الكاهن قبل الإنجيل: نقول أن هذا يعني أنها تحمل بشارة بالخبر السار أي سلام المسيح. الذي جعل السماء في سلام مع الأرض، والشعب مع الشعوب، حتى أن الملائكة قالت "ها أنا أبشركم بفرح عظيم" (لوقا ٢: ١٠). "وأيضاً ما أجمل أقدام المبشرين بالأخبار السارة" (أشعياء ٥٣: ٧ - رومية ١٠: ١٥)، ولأن الإنجيل "Ευαγγελιον" يعني الخبر السار.

٨- ما يقوله الشماس بعد الإنجيل:

يحث الشعب على أن يقدموا الصلوات والتضرعات لله الكلمة الذي أكمل التدبير. ويقول الشماس "أخرجوا أيها الموعوظون" ويضيف إلى ذلك أيضاً الساقطين، قبل تعميدهم، ولذلك لا يحضرون الأسرار فهم لا يشتركون فيها لأنهم لم يعتمدوا أي أن خطاياهم لم تغفر ولا تقدسوا بالمعمودية.

٩- ماذا يعني المذبح؟

يقول القديس ديونيسيوس أنه يدل على عمانوئيل الذي هو شجرة الحياة، والبعض يقول أنه يدل على الصليب الذي صلب عليه الرب وذبح وقدم ذبيحة. ومار يوحنا ذهبي الفم يقول أنه يدل على قبر المسيح. ونحن نعلم أن المذبح يدعى المسيح وشجرة الحياة والصليب وأسماء أخرى، لكن المذبح يدل على القبر الذي وضع فيه المسيح بعد أن سمر في الصليب، ولذلك عندما نبني المذبح نجعله طويلاً من ناحية الشمال والجنوب ليكون على شكل قبر.

وإذا كان المذبح يدل على الصليب - كما يقول البعض - ونحن نقدم عليه الجسد ودم المسيح، فمن الواضح أننا نفعل ذلك ذكرى صليبه وذبحه.

المذبح يدل على القبر لا سيما وأننا نقول "نصنع ذكرى آلامه وموته وقيامته" وموته وقيامته كانا في القبر ومن القبر. إلى ماذا يشير وضع الخبز والخمر على المذبح؟ الخبز هو جسد الله الكلمة والخمر دمه.

١٠- لماذا نمزج الكأس؟

نمزج الكأس بالخمر والماء ولا يكون فيها خمر فقط لأن دماً وماء نبعـا مـن جنب الرب عندما طعن في جنبه بالحربة، ولم ينبع دم فقط بل دم وماء كمـا شـهد يوحنا (يوحنا ١٩: ٣٤).

١١- ما هي رتبة الكاهن؟

أولاً: الكاهن في مكان المسيح الذي كسر جسده أمام الرب ووزعـه علـى تلاميذه وقال "هذا هو جسدي" وثانياً: الكاهن هو اللسان في رأس الجسد أي جماعة المؤمنين فهو الذي يتضرع لله عن الكنيسة كلها. وثالثاً: هو الذي يرسم الأسرار أمام المؤمنين، ورابعاً: هو الوسيط بين الله والناس.

١٢- عن الشمامسة:

الشمامسة في رتبة الملائكة، وهم يخدمون خدمة الشاروبيم والسارافيم الذين يغطون المذبح بأجنحتهم، ليس لكي يبعدوا الذباب بل لكي لا يسمحوا لأحـد مـن الاقتراب من الأسرار، وما على الأرض هو مثل الذي في السماء. ويشغل الشمامـسة مكان اللاويين في العهد القديم. ويقفون عند المذبح مثل الملاكين الذين كانا عند الرأس والقدمين عندما كان يسوع المخلص في القبر.

١٣- عن البخور:

البخور الذي يخرج من المذبح إلى صحن الكنيسة ثم يعود إلى المذبح (الإشارة هنا إلى المبخرة) يعني هذه الأمور:

أولاً: صلاح الثالوث القدوس الذي يشمل كل القديسين إلا أنه لا يتغير عن ثباته ولا يقل.

ثانياً: انه يدل على الله الكلمة، الذي نزل من السماء وتجسد وصار رائحة ذكية وبخور مصالحة. أي ذاته التي قدمها لله الآب عنا، وصنع خلاصاً لكل العالم، ثم عاد إلى أبيه دون أن يتغير أو يفقد لاهوته.

ثالثاً: ومبخرة البخور التي تخرج من المذبح تدل على عمانوئيل، وتدور في صحن الكنيسة على كل المؤمنين وتأخذ رائحة المؤمنين الذكية وتعود لكي تقدمها إلى عمانوئيل أي المذبح.

رابعاً: إننا في وليمة المسيح الملك نجلس معه ومع الكنيسة الجامعة ويمر الشماس، حاملاً للمبخرة على المؤمنين بعد أن يقدم البخور للملك والملكة وعظماء المدعوين في الوليمة ثم الشعب، عوضاً عن العطور وغسل الأيدي والأرجل.

١٤- صلاة الصلح:

يليق أن نقول المجد لله في الأعالي بعد صلاة الصلح - بعد تلاوة الخبر السار وسماع كلمة التعليم نصلي صلاة السلام (الصلح) والتي نختمها بتسبحة الملائكة لأن وحدة السماء والأرض جعلت الكل يفرح ويهلل ويمد يد السلام بالقبلة الرسولية.

السلام لجميعكم:

بعد أن يقبل الشعب بعضه البعض يقول الكاهن السلام لجميعكم لكي يكون السلام من الله كاملاً، وهو السلام الذي قال الرب لتلاميذه عنه " بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي ان كان لكم حب بعضكم لبعض" (يوحنا ١٣: ٣٥) وأيضاً يعرف الشعب أن غاية الوصية "تحب الرب الهك مثل نفسك".(متى ١٩: ١٩).

ومع روحك ايضاً:

يجيبون الكاهن، كما لو كانوا يجيبون المسيح ويقولون ومع روحك لأن هذا الذي أعطيته لنا في المعمودية أي السلام وهو منك: "سلامي أترك لكم سلامي أنا أعطيكم" (يوحنا ١٤: ٢٧)، نعترف به وأيضاً نقول للكاهن - حسبما ذكر القديس غريغوريوس - "السلام الذي تأخذه هو السلام الذي تعطيه".

١٥ - قبلة السلام:

السلام الذي نعطيه كل للآخر في هذا الوقت يعني ما يلي:-

أولاً: لأننا نستعد للشركة مع الله بجسده، فلا يمكن أن نشترك إذا كنا منقسمين وضد بعضنا البعض ولذلك نعطي السلام كلٍ للآخر، وعندما نقَبل بعضنا البعض فإن المصافحة من الخارج، تعني أيضاً المصافحة من الداخل، وليكون لنا في الداخل محبة واتفاق.

ثانياً: عندما نكون في سلام كلٍ مع الآخر فإننا في سلام مع الله.

ثالثاً: السلام الذي نتبادله يزيل ويطفئ العداوة المتبادلة.

رابعاً: وبالسلام نعرف أن المسيح وضع حداً للعداوة بين الله والإنسان والشعب والشعوب والنفس مع الجسد. وجعل السلام والمحبة يملكان علينا.

خامساً: بالسلام الذي نعطيه نتمم كلمة الرب الذي قال "إذا قدمت قربانك على المذبح.. اترك قربانك وأذهب اصطلح مع أخيك" (متى ٥: ٢٣ - ٢٤).

١٦- غسل يد رئيس الكهنة والكاهن قبل الأسرار:

لماذا يغسل الكهنة أيديهم في هذا الوقت بالذات، وأمام المذبح؟ لكي يـتعلم الشعب كله أنه يجب عليهم أن يغسلوا ذوا م من كل الاهتمامات الدنيوية. وغـسل الأيدي أيضاً يعني انه يعلن انه طاهر الضمير أمام الرب لأن المسيح هو فاحص القلوب وعارف الخفيات وإليه وحده يسلم فكره وحواسه. وغسل اليدين يعني انه طاهر مـن كل خطية ولكنه ليس كاملاً أمام الله [(١)] وأخيراً أنه مثل استعداد كهنة العهد القـديم للخدمة.

١٧- رفع الابروسفارين:

لماذا يوضع الابروسفارين ويغطي الأسرار، ولماذا يرفع ويوضع ثلاث مرات؟

أولاً: لأنه يدل على سرية وعدم ظهور اللاهوت المخفي في هذه الأسرار.

ثانياً: أنه رمز للحجر على الذي وضع على القبر.

ثالثاً: لأن عمانوئيل غطته ذبائح الناموس والخدمة الرمزية، ولكن الآن كـل هذا قد أزيل. ولأن اللاهوت المخفي في الأسرار غير معلن لغير المعمدين وغير المؤمنين. يرفع الأبروسفارين ويوضع ثلاث مرات، لهذه الأسباب: لأن الرسول بطرس لم يدرك أن نعمة المعمودية لمغفرة الخطايا، قد أعطيت للأمم أيضاً، لأن الرؤيا الـتي رآهـا أي الوعاء الذي يجمع كل حيوانات الأرض من طيور وزواحف، الطاهر وغير الطـاهر،

---

(١) ديونيسيوس الاريوباغي، رئاسة الكهنوت فصل ٣ مجلد ٣: ٤٣٧.

وكان الله يريد أن يدله على أن المغفرة ليست فقط لشعب اليهود الذين طهرهم الناموس، وإنما لأن نعمة المعمودية المقدسة أعطيت للشعوب أيضاً أي النجسين.

وعندما يرفعون الابروسفارين ويلونه يدلون على أن عطية الأسرار قد وهبت المغفرة لكل الذين يؤمنون بالمسيح من اليهود والأمم.

١٨- رحمة السلام وذبيحة التسبيح:

لقد انسكب سلام الله علينا وها هي الذبيحة التي قُدمت عن جنسنا وأعطت لنا الغفران. ويقول الشعب السلام لأن الذبيحة أعطت السلام بين السماء والأرض والشعب مع الشعوب، ثم ذبيحة التسبيح هو الاعتراف الذي قدمه المسيح في العلية عندما شكر الله الآب نيابة عنا، كما يقول بولس "الخبز الذي نباركه والكأس التي نعترف لها..." (١ كورنثوس ١٠: ١٦).

١٩- محبة الله الآب:

هنا ينتهي القسم الأول من القداس، ويبدأ الكاهن القسم الثاني بقوله "محبة الله الآب.. وشركة الروح القدس.. مع جميعكم"، فالكاهن يسلم الشعب للثالوث الأقدس ويرشم الكل بثلاثة صلبان، لكي يكون وقوفهم في الكنيسة نقياً وبلا عيب. ويقول الكاهن "محبة الله الآب" يعلن أن الله في محبته قدم ابنه للموت عنا، كما يقول الرسول، وبقوله "نعمة الابن الوحيد"، يعلن انه بالنعمة ذاق الابن الموت عن الكل، دون أن يكون أحد مستحقاً لموت الابن الوحيد. وبقوله "وشركة الروح القدس" يعلن أن حلول الروح القدس سوف يتم لتقديس الذبيحة.

٢٠- ارفعوا إلى فوق قلوبكم:

أي ان الأسرار سوف تعلَن وأبواب السموات قد فُتحت والأرواح المقدسة والقوات والأبرار سوف يحضرون هذه الكرامة العظيمة، فإلى فوق نرفع عقولنا وأفكارنا ولا نعود بعد نتطلع للأمور الأرضية.

ويجيب الشعب "هي عند الرب" والبعض يقول "نحن عند الرب الإله" ومعنى "هي عند الرب" أي عند الله الآب إلهنا الذي منه الرحمة وعند الابن المتجسد الذي خلصنا، وعند الروح القدس الذي أعطانا التبني بالمعمودية المقدسة وسجل أسمائنا في سفر الحياة "افرحوا لأن أسمائكم قد كتبت في السموات" (لوقا ١٠: ٢٠).

لنعترف للرب [١] :

نحن نقدم الشكر للرب بخوف:

أولاً: لأن الأسرار الخفية ستعلن.

ثانياً: لأن الملائكة والقوات السمائية تقف حول الذبيحة.

ثالثاً: لأننا سوف ننال عطية الحياة العظمى.

مستحق وعادل:

أي مستحق وعادل أن نعترف لله بخوف، ولأن الكاهن والشعب يرون أنهم قد صاروا جسداً واحداً ولذلك بعد أن يأخذ موافقة الشعب ينحني لهم معلناً أنه سوف يقدم الذبيحة ويقول معهم سراً "مستحق وعادل..." وهذا هو بداية الأنافورا.

([١]) الاعتراف والشكر بمعنى واحد ولذلك جاءت كلمة نعترف أو نشكر في بعض النسخ لا سيما في الترجمات العربية.

يقف الكاهن ويسبح ويعطي المجد لمن تسبحه السموات لأن الله الخالق العظيم هو وحده الذي يستحق التسبيح وتنضم الكنيسة مع الخليقة المنظورة وغير المنظورة في التسبيح.

٢١- السارافيم الذين لهم ستة أجنحة:

باثنين يغطون وجوههم، وباثنين يغطون أرجلهم ويطـيرون بـاثنين، وهـم يصرخون كل واحد "قدوس.. رب الجنود" يغطون وجوههم لأن الله أزلي بلا بدايـة فهو غير مدرك ويغطون أرجلهم لأن الله بلا نهاية فلا نهاية لخدمته، ويطيرون باثنين أي دوام التسبيح.

والتقديس المثلث يعني أن الله الذي بلا بداية وبلا نهاية هو الثالوث القـدوس الأقانيم بقولهم "رب الجنود" يدلون على أن الثالوث له طبيعـة واحـدة، والجنـود (الصباؤوت) أي قوته التي تعلو على كل الكائنات، القادر على كل شيء.

(أ) لقد رأى أشعياء أقنوم الابن، جالساً على عرش عظيم والساروفيم حولـه وهم يغطون وجوههم لأنهم لا يدركون أزليته، ويغطون أرجلهم، لأنهم مندهشون من اتضاعه الذي جعله يتجسد ويصبح انساناً ويعبرون عن عدم قدرتهم على الوقوف على سر اتضاعه، فهم يطيرون باثنين لأنهم يسبحون على الدوام ويقدسونه بغير سـكوت ويقولون ثلاث مرات قدوس، أي أنه قدوس مع الآب والروح القدس، ويقولون لـه الرب لأنه من ذات جوهر الآب والروح القدس. ولأنه القادر على كل شيء، فهـو رب الجنود الذي رغم تجسده لم يفقد ألوهيته، بل غلب الشيطان والموت، وخلـص الجنس البشري.

(ب) يغطون وجوههم لكي يعلنوا لنا أنه رغم أنهم من طغمة عالية، إلا أنهم لا يتجاسرون على أن يفصحوا عما هو غير مسموح لهم حسبما قيل بواسطة أحـد

الحكماء "لا تبحث الأمور التي تعلو عنك" (الجامعة ٣: ٢٢) ويغطون أرجلهم، أي لا يقدرون على الاقتراب من سر الله الفائق لا سيما الدينونة، حسبما قيل "ما يعلو عليك لا تفحصه" (جامعة ٣: ٢٢) ويطيرون بالجناحين اللذين في الوسط للدلالة على أ ـم يحتفظون بما لهم باعتدال، أي الأمور التي أعطيت لهم بواسطة الله لأ ـم لا يتعـدون الشريعة التي ثبتها الله خالقهم ولا يتشبهون بالشيطان الذي احتقر شريعة الله.

ويجيب الشعب "قدوس... السموات والأرض مملوءتان من مجدك الأقـدس".

أوصنا في الأعالي مبارك الآتي باسم الرب..".

يقول الشعب هذه التسبحة للأسباب التالية:

أولاً: لأن الساروفيم يسبحونه ا فهو رب الجنود.

ثانياً: لأنه أتى بالكون من العدم.

ثالثاً: لأنه يحفظ الكون فلا يذهب إلى العدم.

رابعاً: وتجسد دون أن يتغير فهو الرب.

خامساً: وغلب الخطية والموت والشيطان وخلصنا.

سادساً: ورغم أنه تجسد في جسد ضعفنا إلا أنه ظل الرب الإله القادر علـى كل شيء.

لهذه الأسباب نقول أن السماء تسبحة وكذلك كل الأرض.

هوشعنا هي عبرانية وأوصنا يونانية ومعناها الخلاص ويضاف اليها في اليونانية "ا د" لأن يسوع هو المخلص وهو رب ا د، حسب شهادة، جبرائيل الملاك الـذي قال ليوسف "ودعى اسمه يسوع (يهوشع) لأنه يخلص شعبه من خطاياهم". (مـتى ١: ٢١)، وقد خلصنا من الخطية والشيطان والموت.

وهنا نحن نسبحه على الخلاص الذي أعده للخليقة كلها. "مبارك الآتي باسم الرب" والمقصود هنا مجيئه الأول للخلاص ولكنه سيأتي مرة ثانية لكي يدين ويكـافئ

الكل. "باسم الرب" لقد جاء باسم "الآب" في المجيء الأول، كما قال، وسيأتي أيضاً كذلك باسم "الآب" في المجيء الثاني، لكي يكون من الواضح أنه لم يأت باسم آخر، أو أنه غريب عن الآب بل هو واحد معه في الجوهر "أنا والآب واحد" (يوحنا ١٠: ٣٠)، وقال ايضاً "كل ما للآب هو لي" (يوحنا ١٦: ١٥)، "والذي رآني فقد رأى الآب" (يوحنا ١٤: ٩).

٢٢ التقديس للثالوث

وبعد ذلك يقف الكاهن ويقدم التقديس للثالوث، ويشترك مع السارافيم ومع الشعب في تقديم التقديس للثالوث للآب والابن والروح القدس. ثم يوجه الكلام لأقنوم الآب ويعلن تدبير الابن الذي أكمله لأجلنا وبعد أن يتحدث عن تدبير الابن يخبر بما حدث في العلية وكيف عندما جاء الابن لآلامه الطوعية (الاختيارية)، أخذ خبزاً وشكر وبارك وقدس. وعند ذلك يمسك بالخبز لكي يعلن أن الابن أخذ جسداً من العذراء، ويقول ونظر إلى فوق إلى الآب، لكي يعلن مسرة الآب، وأن الابن هو واحد مع الآب.

وعندما يقول شكر يعلن أمرين:

الأمر الأول أنه شكر الآب، وهو في أقنومنا [1]، على تدبير ابنه.

والأمر الثاني، الشكر هو قبول بإرادة الآب، وكما لو كان يقول له أشكرك لأنني قبلت إرادتك أيها الآب أن أتألم وأن أموت عن الجنس البشري.

"وبارك" تعني أنه: أولاً: رفع اللعنة التي كانت ضد جنسنا بسبب الخطية وبارك الجنس البشري بسبب تجسده، وعبرت عن ذلك أليصابات بقولها "مباركة أنت

---

[1] أو في شخصنا، أي نيابة عنا.

في النساء ومباركة هي ثمرة بطنك" (لوقا ١: ٤٢). وثانياً: أنه يعلن لنا أنه ليس أقل من الآب، فالآب هو الذي يبارك ولكن عندما يبارك الابن يعلن مساواته بالآب.

"وقدس" يعلن هنا أمرين: أولاً: أنه قدسنا من الخطية، كما قيل "ها هو حمل الله الذي يرفع خطية العالم" (يوحنا ١: ١٩) وثانياً: لقد قدس نفسه لأجلنا، كما قال: "لأجلهم أقدس نفسي ليكونوا مقدسين بالحق" (يوحنا ١٧: ١٩).

و "كسر" وبذلك علمنا آلامه وصليبه وأنه سوف يذبح وسيطعن بالحربة ويموت. ومن الضروري أن نعرف هنا وفي هذه المناسبة بالذات أن الكاهن عندما يأخذ خبز الافخارستيا ويكسرها دون أن يفصل، فهو يعلن أن المسيح مات على الصليب وأنه مات وانفصلت نفسه عن جسده، ولكن لاهوته لم ينفصل أو يفترق عن نفسه أو جسده، ولكنه ظل الأقنوم الواحد غير المفترق [1] وأنه ظل متحداً بنفسه وجسده. فعلى الكاهن أن يكون حذراً حتى يكسر القربانة كسراً قليلاً حسبما شرحنا دون فصل، والكسر هنا يشير إلى انفصال النفس عن الجسد، كما قلنا دون انفصال اللاهوت عن النفس أو الجسد.

وأعطى تلاميذه قائلاً خذوا كلوا، فأكل التلاميذ الجسد بدون تردد. "هذا هو جسدي.." أنه هو جسده ودمه الذي أخذه من العذراء، فالروح القدس الذي حل في أحشاء العذراء وجعل جسده من جسدها ودم الله الكلمة - هو نفسه يحل على المذبح ويجعل الخبز والخمر اللذين على المذبح جسد ودم الله الكلمة الذي أخذه من مريم.

ومن اللازم أن نعرف أنه منذ الخروج من مصر حتى علية صهيون كان هذا السر يقام بشكل رمزي وبدم وذبائح حيوانية حسب شريعة موسى، ولكن من العلية حتى نهاية الدهور يقدم الدم والجسد حقاً وليس بشكل رمزي.

([1]) هذه إشارة واضحة إلى كسر القربانة عند قوله "كسر".

"الذي يكسر عنكم وعن كثيرين" ليس عنكم أنتم فقط، بل عن كثيرين، فهو يعطى لمغفرة الخطايا وللحياة الأبدية، ولكنه يعطى للمؤمنين فقط لسببين لأنه يغفر الخطايا، وهذا لا يتم إلا لمن يؤمن. وثانياً: لأنه يعطي الحياة الأبدية والملكوت السماوي، كما قال هو في موضع آخر "كل من يأكل جسدي يحيا إلى الأبد" (يوحنا ٦: ٥-٥٨).

"وبعد العشاء مزج الكأس - دمي الذي للعهد الجديد" ما هو هذا العهد؟ وكيف نشأ؟ وكيف يؤثر ولا يؤثر؟ العهد هو وصية لإتمام عمل من الأعمال، وعندما يموت صاحب الوصية يتم تنفيذ الوصية فوراً، (عبرانيين ٩: ١٧) دون أي تغيير في الوصية. وإذا لم يمت الموصي، لا يمكن تنفيذ الوصية. وطالما هو حي فهو وحده القادر على أن يغير، أما بعد موته فلا تغيير. وهذا يعلن أمرين:

أولاً: أن الموت هو الذي أسس العهد.

ثانياً: أن الميراث الذي أوصى به، أو سيوصي به لمن يريد أن يعطيهم قد تأسس بدم المسيح.

فالعهد الجديد قائم على دمه لأن الرسول يقول "بدون سفك دم لا توجد مغفرة" (عبرانيين ٩: ٢٢) وكان سفك دم الذبائح هو أساس العهد القديم.

لكن ما الذي أوصى به المسيح بسفك دمه وما هو العهد الذي أقامه؟

أولاً: لقد جعلنا أبناء للآب بالمعمودية.

وثانياً: غفر لنا كل ما علينا من ديون بجسده ودمه.

وثالثاً: أعطانا ميراث الملكوت.

ورابعاً: الفرح الذي لا يمكن أن نتحدث عنه والذي يحفظنا في هذه الدنيا.

٢٣- "هذا اصنعوه لذكري"

أي افعلوا هذا كما فعلته أنا "لأن كل مرة تأكلون من هذا الخبز وتشربون من هـذه الكأس تخبرون بموتي وتعترفون بقيامتي" أي أنه بالإضافة إلى أنه يغفر خطاياكم، كلما أقمتم هذا السر، أنتم تعملون أمرين:

أولاً: تذكرون موتي.

ثانياً: تعترفون بقيامتي.

"إلى أن آجيء" من الصواب أن نعرف أنه من مصر حتى العلية كـان الـسر يحتفَل به رمزياً، أي بدم ولحم الحمل، أما من العلية حتى اية العالم فبـدم وجـسد المسيح ربنا.

ويجيب الشعب "بموتك يا رب نبشر..." أي حسب وصيتك نحـن نبـشر بموتك، لأنه بموتك أنت أمت الموت، "وبقيامتك نعترف" لأ ا صارت عربون القيامة وباكورة ثمار الحياة الجديدة. وأيضاً "ننتظر مجيئك" أي أن نشرب من الثمار الروحيـة للخمر الروحي في ملكوت أبيك. والخمر الذي سوف نشربه معه في الملكـوت هـو التعليم الروحي الجديد الخاص بالأمور العتيدة أن تحدث.

يقول الشماس " دوء وخوف قفوا" أي أنه يطلب من الـشعب أن يـستعد لـ ول الروح القدس وأن يقفوا في هدوء، لأن عطايا الروح القدس تعطى في صـمت وبخوف حتى لا يحدث تشويش ويصبح الشعب مثل الإسرائيليين يطلبوا أن لا يسمعوا الرب بل موسى (خروج ٢٠: ١٩).

٢٤- استدعاء الروح القدس:

من اللازم أن نسأل عن حلول الروح القدس، لماذا يحل على الخبز والخمر اللذين نضعهما على المذبح، وهو يحل عليهما أقنومياً [1] لماذا يحل عليهما الروح القدس؟ للأسباب التالية:

كما حل في أحشاء العذراء مريم وحسبما قال الملاك "الروح القدس يحل عليك" (لوقا ١: ٣٥) وكَوّنَ الجسد من العذراء، أي جسد الله الكلمة، وهكذا يحل على المذبح على الخبز والخمر لكي يجعلهما جسد ودم الله الكلمة الذي ولد من العذراء. وأيضاً كما في التجسد أراد الآب أن يولد الابن من العذراء ويتجسد وأن يحل عليها الروح القدس، هكذا في المذبح يريد الله الآب أن يأتي أقنوم الابن وأن يتحد بالخبز والخمر لكي يصبحا جسده ودمه. وهكذا يأتي الابن لكي يتحد بهما (الخبز والخمر) ويجعلهما جسده ودمه، وهكذا يأتي الروح القدس ويتحد بهما لكي يجعلهما جسده ودمه كما فعل في العذراء مريم. ولذلك ينحني الكاهن بخوف ويصرخ من قلبه في صمت لله الآب، ويسأل ذاك الذي هو أصل كل شيء قبل الأزمان والذي منه كل عطية صالحة (يعقوب ١: ١٧)، أن يرسل على القرابين وعلى الشعب، ولأنه توجد أرواح كثيرة مقدسة ليست هي الروح القدس، يقول الكاهن "روحك القدوس" ويضيف "الرب المحيي الذي يعطي الحياة للملائكة"، ويقول "المساوي لك في الجوهر" أي الذي ليس مثل الأرواح المخلوقة بل الذي هو واحد مع الآب والابن في الجوهر.

ويصرخ الشعب ويقول "يا رب ارحم" لماذا؟ لأنهم أبصروا بالإيمان أن الروح القدس نزل وكمل الأسرار [2]، ولذلك يصرخون للآب بخوف قائلين ثلاث مرات "يا رب ارحم" للدلالة على سرعة الطلبة وأهمية استجابتها.

---

[1] في النص السرياني qenomaith "قنومث" وهو اسم الفاعل من "قنوما" أي أقنوم. ويمكن مراجعة نفس الكلمة في صلاة استدعاء الروح القدس في القداس الكيرلسي.

([2]) راجع كلمة أكمل في بداية الدراسة.

٢٥- قرع الصدر

وبعض الكهنة غير المتعلمين يقرعون صدورهم أو جباههم، وهـذه ليـست المناسبة التي تقتضي مثل هذا التصرف لأن أولاً: عطايا الروح القدس تعطى في صمت وبدون ضوضاء. وثانياً: لأن الله الكلمة أتى وحل في مريم في هدوء وتجسد منها بدون جلبة أو ضوضاء، وهكذا يليق في هذه المناسبة أن يأتي هو بأقنومه ويتحـد بـالخمر والخبز على المذبح. وثالثاً: لأننا نحن لم نأخذ روح العبودية للخوف (روحية ٨: ١٥). ولذلك علينا أن لا نقوم بجلبة لأننا أخذنا روح البنوة الذي نصرخ به "أبا أيها الآب" (رومية ٨: ١٥). ولأننا أبناء نصرخ "أبا أيها الآب" (غلاطية ٤: ٦). ولأن الـروح القدس لم يـ ل كما نزل على جبل سيناء في بروق ورعود، إلا لأن الإسرائيليين كانوا في حالة العبودية.

٢٦- تذكار الراقدين

وبعد ذلك يذكر الكاهن والشماس، الراقدين لكي يـستريحوا في أحـضان ابراهيم واسحق ويعقوب. ويطلب غفران الخطايا، ويجيب الشعب "كما كان وهكذا يكون من جيل إلى جيل"، وهذا يعني الماضي والحاضر، ولكن دهر الدهور هو المستقبل والعالم الحاضر والآتي أيضاً، وكما أن اسمك أيها الآب وابنـك الوحيـد وروحـك القدوس يمجد ويسبح في الماضي، وفي الحاضر وفي المستقبل أيضاً، وليس فقط في أبعاد الزمان الثلاثة، بل في هذا العالم والعالم الآتي أيضاً.

٢٧- القسمة

ماذا يفعل الكاهن في هذه اللحظة: يمسك بالقربانة ويقسم إلى اثـنين لكـي يؤكد أن الله الكلمة مات بالجسد وذبح وانحنى بالصليب. ويأخذ جزءاً مـن الجـسد ويغمسه في الدم ثم يرشم الجسد، لكي يعلن أن الذي ذبح قد غمس كله في دمه، ذاك

الذي أعطاه في العلية ثم قدمه على الصليب، عندما طعن في جنبه بالحربة وخرج منـه دم وماء، وعندما يأخذ الدم لكي يرشم به الجسد يؤكد وحدة النفس والجسد. ويعلن أن النفس الإنسانية للكلمة المتجسد قد انفصلت عن جسده وأن نفسه عادت واتحدت بجسده، لكن لاهوته لم ينفصل عن جسده أو نفسه [١] وأيضاً لكي يعلن أن الخبز هو الجسد وأن الخمر هو الدم لأن الدم هو النفس، كما هو مكتوب أن نفس كل جسد في دمه (لاويين ١٧: ١١-١٤)، يؤكد وحدة عمانوئيل الذي لا ينقسم من بعد اتحاد الاثنين، وأن قسمة الجسد كاملة هي عدم انفصال عمانوئيل إلى اثنين وأيـضاً لكـي يؤكد أنه بعد أن صلب على الصليب جعل الكل واحداً بدم صـليبه (كولوسـي ١: ٢٠)، ووحدة السمائيين مع الأرضيين. وأما الجزء الذي في الوسط فعندما يأخذه وهو على شكل دائرة فهذا يعني أن الخلاص عن العالم كله.

لماذا يأخذ بعض الجسد إلى الدم ويرشم به الدم؟ لأن النفس هي في الدم ولأن النفس عادت واتحدت بالجسد عندما قام من الأموات وليس لأن الجسد هـو الـذي ذهب واتحد بالنفس [٢].

ولماذا يأخذ جمرة ويطرحها في الكأس؟ لكي يؤكد أن الدم والجسد واحـد ولكي يعلن أن الدم نابع من الجسد وليس الجسد من الدم حسب طبيعـة الكائنـات الحية. ولكي يعلن أنه مع وجود الدم في الكأس والجسد في الصينية، إلا أنه جسد ودم الله الكلمة الواحد.

---

(١) هذا ما نراه في النص المعروف باسم القسمة السريانية وهنا الإشارة إلى الرشومات التي تأتي بعد القسمة.
(٢) هذا ظاهر في الطقس القبطي عندما يرفع الكاهن الصينية ويقر ا من الكأس في النهاية، ثم وهو يحمل الجسد على يده ويضعه قرب الكأس.

٢٨- رشم الجسد بالدم

وما هو سبب رشم الجسد بالدم بالصليب عدة مرات؟ لأن كل شيء يتقدس ويكمل في الكنيسة بالصليب، سواء كان الميرون أم ميـاه المعموديـة أم دم وجـسد الكلمة، أم وضع اليد، تقديس المذابح والكنائس والمنازل.

فالصليب هو الذي يقدس الميلاد الثاني في المعمودية ويكمل الذبيحـة غـير الدموية وكل خدمة الكهنوت المقدسة. والصليب يقدس كل شيء في الكنيـسة ولا يتقدس هو فهو حضور المسيح.

ورشم الصليب ثلاث مرات هو تكريم للثالوث لأن الصلبان الثلاثة دلالة على أن واحداً من الأقانيم هو الذي تجسد أي الكلمة ابن الله.

والثلاثة صلبان تدل على دفن الرب وقيامته في اليوم الثالـث. والرشـومات الثلاثة التي تتم عندما يقول "أخذ خبزاً وشكر وبارك وقدس لكي يؤكد أن الآب يريد والابن يقبل والروح القدس يقدس وهو نفسه ما يحدث في استدعاء الروح القدس لأن الآب يريد والابن يقبل والروح القدس يقدس.

أبانا الذي في السموات: هي صلاة الثقة التي تعلن أننا أبناء الله بالنعمة.

الشرح الثالث

شرح القداس الإلهي
لآباء الكنيسة القبطية الأرثوذكسية
المنسوب لسمعان بن كليل [١]

الفصل الأول

العشية وهي بداية اليوم الجديد

يخبرنا الإنجيل المقدس بأن ربنا يسوع المسيح له ا د كان يختم أيـام أعمالـه بمعجزات كثيرة في العشية أو في المساء. لقد أسس الرب الخلاص بمجيئـه في آخـر الأزمنة لأنه كان مزمعاً أن يظهر عندما تغرب شمس العتيقة (العهد القـديم) ويأفـل

([١]) هذه الدراسة تقوم على شرح القداس الإلهي كما ورد في كتاب "حكمة الآباء المصريين" وقد أُضيفت لها ملاحظات ودراسات أخرى من مصادر مختلفة وضعت في الحواشي حتى يبقى النص المطول متآلفاً وبلا فجوات. وكتاب حكمة الآباء المصريين قد نشر قسم منه في كتاب "شرح معاني رشم الصليب" وقد ساعد الإقبال عليه وتوزيعه على نشر هذا الجزء. ويأتي شرح القداس الإلهي هنا ابتداء من صلاة عشية حتى صلاة باكر ثم القداس الإلهي نفسه. ومع ان الشارح لا يذكر إلا القليل إلا انه يضع الخطوط اللاهوتية الأساسية ويتخذ الطقس الأساس الذي يبني عليه شرحه مما يجعل هذا الشرح من أهم ما يمكن أن نقرأه وندرسه في العصر الحالي. العناوين والتقسيم إلى فصول من وضع الناشر. إلهنا الذي أعطانا صلوات وطقوس الكنيسة هو قادر أن يجعلها قوة فعالة في حياتنا لكي تقوى ا نفوسنا وأجسادنا ويثبتنا على الإيمان الأرثوذكسي حتى النفس الأخير.

الناموس الموسوي ولذلك جاء لكي يجدد حياتنا ويظهر في عتمة المساء لكـي يحـول ذلك المساء إلى نور كقول النبي "أنه يكون نور في وقت المساء". وقد أشـرق النـور "للجالسين في الظلمة وظلال الموت" (متى ٤: ١٦) ولذلك السبب عينه مع غـروب شمس النهار يبدأ يوم الخلاص بربنا يسوع المسيح. فإذا جاءت الظلمة الطبيعية تذكرنا نور الحياة الجديدة ربنا يسوع المسيح له ا لـد الذي أشرق لنا ليس بنـور مـن هـذه الطبيعة بل بالنور الحقيقي الذي من عند الآب وقد أشرق لنا عندما تجسد من العذراء والدة الإله القديسة مريم. وبانقضاء اليوم وحلول العتمة يجتمع الشعب لتذكار الخلاص العظيم وهو عبورهم بحر هذا العالم ودخولهم أرض الراحة الحقيقية أي أرض كنعـان وهي أرض الأمم التي بالإيمان يستقرون فيها ويعيدون سبت السبوت أي يوم قيامة ربنا من الأموات. مبارك من يرتل مزامير الخروج من أرض مصر لأنه يعبر مع ربنا يسوع المسيح ليس فقط بحر العالم بل بحر مياه التقديس الذي كان البحر الأحمر مثاله. مـن أجل ذلك تجتمع الكنيسة وترتل هذه التراتيل الشجية المقدسة بفـرح وباهتمـام لأن الشعب يتأمل فيها ميراثه الروحاني الذي أخذه بعبور البحـر الأحمـر أي المعموديـة المقدسة ودخوله أرض الموعد مباشرة. فنحن لم نسير في أرض التيه (سيناء) وإنما مـن بعد عبور البحر الأحمر دخلنا مباشرة في ملكوت ربنا يسوع المسيح كملـوك نـالوا المسحة الملوكية التي اشتاق إليها أنبياء العهد القديم وملوكه وهي تلك التي تقول عنها أوشية الإنجيل " أن أنبياء وأبراراً كثيرين قد اشتهوا أن يروا ما أنتم ترون ولم يروه وأن يسمعوا ما أنتم تسمعوه" وأعلم أن الرؤية والسمع هي البشارة المفرحة لأننـا رأينـا المسحة عندما مسح ربنا في الأردن وسمعنا صوت الآب يشهد عن وحيده وهـو مـا نأخذه نحن في سر التبني أي الحميم الجديد. وأعلم أننا نجتمع في البيعة في المـساء لأن سفر الخليقة (التكوين) كان مساء وكان صباح (تكوين ١: ٥) فالمساء بدأ به كل يوم من أيام الخليقة لأن الرب كان مزمعاً أن يفتقدنا وأن يخلق من جديد الجنس العاصـي

والساقط ويجدد وجه الأرض كقول المزمور (١٠٤: ٣٠) والذين يجمعون في البيعة إنما يبدأون بذكرى عبورهم البحر الأحمر لأنه في مثل هذا المساء تمت المعجزة الخلاصـية التي ا أغرق الرب فرعون وكل مركباته وأجاز شعبه إلى الأرض التي أقسم لإبراهيم أ ا ستكون له ولنسله إلى الأبد أي الأرض التي تفيض بالبركة أي بركة الإيمان وهـي الكنيسة الجامعة الرسولية.

ومتى اجتمع الشعب فان الترتيل يصير استحسان للخلاص العظيم وهو ترتيل الهوسات الذي يبشر بمجيء يوم الرب أي يوم قيامته أو سبت السبوت يـوم الأحـد لمخلصنا الصالح.

ومتى رتل الشعب ذلك فإن الجماعة يقوى قلبها ولا تعود تنظر إلى الوراء إلى أرض العبودية بل إلى أرض الراحة والحرية التي وعد ـا الآب الـسماوي. لأن أول الترتيل هو مزمور ١١٦ "يا جميع الأمم باركوا الرب". وهو أيضاً ذات المزمور الذي يرتله الشماس في بداية القداس الإلهي عند تقديم الصعيدة، لأنه دعوة الآب الـسماوي للأمم لأن يكونوا شعبه الذي نال رحمة الرب العظمى ببشارة الإنجيل ويسبح بالهوس الرابع ومتى شكر الرب الصالح على إحساناته يطلب عن تخوم البيعة فالأواشي تتكرر في كل صلاة لأن من يجلس في البيعة الرسولية يعرف أن تخوم البيعة هـي الـسلامة والآباء والاجتماعات وما يضاف إليها من توسلات أخرى (باقي الأواشي).

أما عند نصف الليل فإن صراخ الشعب يرتفع بأن العريس آت بقولهم "ننظر إلى قيامة المسيح ونسجد للقدوس يسوع المسيح ربنا الذي وحده بلا خطيـة" فقـد عاينوه قائماً فيهم بعبورهم من جهة الشمال إلى جهة اليمين أي من كو م جداء إلى كو م قطيع حملان الرب. وهو رتب لهم ذلك العبور بتجديد الطبيعة الإنسان وإعادة خلقتها من جديد على صورة مجده و ائه.

وهكذا يخرجون لملاقاة العريس بالتسبيح وببشارة قيامته ودخول أرض الموعد وأرض الراحة. ويجتمعون مع الآباء البطاركة والأبـرار الـشهداء والنـساك وكـل الصديقين ويطلبون بصوت عظيم أن يصلوا هؤلاء عنا لأن الوليمة السماوية سـوف تقام وسوف نجلس في حضرة الملك العظيم.

التذاكيات ومديح والدة الإله:

وقد رتب الآباء أن يقام تمجيد لوالدة الإله لأ ا مثال الخلاص وأيقونة حكمة الله المُحاطة بتواضع تدبير التجسد و اء الابن الوحيد. وأعلم أن من لا يشترك في هذا إنما ينمو فيه تعليم نسطور المخالف الذي جرده الآباء من رتبته وأنزلوه مـن مقامـه وجعلوه أقل من الموعوظين. وكل من لا يعاين سر تدبير التجسد لا يمكـن أن ينـال درجة الإيمان الحسن ولو ظل طول عمره يرتل كل المزامير. فالرب وحده هو الـذي أكمل الإيمان ورفع الستار الذي كان يحجب النور ويبقى على المثالات أي معجزات وعلامات العتيقة لقد ظهر في خفاء نار العليقة ونادى موسى وكان ذلك مثالاً ا وله واتحاده بالجسد في أحشاء القديسة مريم وهو سبب استعمال هذه التسبحة في الكنيسة الجامعة الرسولية. وأمور الرب لا تنتهي لأنه إذا صنع أمراً فهو يكمل بأمر آخر أعظم منه والاثنين يكملان بظهوره المحيي. فقد ظهر في العليقة وأكمـل ذلـك بالتجـسد وأكمل التجسد باتحاده بنا في الأسرار الفائقة السماوية. والأسرار تكمل بدخولنا قدس الأقداس أي أورشليم السماوية ودخولنا أورشليم يجعلنـا نتكـئ في حـضن الآب السماوي مع إبراهيم واسحق ويعقوب وكل الأبرار والصديقين. عظيمة هي أعمـال الرب ولا إحصاء لفهمه لأنه يبدأ بالخلقة ويكمل الخلقة بالتجديد ويكمل التجديـد بالميراث السماوي. من أجل ذلك الأمر تقف العذراء والدة الإله كشاهد حقيقي على سر تجسده ومن يتأملها لا يسقطوا في فخاخ الهراطقة المميت. وكلما قيل شيء عـن

والدة الإله فهو إنما يبشرنا بالتجسد وأنه حقاً حل في أحشائها البتولية لكي يحل فينـا نحن الذين بالمعمودية نلنا البتولية الروحانية. فقد كنا قبل المعمودية نحيـا في الوثنيـة ونجاستها والخضوع للأرواح النجسة التي استعبدت الإنسان. أما بعد جحد الشيطان والاغتسال الروحاني فإن نفوسنا تلمع بذات اء وطهارة آدم قبل خضوعه لـلأرواح النجسة وعهده مع الشيطان. هذا البهاء سطع من والدة الإله لما جاء عليهـا الـروح القدس وصارت في حالة أعظم من تلك التي كان فيها آدم قبل السقوط. والسبب في أن النفس الإنسانية كانت مستنيرة ببهاء ابن الله وبسكنى الروح القدس ولكنها لم تكن قد تشرفت بحلول الابن الكلمة المتجسد فيها على النحو الذي تم في والدة الإلـه. لأن ابن الله سكن فيها بلاهوته وناسوته منذ ان بشرها الملاك وأطاعت كلمـة البـشارة. فصارت فائقة لأن الكلمة ذاته حل فيها بعد أن طهرها الروح القدس وقدسها وجعلها السماء الثانية كما نقول في التذاكيات. من أجل هذا نمدح ميلادها الفائق لأ ا أم لكل الأمهات ومثال البتولية النقية لكل الذين يسيرون في خطوا ا. وأعلم ان مديح العذراء يكون مثل مرآة للنفس ترى فيه النفس جمال الإيمان وعظم الرحمة الإلهية لأن الساكن في الأعالي قد نظر إلى جنسنا وأشفق عليه فجاء وحل في الأحشاء البتولية. هذا ترياق ضد اليأس ودواء عزاء ومرهم الهي كل من يناله لا يخزى ولا يعود يتكل على أعماله مهما كانت بل على الرحمة الإلهية التي أحيت جنسنا.

وقد رتب الآباء اللابسون الروح ان تقال التذاكيات كاستعداد لتناول الأسرار الإلهية النارية لأن الذين يزمعون الاقتراب من السر ا يد انما يتطلعون إلى الرحمة الإلهية التي ثبتت بتأنس الكلمة وحيد الآب. فلنرتل بكل قوة ونمدح فخر الخليقة الجديدة مريم والدة الإله لأن هذا نافع جداً لأرواحنا اذ يجعلها تفيق من الغفلات وتنهض من الكسل وترتفع إلى عظم اء العطية الإلهية ونحن نطلب شفاعة العذراء لكي نكون على مثـال طهار ا وعلى مثال نقائها ولأن بشار ا كانت قائمة بالكلمة الإلهية "لأن ليس شـيء

غير ممكن لدى الله" (لوقا ١: ٣٧)، فلنصلي التذاكيات بفرح لأ ا بـشارة معتمـدة لخلاص الجنس البشري.

عبور البحر الأحمر مع المسيح:

أما علة اختيار الهوسات التي تخبرنا بعبور البحر الأحمر وهي الهوس الأول مع لبشه والهوس الثاني مع لبشه والذي يختم بتمجيد الخليقة للثالوث وابصالية الفتية الثلاثة القديسين فهو مثل صعود النفس من أرض مصر ودخولهـا أرض الراحـة الكنيـسة الجامعة. فالنفس المشتاقة إلى الله ـرب من قوات فرعون الشيطان وانشغالات الحيـاة الأرضية فتعود إلى حصن النفس المنيع أي المعمودية المقدسة ولذلك ترتل تسبحة العبور مع المسيح الذي أغرق كل القوات التي تحاصر النفس وتريد أن تأسرها وتمسك ا في أرض العبودية. وبعد أن ترتل النفس الهوس الأول مع لبشه تتأمل كيف حاصر الـرب العدو وأغرقه ثم تمجده على أعماله العظيمة لأنه قتل الملوك والعظماء أي أجناد الـشر الروحية التي تقاوم الأمور السماوية (أفسس ٦: ١٢).

ثم تتأمل ذلك كله وتقدم التمجيد اللائق لأن الرب أعطاها أن ترى الخليقـة وهي تسبح وتخدم الثالوث. أما ان صراعنا قد يعود من جديد حسب نقـاء الـنفس واستعدادها فهو ما يجعل النفس تسبح مع الفتية الثلاثة القديسين لأن أتون النار هـو مصير القوات المعاندة. أما الذين يسيرون مع ابن الله فهؤلاء إنما يرتلون مع سـدراك وميساك وابدناغو. وبعد أن نفرغ من هذا فان عيون النفس ترتفع إلى المن والسلوى في أرض الراحة والهدوء ميراث إبراهيم الحقيقي وترى الجالسين في وليمة الملك العظـيم ربنا يسوع المسيح أي المدعويين من كل جنس وقبيلة ولـسان أي مجمـع العـذراء والملائكة والرسل والشهداء والأبرار من كل مكان ولسان وهم الذين رآهم يوحنا في الجليان حاملين أغصان النخيل ويهتفون للحمل مخلص الذين يدعون باسمه.

وهكذا تعبر نفوسنا مياه البحر الأحمر مع المسيح أي هموم هذا العالم تاركة خلفها أفكار ونيات وإرادة أرض العبودية لكي تنال المن قوت النفس الحقيقي الذي يشبع ويعطي عدم الموت.

الإبصاليات:

وبعد أن نشبع من التسبيح ويتطهر فكرنا بعبور بحر العالم نتقدم إلى طعام قوي مشبع للنفس وهو الإبصاليات. ترتيب حكيم رتبه الآباء أن تسبق الإبصاليات التذاكيات لأن اسم ربنا يسوع المسيح يفوق كل الأسماء فهو الذي به اعتمدنا وتتلوه نفوسنا لكي تحيا. ومتى لازمته النفس مع كل نفس يدخل ويخرج يلازم إنساننا الداخلي حلاوة حضوره الإلهي. فالنفس تعرف اسم من تحب وتدعوه باسمه قبل ان ترتمي في أحضانه الإلهية فلا تعود تعرف اسماً آخر سواه. ومتى ذاقت النفس من هذه الحلاوة فإنها تعلم أنها تستعد لتكون على مثال والدة الإله أي تحبل حبلاً سماوياً بقبول الابن الكلمة في الأحشاء الداخلية أي الذاكرة والمخيلة وحركات نية القلب. ومتى حل ابن الله على هذا النحو قالت النفس التذاكية وهي متنعمة بجمال هذا الحبل الإلهي الفائق الذي لا يحدث حسياً وإنما عقلياً وهو علة بقاء الفكر في جوهره الأصلي أي عدم الموت والفساد.

أما النفس التي تشبع من اسم ربنا يسوع المسيح فهي تشتاق إلى السر ا يد ولا تفارقه لأن الاسم الحسن يلهب أشواقها ويجعلها تطلبه دائماً وتعطش إليه وتشبع منه. فلنرتل الإبصاليات كل حسب اليوم المعين لها لكي نفوز بهذه العطية الفائقة وننال رحمة ربنا يسوع المسيح.

✞ ✞ ✞

الفصل الثاني

باكر وهو سحر قيامة ربنا يسوع المسيح

مكتوب في الكتب الإلهية ان المحبة هي كمال الناموس وإ ا ترضى بكل شيء. وقد رضى الآباء الرسل والشهداء الظافرين بالعري والجوع والمرض وأتعاب الجسد والموت بوسائل كثيرة وأحبوا هذا لأن محبتهم كانت عظيمة لربنا يسوع المسيح. هؤلاء كانوا يقومون باكر كل يوم ويذهبون للبيعة لمعاينة قيامة ربنا يسوع المسيح. وأعلم أننا نبارك الرب الإله الثالوث القدوس لتجسد وموت وقيامة ابنه الوحيد وحلول الروح المعزي علينا في الأسبوع على هذا النحو:

أيام الاثنين والثلاثاء خلقة آدم وحواء وسقوط الجنس البشري والأربعاء تشاور اليهود على المخلص لكي يصلبوه وهو ما يستدعي صومنا لكي لا نشترك في أي أعمال غريبة تبعدنا عن ربنا يسوع المسيح. وفي يوم الخميس نعترف بالإيمان الأرثوذكسي ومجيء الخلاص أما في يوم الجمعة فإننا نعترف فيه بموت ربنا بالجسد عنا ولذلك نصوم مثل الأربعاء ما عدا الخماسين المقدسة ونرتل لصليبه المحيي وعلامة الخلاص العظيمة التي تتحد ا نفوسنا. وهكذا نجيء إلى يوم قيامة المخلص أي يوم الأحد بل راحة السبت والترتيل اللذيذ وتأمل الخليقة.

وبعد أن نجوز مع الرب البحر الأحمر ونسمع مجيء صوت العريس نعاينه حياً من بين الأموات في صلاة باكر لأنه وهو حي يقودنا إلى الحياة الجديدة وينهض جنسنا الميت ويكون ان إشراق النور مع بداية يوم قيامة ربنا هو اشراقة الحياة الجديدة التي

يطلع عليها نور النهار الجديد وقد تطهرت بالتسابيح وتذوقت اسم الخلاص وشبعت منه فاستعدت ان تسمع بشارة الإنجيل المقدس أي مجيء ربنا يسوع المسيح لكي يبشرنا بالقيامة. وأعلم ان كل أناجيل باكر هي خاصة بالقيامة ما خلا بعض الأيام وعلة هذا الترتيب ان الآباء الذين شيدوا البيعة إنما كانوا يعاينون الرب حيـاً عنـد الغلـس[١] ويشاهدونه ويتكلمون معه فصار ترتيب صلوات القداس أن يبدأ بالقيامـة وذكرهـا المحيي.

الأواشي تخوم البيعة:

تعلم يا إنسان كيف تحيا لله وحده بالصلاة والطلبة لأجل الآخرين أما الذين يهجرون الصلاة لأجل غيرهم ويتأملون في حيا م وحدها ويطلبون لأجل حيا م فقط فهؤلاء لا يقتنون شجاعة الصلاة لأن كثرة تأملهم في حيا م فقط تجعلـهم أسـرى للوسواس والخيالات، فالقلب الذي لا يخدم غيره لا يخلص إلا بأتعاب كثيرة ولا تنمو قوة الدالة عنده لأنه لم يتذوق كيف يتراحم الرب على الخليقة. ترتيـب حـسن ان نتطهر من محبتنا الزائدة لأنفسنا بأن نطلب عن كل من له احتياج وكل من هو غُرس حي في البيعة المقدسة.

وأعلم ان الأواشي هي حقاً تخوم البيعة ليس لأن البيعة محدودة كقطعة أرض، ولكن لأنه حيث توجد البيعة فلا حدود لها، وإنما تخوم البيعة هي حيث شعب البيعـة كائن من الخدام وكل ملء الكنيسة الجامعة الرسولية.

وكما ان الرقيب يقام على الأسوار قديماً لحفظ المدينة وإنذار سـكا ا مـن الأعداء، هكذا يقام الأسقف والقس والشماس لحفظ تخوم البيعة والدعاء ليـل ـار بالطلبة لكي يحفظ الرب البيعة بسلام. وهذه هي علة ترتيب الأواشي، فأول كل شيء

---

[١] ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح.

أن نطلب سلامة البيعة، وبعد ذلك نطلب عن حسن خدمة الخدام الناظرين كل حين هدوء واستقرار شعب المسيح، وبعد ذلك نطلب عن الاجتماعات الكائنـة في كـل كنيسة لكي يفتح الرب الإله أمام القاطنين في كل م ل طريق الحياة الأبدية. ولأننـا نعاين المسيح قائماً من بين الأموات فإننا نتوسل إليه بالأواشي سائلين من قوته الإلهية ان يحي الكل. وعندما نتوسل بالطلبة فإننا نقدم احتياجات الكنيسة وسؤالات أبنائهـا لكي نجوز هذه السحرية ونحن في هدوء وعفاف وطهارة.

✞ ✞ ✞

الفصل الثالث

البخور رائحة حياة الابن الوحيد

في العتيقة أمر الله موسى أن يقدم له بخوراً، ولم يكن يقدم في زمـن الآبـاء البطاركة إبراهيم واسحق ويعقوب لأن هؤلاء لم يضعوا أساس خيمة الاجتمـاع ولا عبدوا الرب الإله حسب الشريعة، لأن الشريعة لم تكن قد أُعطيت ولا ظهر الله على الجبل في سحاب وضباب ونور ونار ومنظر مخيف أدخل الرعب على قلـوب بـني إسرائيل.

فإذا كان البخور من القواعد الأساسية التي أرستها الشريعة لعبادة الرب الإله فإننا نقدم البخور للثالوث القدوس كرائحة حسنة طيبة وتقدمة وصعيدة لأن الكاهن الذي أستوعب أسرار الخلاص موسى العظيم قد وضع أساسات البيعة الجامعة الرسولية (الكاثوليكية) فأعلن له عن تقسيم الهيكل إلى قدس أقداس وقدس. وأقام مذبح البخور في القدس وليس في قدس الأقداس لأنه مذبح شفاعة ووساطة لدى الله الآب. وهكذا في كل صلوات الشفاعة والتوسل يقدم البخور عوضاً عن الشعب رائحةً مقبولةً لدى الله الآب، وهي رائحة الابن الوحيد الذي أصعد ذاته بخوراً ورائحةً ذكيةً عن خلاصنا، فاشتمه الآب الصالح وقت المساء عندما مات على الجلجثة (الجلجلة). من أجل ذلك كان البخور يقدم مع التضرعات والصلوات لله حسب خدمة العتيقة، ويقول معلمنـا داود النبي "لتدخل صلاتي إليك كرائحة بخور" (مز ١٤١) وهو قول ثابت لأن البخور كان يقدم في أوقات الضيق وعند الحصار طلباً لرضى الرب واستجلاب مرضاته. وقد

وقف الكاهن النبيل فينحاس با مرة وفيها البخور فتوقف الوباء لأنـه أدرك بـروح النبوة أن حياة عدم الفساد للابن الوحيد سوف تقدم عنا لكي يرفع الله الآب وبـاء الموت عن الإنسانية. وهكذا صار مثالاً لرئيس الكهنة الذي أصعد ذاته رائحة بخـور ذكية لكي يسترضي الآب الصالح.

وكما كان البخور يقدم في القدس - وهو الترتيب النبوي القـديم - صـار يقدم أيضاً في القدس، أي الأواشي المقدسة التي تسبق دخولنا إلى قدس أقداس الرب، أي صعيدة وذبيحة ربنا يسوع المسيح نفسه؛ لأ ا هي التي ـا نـدخل إلى قـدس الأقداس، أي حضرة الآب السماوي. من أجل ذلك يطوف الكاهن با مرة حـول المذبح أثناء تلاوة الأواشي لأنه يطلب قبول الصلوات والطلبات في وساطة الكـاهن العظيم ربنا يسوع المسيح الذي قدم ذاته عنا.

أما سبب الطواف حول المذبح، هو عظة للكاهن والشعب معـاً لأن تقـديم الصلوات بالطواف هو إعلان على ان المذبح هو الذي يتوسط طلبـات وتوسـلات الكنيسة الجامعة (الكاثوليكية) وإننا به نبدأ وإليه ننتهي. وكل من يقترب من المذبح إنما لا يقترب إليه بمفرده وإنما معه توسلات وسؤالات الكنيسة. وهكذا هو معنى العظـة للكاهن الذي يطلب عن الكنيسة وللشعب الذي يتوحد معه في الطلبة والكل واقـف عند مثال الاتحاد السري أي المذبح الإلهي الذي أقامه الروح القدس في الكنيسة الجامعة (الكاثوليكية). وهكذا يذكر الشعب ان هذا هو الذي قالوا له: أكسيوس. أكسيوس. أكسيوس عندما رسم وأُقيم لخدمة المذبح وان هذا هو الذي اختـاروه لكـي يقـدم ويتوسل عنهم ويخدم مذبح الكنيسة الجامعة (الكاثوليكية) في كنيستهم التي هي كنيسة الله التي اقتناها بدم ابنه الوحيد.

ولذلك السبب أيضاً يقدم البخور أثناء الطواف بالمذبح لأن الـذي أعطـى الخدمة المقدسة الشريفة هو الكاهن الحقيقي ربنا يسوع المسيح وهو الذي بحياته الغالبة

للموت والفساد يقف في وسطنا معلناً برائحة حضوره قيامتنا وغلبة الفساد بـالبخور المختار الذي يقدم عنا في كل صلوات التوسل وفي كل طقوس البيعة مثل المعموديـة ومسحة الميرون والأكاليل والجنازات وسائر الطقوس الأخرى.

وأعلم أننا نرفع البخور أثناء قراءة الكتب الإلهية لأن البخور شـهادة علـى حقيقة تجسد ابن الله وان التجسد هو ختم الوحي المبارك الذي أُعطـي للأنبيـاء في العتيقة كلمة نبوية ووهب عياناً وحقائق ظاهرة لمسها الرسل بأيديهم كقول الإنجيلـي يوحنا (١ يوحنا ١ : ٣).

ومتى رأيت البخور سبح بفكرك من جاء وتنازل وأخذ صورة العبد لكي يرفع العبيد من مزبلة العبودية إلى شرف وكرامة البنوة السماوية. هذه رائحة الحياة الجديدة التي أدخلتنا في شركة السماويات ومع السماويين.

وأعلم أيضاً أننا في خدمة العهد الجديد أننا نجلس في وليمة السماويين، وأننـا معهم نقدم التسبيح والشكر للثالوث القدوس الذي افتقدنا بمجيء الابن الكلمـة في الجسد وميلاده من العذراء وموته وقيامته وصعوده إلى السماء ثم مجـيء البـارقليط المعزي. هذه هي رائحة البخور الحقيقي. ولما ولد سيدنا وربنا له ا د مـن العـذراء أدرك ا وس أنه الكاهن الحقيقي فقدموا له البخور لأن حياته قـد أشـرقت بـالنور والفرح إذ جاء بميلاد بلا زرع بشر ومن بتول لم تعرف رجلاً فولد علـى خـلاف الطبيعة لكي يؤسس ميلاداً جديداً للبشرية على خلاف الطبيعة، أي ليس من الـزواج ولا من زرع الرجل ولا من امرأة كقول الإنجيلي يوحنا (يو ١ : ١٣).

هذا هو البخور المختار الذكي ورائحة حياة إلهية سماوية آتية في الجسد لكـي تطهر الطبيعة الإنسانية من الفساد والموت. أما عندما مات ربنا فقد انفصلت نفـسه الإنسانية عن جسده ولكن لاهوته لم ينفصل قط لا من نفسه ولا من جسده. وهكذا فاحت رائحة الاتحاد السري أي أقنوم الابن الكلمة الذي لبس طبيعتنا لأن جـسده لم

ير فساداً بسبب اتحاد اللاهوت به، أما نفسه فقد أنارت الهاوية وجعلت العالم المظلـم يرتعد وأصعدت معها آدم وبنيه من الجب الأسفل أي المواضع المظلمة التي كانت فيها النفوس مأسورة. وهكذا عطر الرب الهاويةَ بعدم الفساد لأنه حل فيها ولم يقدر الموت ان يمسكه، رائحة غلبة وخراب للهاوية.

ولما قام ربنا وإلهنا فقد عادت نفسه واتحدت بجسده، فقام حياً معلنـاً ايـة موت الإنسانية ومبشراً بالفرح الحقيقي أي فرح القيامة المقدسة. وهكذا أباد الفـساد وأذل الشيطان وكسر الهاوية ورفعنا لله أبيه من الجب الأسفل وأظهر الحياة القـاهرة الموت. لذلك عندما يقدم الكاهن البخور، فهو يضع خمسة أياد: للميلاد والـصليب والقيامة والصعود وحلول الروح القدس المعزي. خمسةُ ينابيعٍ فاضت بالحياة الغالبـة. وبعد قيامته صعد إلى السماء ولم يترك جسده الذي أخذه من العذراء بل حمله معـه ودخل به أمام عرش الآب وهناك رآه يوحنا الحبيب في سفر الرؤيا (الجليان) في شكل حمل.

وأعلم ان الرب لم يتحول إلى حمل بعد صعوده وإنما اختار الرب ان يعطـي هذه الصورة السرية من أجل الذبيحة التي أقامها في البيعة لأن يوحنا رآه مثـل حمـل مذبوح (رؤيا ٥: ٦ ، ١٢) وهكذا شرح لنا ان الصعود لم يكن اية الخلاص بل اية ما عمله الرب لأجلنا وبداية ما نناله نحن من اشتراك حقيقي في الأسـرار الـسماوية العظيمة أي ميلادنا على مثال ميلاده وموتنا معه ودفننا وقيامتنا على مثـال قيامتـه واتحادنا بالروح القدس الذي حل وطهر الأحشاء البتولية ومسحه في الأردن وقربـه للآب قرباناً عنا (عبرانيين ٩: ١٤) ثم أقامه من الموت وأصعده إلى السماء وبعد ذلك سكبه الابن الوحيد مثل غنيمة عظمى على الكنيسة، فقد فاز الابن الوحيد بما لا يمكن ان يفوز به بشر لأنه ليس ابن البشر فقط بل ابن الله أيضاً الواحد وغير المنقسم من بعد الاتحاد إلى اثنين. ولما فاز بعدم الفساد لأجلنا من قبل الاتحاد وبعدم الموت مـن قبـل

القيامة وببداية سماوية من قبل ميلاده من الروح القدس ومن العذراء القديسة مريم، سكب الروح القدس الذي اشترك في كل هذه ووزع الروح هذه علينا وأضاف إليها المواهب الروحية السماوية التي يوزعها حسب إرادته كقول بولس الرسول (١ كو ١٢ : ٧-١١).

وعندما يقدم الكاهن هذه الخمسة الأيادي فهو يعترف بالإيمان الأرثوذكسي معلناً ان الرب افتقدنا وأفاض علينا الحياة العديمة الموت الغالبة الفساد.

وقد سبق وقلنا ان يوحنا الحبيب رآه في صورة حمل لأنه واقف مثل الذبيحة الطاهرة عديمة الفساد عنا وعن جنسنا يشفع فينا بجلوسه عن يمين الآب وعلى عرش مجده.

وكلما قدم الكاهن البخور أثناء التوسلات، فهو يعرفنا مسبقاً ان الطلبات مقبولة لأن حياة ربنا هي التي تشفع فينا وتجعل صلواتنا تدخل إلى قدس الأقداس بلا مانع ولا عائق.

ومن بعد الإنجيل لا يلمس الكاهن البخور ولا يمد يده إليه حتى قوله "تجسد وتأنس" وعند الطلبة من أجل الراقدين. وعلة ذلك ان الحياة التي يشير إليها البخور سرياً تكون معلنة بكلمة الله والصلوات، أما بعد ذلك فان الذي يقدم لنا ويعلن حياته هو الرب نفسه ويكون ان من شم رائحة عدم الموت في مواعيد كلمة الله وعاين القيامة بالاعتراف الرسولي (قانون الإيمان)، هو الذي ينال قوة وإشراق حياة الابن الوحيد عندما يضع ذاته عنا ذبيحة مقبولة لله الآب. وأنت يا من ترتل مؤكداً ان الابن الوحيد ولد من العذراء وقد رأيت ذلك في ا مرة [1] التي تخبر باتحاد اللاهوت بالناسوت تراه هو ذاته ليس رؤية العين، وإنما رؤية الروح التي يعلنها الروح القدس للفاهمين ولذلك يتوقف المثال متى جاء النور.

---

[1] الإشارة هنا إلى اللحن الكنسي "ا مرة الذهب ...".

أما عندما نقول تجسد وتأنس ويضع الكاهن البخور فهو اعتـراف بالأمانـة الأرثوذكسية أي اتحاد اللاهوت بالناسوت لأن هذا هو أساس السر ا يد. وان لم يكن ربنا هو اقنوم الكلمة والابن الوحيد ما كان قد قال "ان من يأكل جسدي ويـشرب دمي له حياة أبدية" (يوحنا ٦: ٥٤)، فأكل الجسد وشرب الدم هو اتحـاد بـالابن المتجسد واتحاد بلاهوت الكلمة واهب الحياة. هذه هي علة تقديم مثـال الاتحـاد أي ا مرة لكي يصعد منها البخور الذكي معلناً لنا حياة الابن الغالبة الموت.

وكذلك أيضاً عندما يقول "وضع لنا هذا السر العظيم الذي للحياة"، فهـو يأخذ من ذات البخور الذي قدمه عند قوله "تجسد وتأنس" لكي يعلن السر الواحـد أي حلول الابن الوحيد وكينونته على المذبح وقيامه عنا نحن المذنبين.

ومتى تم السر وحل الروح القدس لا يقدم البخور في الأواشي بعد اسـتدعاء الروح القدس لأننا لسنا أمام المثال وإنما أمام السر الكامل.

أما علة تقديم البخور في الطلبات التي تقدم عن الراقدين فأعلم أ ـا بـشارة للأحياء وان الرب قد ضم هؤلاء إلى مجده وانه يأخذهم كراع صالح إلى المياه الحيـة وانه يغذيهم في أورشليم السماوية.

✞ ✞ ✞

الفصل الرابع

كيف تقدس طقوس البيعة حواس الجسد؟

لما سقط الإنسان الأول أنقسم عقله وانقسمت النفس وصارت تنفصل عن الجسد بالخطية حتى يكمل انفصالها بالموت. وصارت الأهواء تقاتل النفس فتظن هي خطأً أن هذه الأهواء نابعة من الجسد ولكنها بالحقيقة نابعة من المخيلة التي تنشط بسبب فراغ النفس من حضور الله فيها وتبحث في كل اتجاه عن الأمور غير النافعة وتخلقها لذاتها صوراً وتجسم أمامها ما تريده دون أن تدرك أن هذه الأمور تزيد من ابتعادها عن الله وتزيد من انقسامها الداخلي.

وبسبب السقوط صارت حواس النفس معطلة لأنها عدمت النور الإلهي أي الروح القدس الذي يرشدها وينيرها وصارت النفس - وقد أهملت حواسها الداخلية - تظن أن حواس الجسد وهي السمع والشم واللمس والرؤية هي حواسها الأساسية التي تعتمد عليها، فأهملت حاسة التمييز التي كانت فيها أصلاً على مقتضى الطبيعة واستنارت بالروح القدس، فصارت بلا تمييز حقيقي لأنها اعتقدت أنها بدون الروح القدس تستطيع أن تقدر لذاتها ما هو الخير فوقعت البشرية بسبب سوء التمييز في شرك الوثنية وأهانت ذاتها بعبادة المخلوقات دون الخالق. لأن العبادة الوثنية أزالت من النفس الإنسانية قدرتها الطبيعة على التمييز وجعلت النفس عديمة الإدراك، فلا هي صارت تعبد الخالق ولا صارت تدرك الفرق بين الخالق والمخلوق.

وقد رتب معلمنا الرسول بولص في رسالته إلى رومية كيف كانت البشرية في أول عهدها بعد سقوط آدم تعتمد على معرفة الله من الطبيعـة (روميـة ١ : ١٩) ثم عدمت هذه المعرفة (رومية ١ : ٢١) وفى التمييز بقوله "وبينما هـم يـدعون أ ـم حكماء برهنوا بادعائهم على أ م جهلاء وذلك لأ م أبدلوا مجد الله الذي لا يضمحل بما يشبه الإنسان وصورته الذاهبة إلى الاضمحلال حتى أ م عبدوا الطيور والزحافات والدواب" (رومية ١ : ٢٢ - ٢٧) عند ذلك تركهم الله لكي يفعلوا مـا يـشاءون فكانت النتيجة الحتمية أ م أهانوا ذوا م وانحطوا وصاروا مثل الحيوانات التي يعبدو ا (رومية ١ : ٢١ - ٢٤).

تلك هي الأسباب الحقيقية وعلة وضع الطقوس الكنسية على النحو الذي نراه في البيعة. ذلك لأن الطقوس ترفع العقل والحواس من الحياة السفلية الأرضية إلى حياة سماوية عاقلة مستنيرة بالروح القدس. الطقوس تنقل الحواس من الإدراك الأرضـي إلى إدراك السماويات، أي أسرار البيعة المقدسة.

وأعلم أن الإنسان عندما خلق على صورة الله وحسب مثاله كان قادراً على رؤية الله ومخاطبته وسماعه. وبسبب عدم وجود شجار بين النفس والجسد كان اتحـاد الإنسان مع جسده لا يجعله يفرق بين ما هو مرئي بالعينين وما هو مرئي بـالنظر لأن عدم انقسام قوى النفس الداخلية جعل ما تراه النفس بقواها العاقلة واضحاً صـحيحاً حتى ان العينين كانت تشارك بالتركيز على ما تراه النفس، وهـذا هـو المعـنى وراء الكلمات في الأسفار الإلهية عن رفع القلب ورفع العينين لأ ما فعل واحد في حالـة اتحاد النفس والجسد وفعلين مختلفين في حالات الانقسام.

وكانت قوى النفس العاقلة مثل المخيلة والذاكرة والإرادة تعمـل كلـها في وحدة واحدة بلا انقسام لأن الموت لم يكن قد قبع في مخيلة الإنسان ولم تكن الإرادة تنفر من الصلاح والخير بل تتأمله في الآب والابن والروح القدس وتدرك أ ا بـدون

الثالوث عاجزة بلا حياة فتنجذب بقوة التشبه بالله الذي خلقت على مثاله إلى المحبة والخير بلا فزع وبلا اضطراب. وسوف نصير على هذه الحالة بعد ان نتقدس وينزع ربنا يسوع المسيح قوة الموت الكامنة فينا ويحرر المخيلة من فزع الفساد والانحلال ويصبغها بقوة القيامة وبصبغة عدم الموت لأنه يكشف لقوى النفس كيف كسر الجحيم وحطم متاريسه وأهان القوات الشيطانية التي تملك في الظلمة البرانية لأنه فضحها وجعلها كلا شيء.

أما قبل التجديد فقد كانت النفس تنظر إلى ذاتها فلا ترى فيها صورة الله إنما ترى فيها الموت وترى فيها الصورة الفاسدة التي آلت إليها بسبب السقوط وترى أيضاً إنها عاجزة عن الصلاح وأسيرة في يد العدو الشرير ومحدودة بحدود الموت. ولما أدركت هذا لم تكن قادرة على العودة إلى الله لأن الموت الذي سكن فيها وصار قوة دمار وخراب جعلها تنفر من الله نفسه وجعل المخيلة تخلق من الفساد والموت الذي فيها صور فاسدة ميتة بلا قوة حياة لأنها نابعة من الموت.

وأعلم أنه حتى الكلمة التي ينطقها الإنسان لم تعد قادرة على ان تكون وعاء الطهارة والفطنة، بل صارت أوعية الفساد والموت وصار كل ما ينبع من الإنسان الميت بالضرورة ميتاً أو ملوثاً بالموت. هذه هي علة شريعة التطهيرات في العتيقة لأن إفرازات الجسد ولمس الجثث وما إليها صار مثل علامات تحذير للإنسان بأنه يعيش تحت سلطان الموت وان النجاسة التي فيه نابعة منه ومن الأشياء التي يتصل بها وهذه النجاسة ليست كما علم المنشقين والهراطقة هي شر ومن صنع إله الشر، وإنما كتحذير بعدم طهارة الإنسان وبأن الخليقة أخضعت للبطل كقول الرسول بولص (رومية ٨ : ٢٠). وإذا صارت المستقيمات معوجات وانحرفت الخليقة عن الله، فقد صار من الضروري تحذير الإنسان ومحاصرة اهتمامه لكي لا ينحرف إلى الفساد. وهذه هي علة زيادات الشريعة وكثرة وصاياها وصعوبة طقوسها. وكما كان الإنسان يعبد

الحيوانات عديمة النطق صارت هي بذا ا ذبائح تقدم لله الحي خالق الكل ومع انـه لا يحتاج إلى ذبائح بالمرة وقد حذر بني إسرائيل مراراً كثيرة بواسطة الأنبياء مـن انـه لا يحتاج إلى دماء الثيران أو لحومها لأنه هو خالق كل الأشياء. ولكن صـارت تلـك المعبودات وسيلة الاقتراب من الله وصارت تلك التي يعلن عن ألوهيتها في الـديانات الوثنية هي بذا ا التي تقرب قرباناً لله الحي دلالة على ضعفها وإرشاداً للإنسان بأن الله خالق الكل وتحذيراً لكي لا يقع في الوثنية.

وهكذا صارت طقوس العتيقة قائمة بفرائض واغتسالات وذبـائح وصـفها الرسول بأ ا مؤقتة وموضوعة إلى وقت التجديد (1) (عب ٩: ١٠). أما طقوس البيعة الجامعة (الكاثوليكية) فهي ليست كذلك، إ ا اغتسالات عقلية تغسل العقل من ارتباك الفكر، وذبائح روحية تقدم الإنسان إلى خيرات الثالوث القدوس. ومن يغسل فكـره ليس كمن يغسل جسده لأن الأول إنما يغسل جوهره الدائم، والثاني يغسل مـا هـو ذاهب إلى التراب الذي أخذ منه.

وطقوس البيعة تـ ع من الفكر التهاون والتراخي والكسل وتحرض النفس على المثابرة وطلب السماويات. أ ا تغسل النفس من خطاياها لأ ا تقود النفس إلى تأمـل السماويات، وإلى إدراك ما نالته في الأسرار. وتفتح الطقوس عيني العقل أي المخيلـة وتنيرها وتجعلها تتحرك في اتجاه الخير والحياة لا اتجاه الموت والفساد، لأن الله وضـع المخيلة كعينين للروح ترى ما الأمور السماوية وتدركها في سهولة وتتعزى ـا إذا نالت استنارة الروح القدس.

والنفس التي رتلت في نصف الليل وسبحت لقيامة المسيح وانتظرته كعـريس واعترفت بقيامته، هذه النفس التي تطهرت بالتسبيح ترى الشمعتين على المذبح فتعرف من نور القيامة الذي امتلأت به من التسبيح أ ا أمام المسيح القائم والحي قاهر الموت

---

(1) في الترجمة البيروتية "وقت الإصلاح" والإصلاح والتجديد بمعنى واحد.

وغالب الجحيم، وترى في الشمعتين الملاكين الذين بشرا النسوة بالقيامة فتقبل النفس هذه البشارة التي استعدت لها منذ نصف الليل.

وعلى هذه الحال نرى كيف تغتذي النفس من التسبيح العقلي ومن كلمة الله وكيف تنهض من سبات نومها الثقيل متوجهة إلى البيعة سائلة من رحمـة الـرب ان تحسب مع طغمات الملائكة. ومتى سبحت مع الملائكة في "الكنيسة بيت الملائكـة" وعاينت فرح القديسين استنارت وأدركت أ ا في بيـت الله وإن الله حاضـر مـع القديسين وإنه أتى ليعلن ذاته في الوليمة السماوية أي وليمة الإفخارستيا أو الشكر.

مبارك من يسهر ويرتفع عقله تدريجياً ويتغذى بالكلمة لكي يستنير وتحـرك التسابيح والصلوات أشواقه الروحية لكي يطلب السماويات. وهكذا تقـوم طقـوس البيعة على الكلمة الإلهية التي نطق ا فم الرب، وهي الكلمة الـتي أخـذها آباؤنـا القديسين وصاغوها في الترتيل والصلوات واعترفوا ا في التسابيح والقداسـات وفي حيا م (اليومية) وفي المغارات وأمام الملوك والولاة وفي ا امع المسكونية.

والنفس التي تقبل الكلمة الإلهية مثل بذرة حياة، هذه البذرة يغرسها الـروح القدس في النفس لأن الروح هو الذي كو ا وهو الذي أعطاها للأنبياء، ومتى أخذت النفس الكلمة الإلهية وسكنت فيها صارت صلاة وتسبيحاً للثالوث. وهذا هو سـبب استعمالنا صلوات الآباء ا اهدين الظافرين واعترافات الشهداء الذين نالوا الثبات من المسيح فسكنت فضائلهم ورؤيتهم الحسنة الطوباوية في صلوا م التي وضعوها لتـدبير البيعة وإقامة الأسرار المقدسة. وعندما تحولت كلمة الله فيهم إلى صلوات صارت هذه الصلوات هي الاعتراف الصحيح بالإيمان وصارت الرؤية الحسنة الحقيقية لأسرار الله.

وتقوم طقوس البيعة على أعمال ظاهرة وهي حركات اليـدين والـسجود والبخور والحركة حول المذبح مثل الطواف به. وهذه مأخوذة من الأسرار الكنـسية وتعاد في القداس الإلهي لكي تثبت النعمة الإلهية العظيمة. فالاتجاه نحو الشرق يحـدث

أول ما يحدث في المعمودية بعد جحد الشيطان وهو تحول النفس من العبادة الباطلة الزائلة إلى عبادة ربنا يسوع بالروح القدس. هذا التحول هو سر وجودنا في البيعة لأن الذين يطلبون العبادة الحقيقية ويسجدون لله بالروح والحق هؤلاء هم الذي يجتمعون حول المائدة الإلهية مائدة الحياة.

ورفع اليدين هو مأخوذ أصلاً من الاعتراف بالإيمان في المعمودية وصار طقس الصلاة لكل من يصلي من بعد خروجه من الماء طالباً المعونة الإلهية. وهكذا نطوف حول المذبح قبل قراءة كلمة الله لكي ندرك إننا نحن الماثلين أمام مذبحه إنما نتحول من الاهتمامات العالمية وتجوال الفكر إلى الاهتمامات السماوية التي يصبح المذبح قلبها ونطوف بالتهليل وبالبخور لأجل سماعنا المواعيد السماوية التي تتلى علينا.

وهذا يحدث أيضاً في مواسم أعياد الشهداء والآباء عندما ندور بالعظام المقدسة والأيقونات والصلبان حول المذبح لأنه طواف التهليل بالظفر الذي حققه هؤلاء السعداء الأطهار بدمائهم. ولكن أول كل شيء هو أن يطوف المعتمد بالبيعة بعد عماده لكي يراه كل الشعب الذي حضر معموديته والذي لم يحضر ويطوف بالمرسومين لدرجات الكهنوت بعد رسامتهم لكي يراهم الشعب أيضاً وبعد ذلك يطوفون م حول المذبح.

وهذا هو الذي يجعل الأمور محركة للنفس والجسد لأن الإنسان واحد لا ينقسم واتحاد النفس بالجسد اتحاد كامل حتى ان أحدهما لا يقوى على عمل شيء بدون الآخر. ومن أجل هذا الأمر يطوف بالمذبح متذكرين مواعيد الله ومحبته العظمى ونائلين جة الخلاص لأن الإنسان إذا سار في هيكل الله أدرك ان الخلاص رحب وان مواعيد الله حقيقية لأنه أتى بنا إلى هيكله، وقبل ذلك غسلنا وقدسنا في جرن المعمودية المقدس، ثم أدخلنا إلى المذبح السمائي وجعلنا نطوف به متذكرين مراحمه الكبيرة. وهكذا تشترك الحواس وأعضاء الجسد في الطلبة والصلاة لأن الذين يطوفون بالبيعة في

الأعياد حاملين البشارة أو الصليب أو الأيقونات يتكون فيهم الحس الـداخلي بـأن أقدامهم إنما تسعى لتمجيد الله وخدمة البيعة وإ ا تسير في طريق الحياة غـير المعـوج وتطوف بالمذبح السمائي قلب الصعائد والقرابين والذي تقدم عليه حياتنا الناطقة.

وأعلم ان ترتيب حمل القربان ووضعه على المذبح هو ترتيب حكـيم لأنـه إظهار الإرادة والنية الداخلية بالرغبة في تناول الأسرار. وما يعمله الإنسان بيديه وعقله إنما هو ما يستقر في حياته الناطقة. وهكذا من يحمل القربان ويقف أمام المذبح إنما هو من يضع حياته ذبيحة حية مرضية عند الله أي حياته العقلية كقول بـولس (رو ١٢: ١) وهو يضعها لأنه يدرك انه بالصلاة وبكلمة الرب وبالاتحاد السري بالصعيدة الإلهية سوف يصبح طاهراً ومقدساً للرب أي ذبيحة حية مقبولة بالخدمة الـسماوية الـتي يرأسها ربنا يسوع المسيح الكاهن العظيم.

وأعلم ان هذا هو قولنا بعد القبلة الرسولية "رحمة السلام وذبيحة التسبيح" أي حياتنا تنقت من العداوة واغتسلت من البغضة، فصارت أهلاً لأن تقدم لله في تقدمـة ابنه الوحيد ربنا يسوع المسيح وهذا اتحاد كامل.

وبسبب وحدة النفس والجسد صار من الضروري أن تقوم النفس بـالطقوس ليس من قبيل اشتراك النفس مع الجسد أو اشتراك الجسد مع النفس لأن هذا يحـدث مهما كان العمل الذي يقوم به الإنسان. ومن يأكل الطعام يتذوق بفمه وبفكره يميـز الأطعمة ويختار منها ما يناسبه وبإرادته يضبط الحنجرانية [1]. ولكن الطقـوس هـي انشغال الحواس الداخلية والخارجية وترتيب صعود الفكر إلى معاينة الأسـرار لكـي يكون صعوده سهلاً وبلا تعب ولكي تكف مشاغبة الحواس ولا تعطل العقل. وهكذا يكون أن من يحمل البشارة ويطوف ا حول المذبح يدرك ان البشارة المفرحة تعلـن أسرار البيعة كما ان المذبح يشرح محتويات البشارة ومع ان العقل يتعلم هـذا إلا ان

([1]) الحنجرانية هو ترجمة مباشرة من القبطية وتعني شهوة الطعام ولذة التذوق.

الذين يسجدون عند سماع كلمة الإنجيل ويقبلونه إنما يقتنون الخشية والخضوع لله لأن الذي يقبل الإنجيل إنما يفهم كيف يكف عن الأفعال الرديئة ويكون ان العينين ترى البشارة والفم يقبلها والعقل يخشع والقلب يخضع ويرتفع إلى طاعة الوصية الإلهية.

طوبى لمن يقف منتبهاً في البيعة ويحترس بفكره لأنه ينال خيرات كثيرة لا يمكن النطق ا.

وهكذا تتقدس حواس الجسد لأن العينين ترى والفكر يفهم والفم يأكل الأسرار والقلب يرتفع بالرؤية الروحانية إلى الاتحاد السري. الجسد يسجد أو ينحني والإرادة تقتني الخضوع. القدمين تسير في البيعة أو تطوف بالمذبح والثقة بمواعيد الخلاص تزداد لأن حركة القدمين تغرس في الحس الداخلي رجاء تذوق المواعيد السماوية.

وتقدس الطقوس العقل الداخلي لأنه ينشغل بالترتيب ويرتفع بالتأمل والانشغال بالترتيب لا يجعله يفكر في الاهتمامات الباطلة وإنما يفكر فيما سوف يفعله وهذا يحصر الانتباه في الصلاة وتأمل الثالوث القدوس.

✞ ✞ ✞

الفصل الخامس

درجات الارتفاع العقلي نحو الرؤية السماوية

القداس الإلهي هو طريق الكاملين لمعاينة الثالوث القدوس وهو طريـق يبـدأ بالكلمة الإلهية وبالصلاة وبالتسبيح ويتدرج صاعداً إلى الاتحاد السري بابن الله وبالآب وبالروح القدس.

الدرجة الأولى هي الانتباه واليقظة ويصعدها الذين يواظبون علـى التـسبيح وسماع كلمة الله باشتياق وتأمل أسرار الخليقة الأولى أي خضوعها للخـالق. هـذه الدرجة تبدأ بالعشية ونصف الليل وباكر حتى قداس الموعوظين وفيها تتهيأ النفس إلى استقبال الرؤية فتغسل من أدران الإهمال وتتنقى من حس الابتعاد عن الله، لأ ا تسبح مع الخليقة غير العاقلة وتدرك سلطان الله الخالق وقوته الإلهية التي تضبط كل الأشـياء وهذه قوة حياة لأن الخضوع والطاعة لضابط الكل هو عتبة ملكوت الله.

الوقوف هو القيام من الموت، وهو انتباه العقل واهتمام الروح. الجلوس هـو مشاركة العروش السماوية في الجلوس عن يمين الآب. السجود هو طاعة كاملة للرب. "لنقف حسناً" أي حسب صلاح الرب الذي أقامنا من الأموات. "لنقف بانتبـاه" أي ليكن لنا يقظة لنعرف السر السمائي الفائق الذي يؤهلنا للخـلاص. ولنطلـب روح الذي أقام يسوع من الأموات لكي يعطي لنا قيامة العقل لكي ندرك ونفهـم أسـرار الملكوت.

القيام بكلمة الله:

عند سماع كلمة الله في رسائل الرسول بولس والرسائل الجامعة لنقترب بفرح من الذي يحمل كل الأشياء بكلمة قدرته (عب ١ : ٣) لأننا من أجل هذا الأمر نطلب شفاعة القديسين (الهيتنيات) لكي ننال ذات الاستنارة التي نالها هؤلاء (راجع صلاة يا رب المعرفة ورازق الحكمة).

الشاكيناه (سحابة المجد الإلهي) قبل قراءة الإنجيل:

وقبل قراءة الإنجيل وبعد أوشية الإنجيل يضع الكاهن بخوراً كثيراً لكي نرى الرب الآتي على سحابة المجد الإلهي لكي يبشرنا بالخلاص. الإنجيل هو بشارة الخلاص. هكذا يجيء الرب إلينا لكي يبشرنا بكلمة الحياة وبشارة الخلاص.

وأعلم ان الطواف حول المذبح ببشارة الإنجيل (الإنجيل الذي يحمله الشماس) هو بشارة الخليقة كلها بالخلاص، لأن المذبح المقدس هو قلب البشارة بالحياة الأبدية وهو مركز كل شيء ويجب الطواف حوله عند قراءة الأسفار المقدسة (سر البولس والكاثوليكون والابركسيس) لأن هذه الأسفار هي الكلمة الإلهية التي تبشر بالحياة الأبدية التي توهب لنا في السر السمائي، المن العقلي أي جسد ربنا يسوع المسيح ودمه الكريم.

✞ ✞ ✞

الفصل السادس

الأواشي بعد الإنجيل

في الأزمنة السابقة كان الموعوظون يقفون في خدمة القداس الإلهي، وكانـت هذه الصلوات تقال بعد العظة من أجل منفعة هؤلاء الداخلين للإيمان، ولذلك وجب أن يبقى هؤلاء لسماع الطلبات لكي يدركوا معنى الانضمام لكنيسة الـرب جـسده المقدس ولكي يشتركوا في الطلبة مع المؤمنين.

✞ ✞ ✞

الفصل السابع

صلاة الصلح

ولا يجوز التناول بدون مصالحة لأن الذي يشترك في الأسرار المقدسة وفي قلبه وجد وحنق هو مثل يهوذا الخائن الذي بقبلة باع سيده.

ويغسل الكاهن يديه معلناً أنه تطهر من خطية خيانة الأمانة، وإنه مستعد روحياً وجسدياً للصلاة وتقديم الذبيحة العقلية.

وحسب ترتيب البيعة يرفع الابروسفارين لأن سلطان الموت قد أُبيد بموت الرب، ويمسك الكاهن اللفافة المثلثة مؤكداً أن مشورة الثالوث هي التي ختمت سر موت الرب وقيامته. ويرفع الشماس الصليب معلناً المصالحة بدم المسيح الحمل الحي الذي لا يموت.

ويضع الكاهن لفافتين على يده معلناً أننا نحيا في الزمان الذي يجب أن نستر فيه أجسادنا العارية من نعمة الله مثل آدم. وبعد صلاة الصلح يضع اللفافة التي معه على يده اليسرى ويأخذ اللفافة التي على القربانة بيده اليمنى ويرشم ا الشعب بمثال الصليب قائلاً "الرب مع جميعكم" مؤكداً تجسد الرب وتقديم ذاته قرباناً للحياة الأبدية. ويرشم الخدام وبعد ذلك يرشم ذاته مؤكداً اتحاد الواقفين عند المذبح بالصليب المحيي الذي به نشكر الآب وبه نرفع قلوبنا بدم الوسيط الوحيد ربنا يسوع.

✞ ✞ ✞

أيها الجلوس قفوا:

ويصيح الشماس منذراً الشعب بأن يقف، ليس جسدياً، بل روحياً أي لكي ينتبه لأنه مزمع أن يشترك مع القوات السمائية في التسبيح.

أما علة رشم الشعب باللفافة التي على الكأس فهي ظاهرة لأن الرب يسوع قدسنا بدمه الكريم وبموته المحيي أعطانا قوة الاشتراك مع القوات السمائية في تسبيح الغلبة والخلاص.

✞ ✞ ✞

الفصل الثامن

أساس الخلاص

وبعد التسبيح مع القوات السمائية يقف الكل في انتباه لأننا ندخل الفـردوس الذي طُردنا منه بتجسد الرب وموته المحيي وبقوة الروح القدس. فقد عبرنا مع شعب الله بحر التقديس في العشية ولذلك نقف عند أرض كنعان أي أساس الخلاص بتجسد الرب وموته المحيي. وهنا يقرب الشماس البخور عند قول الكاهن تجسد وتأنس معلناً أن رائحة الحياة للمسيح قد نشرت في العالم كله. وعند قوله "لأنه فيما هو راسـم ان يسلم نفسه للموت عن حياة العالم" يضع يديه على البخور مؤكداً أن الحمل كلمة الله هو الذي أصعد ذاته رائحة بخور للآب وقت المساء على الجلجثة وفتح باب الفردوس وأنعم لنا بشجرة الحياة أي جسده المقدس.

✞ ✞ ✞

الفصل التاسع

التقديس

ويرفع الكاهن القربانة إلى فوق لكي يراها الشعب ويضع يده على الاسباديقون ويقول أخذ خبزاً على يديه مؤكداً أن الرب هو الذي فعل ذلك وان يديه الإلهية هي التي تحمل الخبز وهي التي ترشم، وهذا هو سبب رشم القربانة بعلامة الصليب، وعندما يرشم بعلامة الصليب يقول "وشكر" مؤكداً ان الشكر يقدمه الكاهن العظيم ربنا يسوع المسيح وان الصليب المكرم هو ختم الشكر وهو ختم البركة والتقديس.

وبعد ذلك يقسم الكاهن القربانة من أعلى إلى أسفل مشيراً إلى سر نزول الرب من السماء وتجسده، ويقسم الثلث القبلي والثلثان البحري مؤكداً أن الابن هو الذي تجسد وان الآب والروح القدس اشتركا بالإرادة والمسرة، ولكن اقنوم الابن هو وحده الذي اتحد بالطبيعة الإنسانية بشكل فائق. ويمر بإصبعه على حافة الكأس كله ثم يرشم ثلاث رشومات قبل تقديس القربانة ولكن هنا يحرك الكأس نفسه مثال الصليب شرقاً وغرباً وبحري وقبلي لكي ندرك أن الخلاص شمل الخليقة كلها.

✞ ✞ ✞

الفصل العاشر

استدعاء الروح القدس

وبعد أن ندخل إلى أرض الموعد أي حياة ربنا يسوع المسيح الذي هو أرض كنعان الحقيقية أي ميراث القديسين السمائي، يطلب الخـديم (الكـاهن) روح الآب السماوي لكي يجعل الخبز والخمر الذين ختما بعلامة الصليب المحيي جسد ودم ربنـا يسوع المسيح، وذلك تحقيقاً للمواعيد العظمى لأنه هو الذي رتب رتبة التدبير الإلهي أي الحبل البتولي وهو الذي كون الناسوت في أحشاء القديسة مريم وهو الذي مسحه في الأردن معلناً إياه "المسيح الرب". وهو الذي من جهته قدم ذاته على الصليب فداءً لجنسنا (عب ٩ : ١٣). وعند قوله "وهذا الخبز يجعله جسداً مقدساً" "وهذه الكـأس أيضاً دماً كريماً للعهد الجديد" يرشم ثلاث رشومات مؤكداً ان تدبير الخـلاص هـو تدبير الثالوث المقدس الواحد بالجوهر.

✞ ✞ ✞

الفصل الحادي عشر

ميراث المسيح

ويشير بيديه إلى الجسد المقدس والدم الكريم قائلاً "هذه التي اقتنيتها بالدم الكريم الذي لمسيحك" معلناً ان الكنيسة هي ميراث المسيح. وعلى هذا النحو يظهر أعضاء جسد الرب في طلبات سلامية وهي الطلبة من أجل الآباء وكل الخدام وكل الشعب. ويقول الكاهن في كل طلبة "أذكر يا رب" ليس لأن الرب ينسى، بل معلناً للقوات السمائية ان هذا هو جسد الرب أي الكنيسة، ويطلب السلام والخلاص للكل لأن هذا هو ذكرى الرب يسوع المسيح إلهنا رأس الكنيسة جسده. وهنا بالروح القدس يقدم أعضاء جسد الرب إلى الرب نفسه الذي تزوج الكنيسة وجعلها جسده في سر الزيجة الإلهي كقول بولس الرسول. ويصبح الكاهن مثل رئيس المتكأ يقدم أعضاء جسد الرب للرب نفسه، ويطلب بركة مواعيد الله الصالحة لكل شيء على الأرض حتى يأتي إلى مجمع الآباء القديسين وهم أعضاء جسد الرب الذين ظهروا ظهوراً حقيقياً وسلكوا بالقداسة ونالوا المواعيد. وإذا بدأ بذكر الآباء الذين معنا، فهو ينتهي بذكر الآباء الذين رقدوا واستراحوا في الرب مؤكداً أن الميراث الواحد هو الميراث الكامل والأبدي الذي ينتظر الجميع، إلى قوله "وأيضاً فلنشكر الله .." ويرفع الجسد المقدس جسد الرب الذي يحمل كل هذه الأعضاء المقدسة. ويرشم الجسد بالدم مؤكداً أن الجسد هو بالدم والدم هو بالجسد، ذبيحة واحدة سمائية غير مائتة إلهية.

✞ ✞ ✞

الفصل الثاني عشر

رتبة القسمة المقدسة

نحن نقدم هذه الصعيدة "من أجل كل حال وعلى كل حال وفي كل حـال" لأننا من أجل حياتنا وشفاء أجسادنا وأرواحنا، وفي كل أحوال الحياة لا سيما تلـك التي أسسها الرب أي أعياد الخلاص السيدية وغيرها من رتـب الكنيـسة الـشهداء والنساك وكل محبي المسيح. وفي كل حال لكي يجمع الرب أعضاء جـسده المقـدس ويجعل الكل واحداً.

وأعلم ان رتبة القسمة المقدسة تبشر القائمين في الكنيـسة المقدسـة برتبـة الخلاص، لأن تقسيم جسد الرب هو إبراز أعضاء جسده تلك التي كو ا الميلاد البتولي ومسحة الأردن والصليب المقدس والقيامة ا يدة، ونالت المسحة الإلهية. ولذلك يصير تلاوة الكلام المناسب أي كلام البشارة المقدسة حسب المناسبة الخلاصية.

وعندما يقسم الجسد المقدس فهو يفرز أعضاء الرب التي نالت المواعيد الإلهية حسب بشارة الإنجيل المقدس بالميلاد من فوق مثل ميلاده وبحمل الـصليب وبالبـذل والموت مثلما مات هو، فهذه هي أدوات الحياة التي ينطق ا الكاهن، وهـو يقـسم الجسد المقدس ويجعل القسمة على رمز الصليب المحيي وينقل هذا الرمز من الثلث إلى الثلثين دون فصل لكي يصير الجسد كله معلناً سرياً بالصليب، ولكي إذا نطق بكـلام القسمة وقسم الجسد يعلن صليب الرب سرياً قبل ان يأخذ الاسباديقون، ومتى أخذه يضعه في الكأس مقلوباً مثل الحمل الذي يذبح بعد ان يوضع على ظهره ويكـون في

الكأس ميراثاً للخدام، ولا يعطى للشعب ليس عن احتقار لأنه لا يوجد جزء في جسد الرب أعظم واقل، بل لا يجوز لنا أن نتكلم عن أجزاء بل نتكلم عـن جـوهرة لأن جوهرة واحدة مهما كانت هي ذات القيمة مثل الكل.

✞ ✞ ✞

الفصل الثالث عشر

التسليم الذي لا يقال جهراً

بعد تناول الأسرار المقدسة نشرب قليلاً من الماء لأننا نحن ولدنا من الماء الحي أي مياه الروح القدس في سر الحميم المقدس وسر الميلاد الثاني. والبسطاء من النـاس يظنون ان هذا هو احتراس لكي لا تبقى القرابين في فم المتنـاول، ولكـن الحكمـاء يدركون ان شرب المياه هي عودتنا إلى مياه الحياة أي الروح القدس الـذي بعـد أن تطهرنا بالدم الكريم نصير فيه، في ر الحياة الكامل التقديس، أي اقنوم الروح القدس الواهب الحياة والمحيي لكل من ينال الأسرار المقدسة.

وكما أننا ندخل الكنيسة ونسجد عند المذبح المقـدس أي في ذات الموضـع الذي أخذنا عنده القربان المقدس والدم الكريم بعد معموديتنا فإننا نعود إليه قبل كـل صلاة لكي نقدم الشكر والتسبيح على الفداء والخلاص الذي وهب لنـا في يـسوع المسيح ربنا. وهو ذات الموضع الذي نشرب عنده المياه الحية، وهو ذات الموضع الذي نأخذ منه خبز البركة الذي كان يرمز إلى ذبائح الآباء عند تقديم الحمل والذي يوزع على الشعب لأنه صائم فلا يتعب من أجل عدم الأكل. وهكذا نأكل من هذا الخبـز بعيداً عن الهيكل المقدس لكي يستقر في ضمائرنا ان ذبائح العتيقة لم تدخل هيكل ربنا يسوع المسيح وإنما الذي دخل هو الحمل الحقيقي ابن الله الحي.

وأما قولنا بأن تقدمة الكنيسة هي "الحمل" فهذا معروف لنا لأن الرب يسوع هو فصح الحياة الحقيقية، وهو حمل الله، وهو الأعظم والأكمل ولم يكن تقديمه وموته

حسب رموز العتيقة، بل حسب قوة الحياة في الروح المحيي، أي حـسب روح ربنـا يسوع المسيح.

يجمع الرب أعضاء جسده في وليمة الحياة الأبدية أي سر الأسرار الذي يـتم بشركة وصحبة الرب يسوع المسيح، وهو ما يجعل الكاهن يمر بالبخور في كل البيعـة مقدماً هذه التقدمة السمائية للرب، ثم لوالدة الإله والقديس يوحنا المعمدان والآبـاء الرسل وسائر طغمات الكنيسة. وإذا سلم البخور إلى الكاهن الـشريك أو صـافحة يلمس يديه أولاً بظهر يده ثم ببطن يده معلناً انه قدم البخور للرتب الـسابق ذكرهـا للملك المسيح وللملكة الحقيقية وكل أعضاء الجسد الحي أي رتب البيعة وفي كل مرة يلمس يد شريكة في الخدمة يذكره بأنه قدم البخور لهذه الرتب المقدسة وهذا التسليم لا يذاع ولا يقال لأننا في الأزمنة السابقة كنا نقوم بتقـديم البخـور أثنـاء وجـود الموعوظين الذين لم ينالوا الصبغة وكان هذا التعليم مثل غيره لا يذاع ولا يقال جهـراً وإنما كُتب هنا من أجل الفائدة.

وبعد التناول يرش الكاهن المياه معلناً امتلاء الكنيسة من مياه الحياة أي الروح القدس.

تم شرح القداس الإلهي للأب العالم الفاضل سمعان بن كليل
يا رب ارحم القائل والناسخ والقارئ والعامل بما فيه
الحقير في كهنة بيعة القديس مارجرجس بالريدانية
القس غبريال بن هبة الله الشطانوفي
وبارك على والديه
واحفظ لنا الاسكيم المقدس

✞ ✞ ✞

خاتمة

رش الماء في نهاية القداس

لماذا ينتهي القداس الإلهي برش المياه؟ ولماذا يقف الكاهن المدرب على الطقس إلى يمين المذبح، ويرش الماء ووجهه إلى الشرق بعد أن يسكب قطرات من الماء على المذبح؟ ولماذا يرفع الماء إلى أعلى؟

إن الإجابة ليست موجودة في التفاسير الشعبية الشفوية وإنما في مصادر العقيدة والطقس وهي الكتاب المقدس وتفاسير الآباء وشروحات القداس التي عرفت في الكنيسة الشرقية ابتداء من القرن الخامس.

حزقيال ٤٧: ١-١١:

ما يفعله الكاهن هو تطبيق دقيق لنص نبوة حزقيال الذي يقول: "وإذا بمياه تخرج من تحت عتبة البيت، نحو المشرق، لأن وجه البيت نحو المشرق، والمياه نازلة من تحت جانب البيت الأيمن، عن جنوب المذبح" (٤٧: ١). وهكذا يتصرف الكاهن القبطي حسب النص النبوي. ومن المعروف أن رؤيا حزقيال ٤٧ هي نبوة عن هيكل الكنيسة المسيحية، وهو المسيح الذي أعطانا هيكل جسده، (يوحنا ٢: ٣٧) وهو بدوره الهيكل في الكنيسة، العلامة المنظورة لحلول الله في وسط شعبه.

ونبوة حزقيال تقرأ في تقديس مياه اللقان في عيد الغطاس، ومنها أخذت الكنيسة الغطسات الثلاث في المعمودية، الغطسة الأولى إلى الركبتين (٤٧: ٣) - والثانية إلى الحقوين (٤٧: ٤)، والثالثة غطسة كاملة (٤٧: ٥).

وقد وصف النبي رؤياه بشكل دقيق، وتحدث بوضوح عن نهر مياه الحياة الذي يمنح الحياة لكل الكائنات (٤٧: ٦-٨) والمياه الحية النابعة من الهيكل تعطي الشفاء، لكل مياه الكون (٤٧: ٨). ولكن بشكل خاص يكثر السمك ويكون السمك كثيراً جداً (٤٧: ٩). النبوة تحتاج إلى دراسة.

أولاً النهر:

حسب تقليد الإسكندرية فان المعمودية، تسمى "الأردن". ولا زالت هذه التسمية، التي تعود إلى ما قبل عام ١٩٠، أي قبل القديس اكلمنضس السكندري، موجودة في كتاب التعميد القبطي، نحن نغطس في الأردن على مثال المسيح، وننال التبني، وهذا جزء جوهري من المعمودية في الكنيسة الجامعة وبشكل خاص في الإسكندرية.

إذن المنظر الذي حدث في الأردن يحدث في الكنيسة. والكنيسة قائمة على المعمودية، فهي سر دخولنا إلى الإيمان وانضمامنا إلى المسيح (١ كورنثوس ١٢: ١١-١٣).

والمعمودية قائمة على "الماء والروح" والماء بشكل خاص رمز إلى المسيح،وأحياناً رمز إلى الروح القدس نفسه. وهذا ما يجعل الرسول يوحنا يضع الماء - الدم - الروح وهؤلاء الثلاثة هم واحد في الواحد، والواحد هو المسيح (١ يوحنا ٥: ٧) فهو الذي مات ومن جنبه خرج دم وماء (يوحنا ١٩: ٣٤). وهو الذي سكب الروح القدس على الكنيسة (أعمال ٢: ٣٣). ولكن الروح الذي سكبه، هو الروح الذي أخذه هو أولاً عندما مسح في الأردن وصار المسيح الرب (لوقا ٤: ١٧ - يوحنا ١: ٢٣). هذا لا يجعلنا نفرق بين الماء والروح، لأن الماء هو المسيح وأحياناً هو الروح وهذا في حد ذاته شهادة على أن العمل الواحد للابن المتجسد. إنما يتم بالروح القدس.

ووحدة عمل الابن والروح القدس، تجعلنا نميز بين عمل الابن وعمل الـروح القدس، ولكن على أن ندرك أن الأقانيم، تعمل عملاً واحداً، حسب القاعدة اللاهوتية التي أرساها الآباء: كل شيء يعمله الآب بالابن في الروح القدس، هذا في حد ذاتـه يجعلنا نفهم لماذا يمكن أن يستخدم رمز الماء للابن المتجسد، وللروح القدس في نفـس الكتاب المقدس الواحد، لأن عمل الأقانيم واحد.

المسيح هو الأردن نفسه، حسب تقليد الإسكندرية، الذي يشرحه العلامـة أوريجينوس، يقول أوريجينوس، "أن معنى كلمة "الأردن" في العبرانية، الذي يـ ل إلى أسفل. "وما الذي يـ ل إلى أسفل، لكي تفرح مياهه مدينة الله العلي، كمـا يقـول المزمور (٤٦: ٤)، بالطبع ليس المقصود أورشليم المنظورة، التي لا يوجد أي ـر داخل حدودها الجغرافية، وإنما المقصود هو الكنيسة التي بلا عيب، كنيسة الله، التي بنيـت على أساس الرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاويـة. والأردن أي الـذي يـ ل هو إشارة إلى كلمة الله الابن، الذي تجسد وسكن بيننا، وأعطانا ناسوته ميراثـاً لنا، لأن يسوع هو الرأس وحجر الزاوية، الذي حل فيه كل ملء اللاهوت، واغتسل في الأردن، وقبل في ذاته الحمامة البريئة التي بلا غش، أي الروح القدس، وربطها فيه، لكي لا تطير بعيداً عنا.. والروح القدس الحمامة الروحية، لا تحط على أي ـر بل على ـر واحد هو المسيح" (تفسير يوحنا، الطبعة الإنجليزية، ص ٣٧٢-٣٧٤).

العقيدة هي أساس كل الطقوس، ولا يمكن فهم الطقوس بدون عقيدة. في هذا الإطار وحده يمكننا أن نفهم معنى العبارات التالية في ذكصولوجية باكر للعذراء:-

+ اليمامة النقية التي نادت في أرضنا، وأينعت لنا ثمرة الروح.

+ الروح المعزي الذي حل على ابنك في مياه الأردن، كمثال نوح.

+ هذا فلنتأمله في قلوبنا أولاً، ثم بعد ذلك نعلنه بلساننا، صارخين قائلين: يا ربنا يسوع المسيح، اصنع لك فينا هيكلاً، لروحك القدوس تمجيداً لك. (الإبصلمودية السنوية ص ٣٢٣ - ٣٣٤).

ما تحدده العقيدة هو حلول الروح القدس على العذراء لكي يولد لنا ثمرة هذا الحلول، أي المسيح، ثم حلول الروح القدس على المسيح في الأردن، حيث جاءت الحمامة وحلت على الفلك، وهنا ما فعله نوح هو رمز لما تحقق في العهد الجديد في المسيح. وبعد ذلك تنقلنا الكلمات إلى الواقع السري الذي تمارسه الكنيسة وتحيا فيه "اصنع لك فينا هيكلاً لروحك القدوس" وقد نسأل وما علاقة كل هذا بنبوة حزقيال (٤٧: ١-١١)؟

والجواب واضح، نحن صرنا هيكلاً لله في المسيح وبشكل حقيقي في الإفخارستيا التي جعلتنا، أعضاء لحمه وعظامه، وجعلتنا كما يقول كل الآباء شركاء في الميراث السماوي أي ناسوت المسيح. لقد صرنا هيكلاً لله بالإفخارستيا ولذلك ينبع فينا نهر الماء الحي الخارج من المسيح حسب كلمات الإنجيل "من آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه (جوفه) أنهار ماء حي قال هذا عن الروح القدس" (يوحنا ٧: ٣٧ - ٣٨).

وهي الإشارة الواضحة في العهد القديم، التي أشار إليها المسيح كما قال الكتاب أنها كلمة النبي حزقيال (إصحاح ٤٧: ١ - ١١) كما استقر في كتابات الآباء جميعاً، وكما رأى يوحنا في رؤياه (٧: ١٧ - ٢٢: ١)، نهر ماء الحياة الذي ينبع من عرش الله، ومن الهيكل حيث يجلس يسوع الحي والملك إلى الأبد لكي يمنح الكنيسة حياة جديدة.

لقد أخذنا الجسد الحي والدم الكريم، وصرنا هيكلاً لله، وفينا ينبع الماء الحي الذي من يشربه لا يعطش أبداً (يوحنا ٤: ١٤). وهذا هو معنى رش الماء بعد توزيع

الذبيحة، لقد صرنا حقاً نعيش الحياة الجديدة النابعة من جنب المسيح، الماء والدم والروح.

ثانياً السمك الكثير:

لقد دعا الرب الرسل الاثنى عشر، وهم صيادوا سمك ليكونوا بعد ذلك صيادين للناس (متى ٤: ١٩) وكلمة سمكة في اللغة اليونانية مكونة من الحروف: "ΙΞΘΙΣ" (راجع قاموس العهد الجديد اليوناني - باور - ص ٣٨٥).وبالقبطية "ⲒⲬⲐⲨⲤ" وقد فسر المسيحيون الأوائل هذه الحروف على أنها اختصار لصيغة الاعتراف بالإيمان المسيحي:

"يسوع المسيح ابن الله مخلص"

Ιησουζ Χριστοζ Θεου Υιοζ Σωτηρ

Ⲓⲏⲥⲟⲩⲥ Ⲭⲣⲓⲥⲧⲟⲥ Ⲑⲉⲟⲩ Ⲩⲓⲟⲥ Ⲥⲱⲧⲏⲣ

وهكذا صارت (السمكة) علامة سرية للاعتراف بالإيمان ولتعارف المسيحيين. وصار السمك هو شعب الكنيسة الذي جمعه الرسل في شباك التقليد الرسولي وحفظوه من ضلال الهراطقة (اكليمنضس الإسكندري - الآباء اليونانيين ٨: ٨٦١ - العلامة اوريجانوس عظة ١٦: ١ على أرميا - مجلد ١٣: ٤٤٠ - ترتليان مقالة المعمودية ١ مجلد ١: ١٣٠٦ - أوغسطينوس مدينة الله ١٨: ٢٣ - مجلد ٤١: ٥٨٠).

وهكذا يحيا السمك الكثير، أي شعب الله، أي الكنيسة، في نهر ماء الحياة بقوة الروح القدس. وهكذا يجعلنا نرى كيف ينتهي مزمور ١٥٠ في التوزيع حيث

يختم الشعب التسبيح باللغة القبطية قائلاً "ايسوس بخرستوس ابشري امفنوتي سـوتيم ايرون اووه ناي نان" أي يا يسوع المسيح ابن الله وهي الحروف التي تكـون كلمـة سمكة **IXΘYC** ولكن باللغة القبطية.

هكذا كل من يتناول عليه أن يبقى في ر ماء الحياة، لأن الخروج من الكنيسة معناه الموت الروحي. ويؤكد هذا النقش القديم الذي تركه مسيحي القرن الثالـث في القرية القديمة Autun والذي يعكس المعنى الذي نحن بصدده.

والنص اليوناني كما نراه، يظهر فيه اسم السمكة في أول سـطر وهـو أول كلمة.

IXΘYOC.O .... ION . ΓENOC.HTOPICEMN̈
XPHCE.ΛABω ...... N.AMBPOTONENBPOTEOIs
ΘECΠECIωN YΔATωN THN CHNΦIΛEΘAλΠEOΨYXην
YΔACINAENAOIC ΠΛOYTOΔOTOYCOΦIHC
CωTHPOC AΓIωN MεΛIHΔEAΛαMBαN ....
ECΘIEΠIN .... NIXΘYN EXωNΠAΛAMAIC.

وترجمة هذا النص تؤكد ما سبق وشرحناه "الجنس الإلهي للسمكة المقدسـة، القلب المقدس المولود، والذي يقبل وهو الساكن مع المائتين حياة عدم الموت. الميـاه الإلهية تغذي نفسك يا عزيزي، وهي مياه الحكمة الفياضة التي تغني بالحكمة، أقبـل الطعام الحلو المقدس من المخلص، كل وأشرب، وأجعل السمكة في يديك".

والنص يطلب الاعتراف بالمسيح ابن الله المخلص، لكي ينال الميلاد الجديد من المياه، وحياة عدم الموت رغم البقاء في الجسد فهذا ما تعطيه المعمودية.

ولكن المياه الإلهية أي الروح القدس وهي مياه الحكمة، هي التي تقود النفس المؤمنة إلى المسيح لكي تنال الإفخارستيا، أي جسد ودم المسيح يسوع ابن الله، الذي كان يوضع في أيدي المتناولين في العصور الأولى.